

الأخلاق الإسلامية في القرآن

دراسة في الأسس والمفاهيم

بطاقة فهرسة

مصدر الفهرسة:	IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda
رقم تصنيف LC:	BP103.3.N5 M3 2019
المؤلف الشخصي:	فهيم نيا، محمد حسين - مؤلف.
العنوان الأصلي:	مباني ومفاهيم أخلاق إسلامي در قرآن.
العنوان:	الأخلاق الإسلامية في القرآن: دراسة في الأسس والمفاهيم
بيان المسؤولية:	تأليف محمد حسين فهيم نيا؛ تعريب الشيخ محمد نبيل جمعة العالمي؛ إشراف ومراجعة وتقويم اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم.
بيانات الطبع:	الطبعة الأولى.
بيانات النشر:	النجف، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة الخلق العظيم، ٢٠١٩ / ١٤٤٠ للهجرة.
الوصف المادي:	٣٩٦ صفحة؛ ٢٤ سم.
سلسلة النشر:	(العتبة الحسينية المقدسة؛ ٦٣٧).
سلسلة النشر:	(مؤسسة الخلق العظيم).
تبصرة عامة:	أصل الكتاب باللغة الفارسية.
تبصرة بليوجرافية:	يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ٣٦٩-٣٧٩).
مصطلح موضوعي:	الأخلاق في القرآن.
مصطلح موضوعي:	الأخلاق الإسلامية.
مؤلف إضافي:	العالمي، محمد نبيل جمعة - معرّب.
اسم هيئة إضافي:	العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق). مؤسسة الخلق العظيم

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٥٧٩) لسنة (٢٠١٩م)

الإخلاص والإسلامية في القرآن

دراسة في الأسس والمفاهيم

تأليف

محمد حسين فهم نيا

تقديم

الشيخ محمد نبيل جمعة العاملي

إشراف ومراجعة وتقديم

المختار العلمي في مؤسسه الفنون والعصر



جميع الحقوق محفوظة

للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

إصدار

مؤسسة الخلق العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هوية الكتاب

- عنوان الكتاب: الأخلاق الإسلامية في القرآن دراسة في الأسس والمفاهيم
 - المؤلف: محمد حسين فهمي نيا
 - تعريب: (أستاذ مساعد وعضو المجلس العلمي في جامعة يزد)
 - إشراف ومراجعة وتقويم: الشيخ محمد نبيل جمعة العاملي
 - الناشر: اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم
 - الإخراج الفني: العتبة الحسينية المقدسة
 - التنسيق: يوسف أحمد العلي
 - الطبعة: أحمد المذحجي
 - المطبعة: الأولى
 - سنة الطبع: دار المؤمن
 - عدد النسخ: ٥٠٠
- ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

كلمة المؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد؛ فقد كانت الأخلاق ولا تزال هاجساً مهماً؛ يشغل مساحةً واسعة من الفكر الإنساني على اختلاف اتجاهاته الفكرية ومصادره المعرفية، وقد اشتركت في حمل هذا الهمّ الكبير مختلفُ المدارس الفكرية والديانات والحضارات، وسعت إلى معالجته وفق رؤاها المتفاوتة ومبانيها المختلفة. ويدلّل هذا الاهتمام البالغ على حقيقة في غاية الأهمية، تفيد أنّ الجانب الأخلاقي لدى أبناء البشر عصيّ على الإهمال والتجاهل، وأنّ أيّ محاولة لتجاهل هذا البُعد المحوري والفطري، أو التغافل عنه ليست إلّا محاولة لضبط بركانٍ هائج، أو السيطرة على ثورة عارمة في أعماق الإنسان تسوقه إلى ما يرى فيه خيره وسعادته وكماله، وهذا ما يدعو إلى التوقّف عند هذا الميل الفطري الجارف نحو الأخلاق؛ للإحاطة به والتعرّف على دقائقه وخفائيه، والسعي لمعالجته نظرياً وعملياً.

إنّ التأمل في ما تعيشه البشريّة - اليوم - من أزمات مختلفة على مستوى المجتمعات والأفراد يؤكّد حقيقةً مهمّة؛ وهي أنّ قسماً كبيراً من تلك الأزمات يعود إلى وجود فراغات كبيرة في المجال الأخلاقي، أخذت تنعكس سلباً على الجانبين الروحي

والسلوكي للإنسان المعاصر، وقد كان لمجتمعاتنا الإسلامية نصيبها من تلك الأزمات المتعددة الجوانب، فأثرت بشكل كبير على التراجع الأخلاقي الملحوظ، لا سيما مع ملاحظة مدى التعقيد الذي تتسم به التحديات الراهنة، وما تحمله الحياة المعاصرة من تغيرات مهمة، وانفتاح غير مسبوق على الأفكار والثقافات والأنماط السلوكية المختلفة في ظل الثورة المعلوماتية، والتنوع المذهل في وسائل الإعلام والتواصل.

لا ريب أن ملاحظة ما مرّ ذكره، تدعو المهتمين بالشأن الفكري والثقافي إلى وضع الحلول المناسبة، والعمل الجاد في سبيل مواجهة هذه الأزمات ومعالجتها على المستويين: (النظري والعملي)، من خلال التأسيس لرؤية أخلاقية شاملة، تقوم - في جانبها النظري - على الوعي التام والدقيق بطبيعة الإنسان، وأبعاده الوجودية، وخصائصه، وميوله، ورغباته، والعمل على إحياء القيم والفضائل الأخلاقية - في الجانب العملي - بشتى الطرق والوسائل المتاحة. ولا تخفى حاجة هذا العمل المهم إلى جهد مؤسساتي منظم، تتضافر فيه المساعي والخبرات في سبيل مواجهة التحديات، والنهوض بالواقع الأخلاقي للمجتمع المسلم. وقد سعت (مؤسسة الخلق العظيم) لتكون السبّاقة في هذا المجال، وإليك عزيزي القارئ هذه الإطلالة السريعة عليها.

(مؤسسة الخلق العظيم) ودوافع تأسيسها

لقد كان الشعور بالحاجة الملحة للعمل الجاد في المجال الأخلاقي، من قبل القائمين على العمل في العتبة الحسينية المقدسة، حافزاً مهماً لإنشاء مؤسسة متخصصة، ينصبّ جهدها على إحياء النهج الأخلاقي الإسلامي على المستويين: (الفكري النظري، والسلوكي العملي)، ونشره وترويجه بين أبناء المجتمع الإسلامي بطرق ونشاطات مختلفة، فتمخضت تلك الجهود المباركة عن تأسيس (مؤسسة الخلق العظيم)، التي اشتق اسمها من قوله تعالى في كتابه المجيد:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)؛ تيمناً بما نعت به الجليل الأعلى نبيه الكريم ﷺ بهذه الصفة السامية، على أمل أن تسدّ جزءاً من الفراغ الملحوظ في المجال الأخلاقي.

رؤية المؤسسة

تنطلق المؤسسة من الرؤية الإسلامية للأخلاق، وتتبنى استراتيجية عامة تقوم على ثلاثة عناصر أساسية يمكن أن نُعبّر عنها بـ(الأسس الميتافيزيقية للأخلاق)، وهي:

أولاً: الله تعالى

تنطلق الرؤية الأخلاقية الإسلامية من مبدأ التوحيد، والإيمان بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وتبني على أنّ الله تعالى قد أودع في الإنسان ميلاً فطرياً يدفعه نحو الخير وتحصيل الكمال بإرادته واختياره، وتُعدّ الغاية القصوى للأخلاق هي الوصول إلى القرب الإلهي باعتباره الكمال المطلق، وتكمن السعادة الحقيقية للإنسان في وصوله إلى تلك الغاية والاصطباغ بصبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٢). فالله تعالى هو الموجد للميل الأخلاقي لدى الإنسان، وهو المقصد والمبتغى الذي يجب على الإنسان التوجّه إليه في كلّ محطات مسيرته الأخلاقية، وأن يكون التوجّه إلى الله عزّ وجلّ هو الروح السارية في كلّ فعالياته الأخلاقية.

ثانياً: النظام الأخلاقي

تعتمد الرؤية الأخلاقية المتبنّاة على أنّ الله تعالى كما أودع نظامه الأحسن في الكون، والذي يسير فيه كل مخلوق إلى كماله المطلوب، أوجد - كذلك - نظاماً أخلاقياً متكاملاً، من شأنه أن يوصل الإنسان إلى الكمال من خلال رسم الهدف

(١) القلم: آية ٤.

(٢) البقرة: آية ١٣٨.

الأسمى له، وتعيين طريقه، وبيان العقبات التي تعترض مساره، وتعيين القدوة والمرشد في هذا السير، وهو ما تكفل ببيانه الدين الإسلامي الحنيف، بل هو من أهم الوظائف التي بُعث لأجلها سيد الرسل ﷺ، كما بينه بما روي عنه ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١). ما يعني أن هناك نظاماً أخلاقياً متكاملًا ومنسجماً مع فطرة الإنسان، تكفلت ببيانه الرسالة الإسلامية؛ فيتحتّم علينا التعرف عليه، واستكشاف ركائزه وتعاليمه، والعمل على نشرها وترويجها والتثقيف عليها بمختلف الوسائل والأساليب.

ثالثاً: الإنسان

يُشكّل الإنسان المحور في السجال الأخلاقي؛ فهو الموضوع الذي تدور حوله كلّ الجهود والفعاليات الأخلاقية بكلّ ما يمتلكه من خصائص وجودية، ونفسية، وطبيعية، وعقلية، وميتافيزيقية، وما له من احتياجات ورغبات وميول، وكلّ ما يؤثر في اتصافه بالصفات الأخلاقية، وفي صدور الأفعال الاختيارية منه. ومن الواضح أنّ كل محاولة تهدف إلى تهذيب الأخلاق الإنسانية يجب أن تنطلق من رؤية صحيحة وواضحة ومتكاملة عن طبيعة تلك الخصائص والميول والمؤثرات. ونعتقد - جازمين - أنّ الرؤية الأخلاقية الإسلامية تتوفّر على قراءة واقعية ودقيقة وتامة وشاملة، تغطّي العناصر المهمة والأساسية في وجود الإنسان وطبيعته وخصائصه وميوله، وكلّ المؤثرات في مسيرته الأخلاقية.

وما ذكرناه - آنفاً - لا يمانع من الانفتاح على العلوم والمعارف المهتمة بدراسة الإنسان وشؤونه وأبعاده المختلفة، لا سيّما مع التطوّر الكبير الذي شهدته تلك

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٠.

العلوم وتخصصاتها الدقيقة، كالعلوم الطبيعية والإنسانية؛ من قِبل علم الإنسان (الانثروبولوجيا)، وعلم النفس (السيكولوجيا)، وعلم الاجتماع (السيسيولوجيا)، وعلم التربية وغيرها، حيث يُمكن الاستفادة من معطيات تلك العلوم والمعارف في المجالات التي تصبُّ في سبيل تحصيل الوعي بخصائص الإنسان، والتعرّف على الوسائل المؤثرة في التربية والتهديب، شريطة أن لا تتصادم مع الأسس العقائدية، ولا تتنافى مع المبادئ والقيم الأخلاقية والتعاليم التربوية الإسلامية.

أهداف المؤسسة

تجدر الإشارة - في سياق الحديث عن مؤسسة الخلق العظيم - إلى الأهداف المتوخاة من وراء تأسيسها؛ إذ تهدف إلى:

- ١- رفد المكتبة الإسلامية بالنتاجات العلمية التحقيقية في المجال الأخلاقي؛ من خلال تأليف الكتب والموسوعات والبحوث والمقالات العلمية الرصينة.
- ٢- إحياء التراث الأخلاقي الإسلامي؛ من خلال رصد الكتب والمخطوطات الأخلاقية المهمة، والعمل على تحقيقها ونشرها، وفهرسة التراث الأخلاقي والتعريف به.
- ٣- النهوض بالجانب الأخلاقي والسلوكي للفرد والمجتمع؛ من خلال نشاطات مختلفة، تخاطب فئات المجتمع من الناشئة والشباب، وطلبة الجامعات، والأساتذة والكوادر العلمية والثقافية والمهنية، وأصحاب الاختصاص في المجال الأخلاقي، فضلاً عن الأسر، والمجتمعات بأطيافها كافة.
- ٤- رصد المحاضرات والدروس والخطب الأخلاقية النافعة والمؤثرة التي أفادها العلماء والمختصون في هذا المجال، والعمل على نشرها بأساليب مختلفة؛ كتدوينها وتحويلها إلى كتب، أو نشرها على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

٥- إقامة المؤتمرات العلميّة، والندوات البحثيّة المختصّة؛ من أجل إثراء الفكر الأخلاقي، وفتح آفاق بحثيّة جديدة، تتناسب مع روح العصر ومتطلباته، وإقامة الدورات المختصرة في الأخلاق العمليّة، سواء منها ذات الموضوعات العامّة، كالأخلاق الإسلامية، أو الخاصّة كالدورات في الأخلاق التطبيقية؛ من قبيل أخلاق الوظيفة، وأخلاق الأسرة، وأخلاق التعليم، وأخلاق المهنة وغيرها.

٦- رصد الظواهر السلبية في المجال الأخلاقي، والمشاكل السلوكيّة التي يعاني منها المجتمع، والسعي لتقديم دراسة متكاملة حولها؛ بغية وضع الحلول المناسبة لها.

٧- إعداد البرامج الإعلامية التي تسهم في معالجة المشاكل الفردية والاجتماعية المختصّة بالجوانب الأخلاقية، سواء منها البرامج المعدّة للبثّ على شاشات التلفاز، أو المناسبة للنشر على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

٨- رفد الساحة الفكرية بالتنتاجات الأخلاقية المهمّة عبر ترجمتها من اللغات المختلفة إلى اللغة العربيّة، وكذلك ترجمة التنتاجات المكتوبة باللغة العربية إلى اللغات الأخرى.

٩- فتح آفاق التعاون مع الجامعات والمراكز العلميّة والمؤسسات والشخصيّات المختصّة والمعنيّة بهذا الشأن؛ لترشيد العمل وتطويره، والإفادة من الكفاءات في هذا المجال.

١٠- إعداد كوادر متخصصة بالأخلاق الإسلامية؛ من أساتذة وخطباء وباحثين.

١١- السعي لإعداد المناهج الدراسية في مجال الأخلاق الإسلامية، وتقديمها للمدارس الدينية، والمدارس والمعاهد والجامعات الأكاديمية، والمراكز العلميّة الأخرى.

مشاريع المؤسسة

باشرت مؤسسة (الخُلُق العظيم) بإنشاء جملة من المشاريع في سبيل الوصول إلى أهدافها المنشودة، سواء المشاريع الطويلة الأمد والاستراتيجية أو غيرها، وقد صدر لها بعض الإصدارات في هذا الصدد، فيما سيري بعضها النور قريباً بإذن الله تعالى، وهذه المشاريع هي:

١- موسوعة المواعظ الحسنة

ويعمل هذا المشروع على تدوين وتحقيق خطب الجمعة الدينية ذات المضامين الأخلاقية، التي ألقاها ممثل المرجعية العليا في النجف الأشرف والمتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) في الصحن الحسيني الشريف منذ عام (٢٠٠٣م)، حيث تعمل المؤسسة على إخراجها بصيغة كتاب، بكل ما يتطلبه من تعديل وتحقيق واستخراج للعناوين وغير ذلك، وقد صدر منها المجلد الأول المتضمن لخطب عامي (٢٠٠٣) و(٢٠٠٤م)، والعمل جارٍ في الأجزاء المتبقية التي ستضم خطب السنوات اللاحقة.

٢- موسوعة الأخلاق الإسلامية الألفبائية

يهدف هذا المشروع إلى تأليف موسوعة ألفبائية أخلاقية، أو ما يُسمى بـ(دائرة المعارف الأخلاقية) تهتم بجمع المفاهيم الأخلاقية - والمقصود منها الصفات والأفعال الأخلاقية - مرتبةً بحسب الترتيب الهجائي، وتقديم عرضٍ كاملٍ ومستوفٍ وموثقٍ لكل ما ورد حول تلك المفاهيم وفق الأسلوب المتبع في تدوين الموسوعات ودوائر المعارف؛ من بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي، وبيان حقيقة المفهوم الأخلاقي، ووصفه في القرآن والسنة والتراث الأخلاقي، وبيان أقسامه وأسبابه ومناشئه وآثاره ونتائجه، والأحكام الفقهية التي يمكن أن تتعلق به، والآلية العملية للتخلي به إن كان

من الفضائل، والتحرّز عنه إن كان من الرذائل، وما إلى ذلك من المباحث المتعلقة بكل موضوع؛ وهذا ما يجعل من هذا المشروع سابقة مهمّة في المصنّفات الأخلاقية الشيعية، ومرجعاً مهماً ومعتبراً في الأخلاق الإسلامية.

٣- ترجمة النتاجات الأخلاقية

تهتم المؤسسة بترجمة الكتب الأخلاقية المهمّة إلى اللغة العربية وبالعكس كذلك، ونشرها بعد المراجعة الدقيقة لها وتقويمها من قِبَل اللجنة العلمية في المؤسسة، وقد تمّ العمل على ترجمة عدّة كتب، منها: الكتاب المائل بين يدي القارئ الكريم.

٤- مشروع التراث الأخلاقي

يتضمّن تعريفاً مختصراً بالكتب الأخلاقية، وفق الترتيب الهجائي، مع فهرسة تفصيلية للمباحث الأخلاقية في كلّ كتاب، وينتهي بفهرس موضوعي للمباحث الأخلاقية في جميع تلك الكتب؛ ليكون دليلاً نافعاً للمحققين والباحثين.

٥- تأليف سلسلة الفضائل والرذائل

تعمل المؤسسة على تأليف سلسلة كتيّبات حول جملة من الفضائل والرذائل الأخلاقية، يتمّ من خلالها مخاطبة الشريحة المتوسطة من القراء، وتناول المواضيع الأخلاقية المهمّة وذات الأولويّة على الساحة الاجتماعية، لمعالجة أهمّ المشاكل الأخلاقية، والحثّ على مكارم الأخلاق الإسلامية، والترويج لها.

٦- مشروع المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية

تعمل المؤسسة على إقامة سلسلة من المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية، بحضور نخبة من الأساتذة والباحثين المختصّين بالجانب الأخلاقي،

لبيان المواضيع الأخلاقية التخصصية المهمة، وعرض أهم الآراء والنظريات فيها، كفلسفة الأخلاق، وتاريخ علم الأخلاق، والمدارس الأخلاقية، والمقارنة بين علم الأخلاق والعلوم والحقول المعرفية الأخرى وما شابه ذلك؛ بغية إثراء الساحة الإنسانية والدينية بالفكر الأخلاقي الرصين والذي يعتمد بالدرجة الأساس على الأسس والمبادئ الإسلامية.

٧- المشاريع الإعلامية

تعمل المؤسسة على إعداد جملة من البرامج الإعلامية المختلفة، سواء منها ما يُعدّ لبث التلفزيوني، أو ما يكون مناسباً للنشر على مواقع التواصل الاجتماعي، من مقاطع وملصقات تعليمية وثقافية ذات المضامين الأخلاقية.

٨- إقامة دورات في الأخلاق الإسلامية

من مشاريع المؤسسة الاستراتيجية هو إقامة دورات قصيرة في الأخلاق العملية لمختلف الفئات، يتم فيها تدريس التعاليم الأخلاقية الخاصة بكل فئة من الفئات، وهو ما يتعارف عليه تسمية: (الأخلاق التطبيقية)، كأخلاق الوظيفة، وأخلاق الأسرة، وأخلاق التعليم، وما شابه ذلك.

٩ - المكتبة الإلكترونية الأخلاقية

إذ قامت المؤسسة بعملية مسح ميداني في المكتبات والمواقع الإلكترونية وجمع النسخ المتوفرة للكتب الأخلاقية والتربوية؛ لتكون مصدراً مهماً للباحثين في هذا المجال، ل يتم العمل على إعداد تطبيق مختص بالمجال الأخلاقي.

هذا الكتاب

الكتاب المائل بين يديك - عزيزي القارئ - من التناجات الأخلاقية التي كُتبت

باللغة الفارسية، والذي يحمل عنوان: (مباني ومفاهيم أخلاق إسلامي در قرآن)، ونظراً لأهميته؛ فقد قامت المؤسسة بترجمته إلى اللغة العربية؛ إذ يتمحور موضوعه حول استكشاف الأسس التي قامت عليها الرؤية القرآنية للأخلاق، مع بيان المفاهيم الأساسية التي ركّز عليها القرآن الكريم في المجال الأخلاقي، فضلاً عن اهتمامه بتوضيحها والتذكير بها؛ ما جعله كتاباً مؤهلاً لأن يوقف القارئ على صورة واضحة عن الرؤية القرآنية للأخلاق، كما أنه قد اتسم بتنظيم مناسب، وتبويب جيّد للمباحث، ولغة واضحة أيضاً.

إنّ أهمية هذه النماذج من الدراسات تكمن في اعتمادها بصورة مباشرة على القرآن الكريم - الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١) - في بناء الرؤية الأخلاقية وتحديد مفاهيمها المحورية، لا سيّما مع ملاحظة التباعد الواسع في المنطلقات والأسس النظرية والعملية للمدارس المختلفة في الأخلاق والتربية، واختلاف تلك المدارس - أيضاً - في تحديدها للخصال والأفعال ذات القيمة الأخلاقية الإيجابية والسلبية وتحديد أهميتها؛ وهذا ما يحتم علينا الرجوع إلى القرآن الكريم واستنطاقه للتعرف على رؤيته النظرية ومنهجه العملي في الأخلاق.

لقد ارتأت (مؤسسة الخلق العظيم) أن تُترجم هذا الكتاب، وتضعه بين يدي القارئ العربي لتعمّ به الفائدة؛ كونه من الكتب النافعة في هذا المجال، وقد كان للأخ المترجم جناب الشيخ محمد جمعة العاملي جهدٌ خاصٌّ ودور كبير في إنجاز هذا العمل، انعكس في إضافته لبعض الأمور المهمّة، ومتابعته الدقيقة للنصوص المنقولة، والتدقيق في هوامش الكتاب وتصحيح قسمٍ مهمٍّ منها، فضلاً عما بذله من جهدٍ في نقل الكتاب إلى اللغة العربية؛ فشكر الله سعيه، وبارك جهده.

وأما الدور الذي قامت به اللجنة العلميّة في (مؤسسة الخلق العظيم) فيتمحور في المراجعة الدقيقة والمتأنّة للترجمة وتدقيقها وتقويمها، وإجراء جملة من التعديلات الضرورية عليها، بالإضافة إلى بعض الملاحظات المهمّة التي تمّ إدراجها في الهامش، وقد رمزنا لها بحرف (خ) للتدليل على أنّها من إضافات (مؤسسة الخلق العظيم).

وفي نهاية المطاف لا يفوتنا أن نتقدم بوافر الشكر لجميع من ساهم في إنجاز هذا العمل، لا سيّما سماحة المتولّي الشرعي للعتبة الحسينية المقدّسة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) على دعمه للمؤسسة ومشاريعها، وللمترجم المحترم الشيخ محمد جمعة العاملي، والإخوة الأفاضل في لجنة التقويم والمراجعة، لا سيّما الأخ الشيخ أسعد السلّمان، على ما بذلوه من جهود حثيثة في سبيل إنجاز هذا العمل وإنجازه.

نسأل الله أن يتقبّل منّا ومنهم بأحسن القبول، وأن يجعل هذا العمل ذخراً لنا ولهم يوم نلقاه، والحمد لله ربّ العالمين.

اللجنة العلميّة في

مؤسسة الخلق العظيم

٢٠ / ربيع الثاني / ١٤٤٠ هـ

٢٨ / ١٢ / ٢٠١٨ م

مقدمة المترجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين.

أمّا بعد، فلا يخفى على القارئ الكريم ما للبحث الأخلاقي من أهميّة على المستويين الفردي والجماعي، كما لا يخفى ما للقرآن من دور تربوي وأخلاقي، ومع ذلك فلأسف قليلاً ما نرى التأليفات التي تناولت النظرية الأخلاقية القرآنية أو حاولت أن تستخرج الأسس والمفاهيم الأخلاقية في القرآن. ومن هنا؛ نجد أنّ الجهد المبذول في هذا الكتاب يُعدّ جهداً مشكوراً ومهماً في سبيل استخراج نظرية أخلاقية قرآنية تُقدّم لخدمة الإنسان والمجتمع الإسلامي.

وحيث إنّ مؤسسة الخلق العظيم التابعة للعتبة الحسينية أوكلت - مشكورةً - مهمةً تعريب الكتاب الحاضر لهذا العبد الفقير؛ لذا فقد سعيْتُ إلى تعريبه ونقله إلى القارئ العربي على أفضل وجهٍ ممكنٍ، مع مراجعة جميع مصادره ومراجعته، آملاً من الله أن أكون قد وفقت لهذه المهمة. هذا، وقد ظهر لي خلال العمل على الكتاب بعض الملاحظات المتعلقة بعملية التعريب، فأحببتُ أن ألفت نظر القارئ الكريم لها، وهي كالتالي:

١- حينما وجدت أنّ أغلب اقتباسات الكتاب ومصادره مأخوذة من كتبٍ عربيّة في الأصل، فقد عُدّت إليها وأوردت هذه الاقتباسات بعين العبارات العربيّة التي كانت في الأصل.

٢- كما أنّي عندما وجدت أنّ بعض المصادر هي بالأصل باللغة الفارسيّة، ولكنّ هذه المصادر تُرجمت إلى العربيّة وصارت معتمدةً ومتداولةً بين القراء في العالم العربي، فإنّي لم أقم بترجمة جديدة لها، بل اعتمدتُ على الكتاب المعرّب والمشور، وأذكر على سبيل المثال: كتاب (تفسير الأمثل) للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، وكتب الشيخ مصباح يزدي، ككتّابي (المنهج الجديد في تعليم الفلسفة) و(الأخلاق في القرآن)، وكذلك كتب الشهيد مرتضى مطهري، وغير ذلك من كُتب الأعلام المعرّبة... كما أُلِفَتُ النظر إلى أنّي استثنيتُ من هذه القاعدة الحالة التي وجدتُ فيها الترجمة المتوفرة لا تعكس المعنى الفارسي بشكلٍ صحيح، فكنْتُ أعتمد حينها إلى الترجمة بنفسني توثيقاً للدقّة، فكنْتُ اعتمد الأصل الفارسي بدلاً عن المعرّب في التخرّيج، وقد أشرتُ في بعض الأحيان إلى وجود نسخة معرّبة للكتاب في الهامش.

٣- حينما رجعتُ إلى المصادر العربيّة الأصليّة اعتماداً على النسخ التي ذُكرت في آخر الكتاب، وجدتُ اختلافاً في التخرّيج من ناحية الجزء والصفحة، ولا أعلم سبب ذلك، ولعلّه من سهو القلم أو خطأ الطابع، هذا فضلاً عن وجود بعض الأخطاء الأخرى في التخرّيج؛ ولذا عمدتُ إلى إعادة تخرّيج جميع المصادر العربيّة اعتماداً على النسخ التي ذُكرت من قبل المؤلّف المحترم آخر الكتاب، وأضفت لتلك القائمة المصادر الجديدة.

٤- هناك بعض التوضيحات التي ذُكرت في الكتاب للقارئ الفارسي في شرح بعض الكلمات العربيّة، وهي نادرة جداً، وحيث إنّ القارئ العربي لن يستفيد من

هذا التوضيح، فقد حذفها حين التعريب.

٥- أضفنا بعض التعليقات والتخريجات التي وجدنا حاجةً لإضافتها في الهامش، وقد وضعناها بين معقوفتين [...]، وأشرنا إلى أنّها من قبل المعرّب بالحرف ميم: (م).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

الشيخ محمد نبيل جمعة العاملي

مقدمة المؤلف

للإنسان أبعادٌ وجوديةٌ ثلاثة: الفكر، والصفات النفسية، والسلوكيات والأفعال. أمّا الفكر، فهو الذي يُشخّص الواقعيات عن غيرها، وأمّا الصفات النفسية، فهي القوّة التي في وجودنا والتي تُحرّكنا نحو الأعمال التي نقوم بها، وأمّا أفعالنا وسلوكياتنا، فهي البعد الوحيد الذي له بروزٌ وظهورٌ خارجيٌّ، وبما أنّ الإسلام منهجٌ ومدرسةٌ متكاملةٌ وجامعةٌ؛ لذا فقد تعرّض إلى الجوانب الثلاثة، وحتىّ الآيات الشريفة في القرآن الكريم تمّ تنظيمها وفقاً لهذه البنية، فهي لا تخرج عن هذه الأبعاد الثلاثة.

هذا، ومضافاً إلى تأثير المباحث الأخلاقية للدين في البناء الروحي للإنسان، فإنّ للمسائل العقائدية والإيمانية أثراً كبيراً في تقوية البنية الأخلاقية أيضاً، كما أنّ مراعاة الأحكام الدينية تُهيئ الأرضية لتغييرات مهمّة في طريق تهذيب الروح ونقائها، والوصول إلى الخصائص الأخلاقية الحسنة.

إنّ الكتاب المائل أمامكم على الرغم من كونه ناظراً إلى تصنيف المسائل الأخلاقية، فهو يسعى كذلك إلى إضفاء وجهة نظرٍ قرآنيةٍ عليها. على أنّ أغلب مباحثه ليست مسبوكّة بالسبك المتعارف عليه في الكتب الأخلاقية القديمة أو الحديثة.

يحتوي هذا الكتاب على ثلاثة أقسام، ويتكوّن القسم الأوّل من فصلين، يتعرّض الفصل الأوّل لمفاهيم الأخلاق وكلياتها، بينما يتعرّض الفصل الثاني إلى الأخلاق الفاضلة عند أرسطو، والأخلاق الإسلامية.

أما القسم الثاني فيتعرّض إلى الأسس القرآنية للأخلاق، فالأخلاق تعتمد على قواعد، مثل: تصحيح العقائد أو المباحث المبنائية والمؤثرة في مسألة المعاد، أو تبتني على القبول بعدة أسس وأصول قرآنية أخرى، من قبيل: اختيار الإنسان، وأصالة الروح، وتجرّد الروح، والحسن والقبح العقليين..

وفي القسم الثالث سيتمّ البحث عن علاقات الإنسان بالله وبالناس وبنفسه وبالطبيعة. ونتيجة لذلك؛ فإنّ كلّ واحدة من هذه العلاقات ستكون إمّا إيجابية أو سلبية. وقد بُحثت وقيّمت أغلب المفاهيم والعبارات الأخلاقية المعروفة بناءً على هذا التقسيم وبالاعتماد على الآيات القرآنية.

وقد قُمتُ في السنين السابقة - ونظراً للحاجة الماسّة - بكتابة بحثين أخلاقيين، وذلك بإشراف حجّة الإسلام والمسلمين جناب الأستاذ الدكتور أحمد عابدي، ثمّ قمت - وبتوصية منه - بالمواءمة بين البحثين لإعدادهما للطباعة.

ولهذا؛ فإنّي أرى هنا أنّ من الواجب عليّ أن أتقدّم بالشكر الجزيل لسماحة الأستاذ على كل ما قدّمه من لطفٍ ومحبةٍ، وبالخصوص عبر كتابته لمقدمة علمية جامعة لهذا الكتاب.

ونأمل من الله عزّ وجلّ أن يُوفّقنا للسير في مسيرة الهداية وبناء الذات، اعتماداً على المعارف العميقة والأبدية للقرآن الكريم ولأهل البيت عليهم السلام.

تقريظ حجة الإسلام والمسلمين الدكتور أحمد عابدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

على الرغم من أن (الفرار) في قوله الله عز وجل: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾^(١) من الممكن أن يُفسَّر بـ(الحج)، فكذلك الحركة نحو (الباطن) ونحو (القلب) الذي هو بيت الله، يمكن أن تُمثَّل مصداقاً لهذا السفر المعنوي أيضاً، فإن القلب هو حرم الله، ويجب أن نحرسه ونحافظ على حريمه من خلال الابتعاد عن الدنيا وأجوائها وعن القاذورات الماديّة، ومن خلال الإحرام بالإحرام المعنوي. فالذي يتحلّى بالتقوى الإلهية ويطوف دائماً حول القلب سوف يصبح يوماً من الأيام ضيفاً في بيت الله تعالى.

إن الأخلاق الإسلامية ليست أمراً آخر سوى (حفظ حريم القلب)، وأهميتها وقيمتها كبيرة جداً، بحيث يصل الحال إلى أن يكون شرط قبول جميع الأعمال هو أدائها بإيمانٍ وعن «عقيدة صحيحة»، وفي كل الأحوال يجب أن يؤدّى أيُّ عملٍ عن عقيدة وإيمانٍ.

وبعبارة أخرى: إن الحسن الفاعلي هو شرط الصحة والقبول للحسن الفعلي، فإن العمل إنما يُعدّ صالحاً إذا كانت النية المصاحبة لصدوره نيةً نقيّةً وخالصةً وبدافع طلب الخير، بينما نجد في المقابل أن أهميّة الأخلاق كبيرة جداً إلى درجة أن

(١) الذاريات: آية ٥٠ (م).

قيمتها وآثارها الدنيوية ليست مشروطة بـ«صحّة العقيدة»، فمخالفة هوى النفس يُمثّل قيمةً أخلاقيةً عظيمةً، وهو أمرٌ مهمٌّ جداً، بحيث إنّه حتّى لو صدر من غير المسلمين يبقى ذا قيمةٍ وأثر، فكم من الأفراد الذين أصبحوا مسلمين فقط بسبب (مخالفتهم لأهوائهم النفسيّة)، أي: إنّ عملهم الأخلاقي أدّى إلى حصولهم على أفضل جزاءٍ وكمالٍ دنيويّ. وقد نُقل في التاريخ أنّه عندما أُحضِر أحد الأسرى إلى رسول الله ﷺ، فمن أجل أنّ هذا الأسير كان متخلّفاً ومتحلّياً بصفةٍ أخلاقيةٍ هي السخاء؛ نزل جبرائيل على النبي ﷺ يُخبره بالأمان الإلهي لهذا الشخص، كما أنّ هذه الصفة الأخلاقية هي التي أدّت بهذا الشخص إلى أن يُسلم، أي: إنّ صفةً أخلاقيةً واحدةً جعلته يحصل على أفضل ثوابٍ وجزاءٍ دنيويٍّ وأخرويٍّ.

إنّ ما ينتظر الإنسان هو الأبدية، وهذه الدنيا ليست سوى مقدّمة للوصول إلى الأبدية، وكلّ شخصٍ سيكون ضعيفاً على المائدة التي أعدّها لنفسه خلال حياته في الدنيا. ومن هنا؛ فإنّ معرفة الإنسان لنفسه وكماله ونقصه هي عبارةٌ عن مقدّمةٍ لتحصيل الكمال الواقعيّ، وقد قيل منذ القدم: (آخر الفكرة هو أول العمل)، فالنجار أو البناء يُفكّر في البداية، وحينما ينتهي من التفكير، عندها يبدأ بالبناء والعمل والسعي إلى إنجاز ما فكّر به.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى المباحث الأخلاقية، فمن الضروريّ أيضاً أن نعرف في البداية أنفسنا، وأن نعلم ما يُصلحنا ويُفسدنا، وأن نتعرّف على أسباب سعادتنا وشقائنا ونجاتنا وهلاكنا، وعندما نصل إلى نتيجة هذا التفكير والمعرفة، عندها نبدأ بالعمل طبقاً لذلك.

وفي الواقع يُمكن القول: إنّ العلم هو مقدّمة العمل وفلسفة الحكمة العملية، أي: إنّ غاية معرفة هذه الحكمة وهدفها هي أن تصبح وسيلةً وسبباً للعمل، وإلاّ

فإنّ ذلك العلم الذي لا يؤدّي إلى تغيير العادات والسلوكيات، ولا يؤدّي إلى رقيّ الإنسان في مدارج الكمال، لن يكون إلّا وزراً مُعلّقاً في رقبة الإنسان، وربّما كان عدم العلم - في هذه الحالة - خيراً من وجوده. إذن؛ ففي البداية يجب أن نتصوّر الخير والسعادة، ثمّ نسعى لتحصيلهما واكتسابهما.

هذا، ولو طُرِحَ في المقام السؤال التالي: هل السعادة والنجاة لا يحصلان إلّا في الآخرة، أو أنّه يُمكن الوصول إليهما في الدنيا أيضاً؟ فإنّ الجواب عليه لا يكون واحداً، بل يختلف باختلاف المباني والآراء؛ فمنّ لديه نظرة سلبية تجاه الجسم والدنيا، فهو يختصر الإنسان في البعد الروحي فقط، وهو يرى هذه الدنيا كـ(البئر بالنسبة ليوסף عليه السلام) أو كـ(القفص للطائر)، ويعتقد بأنّ السعادة الواقعية عبارة عن (الكشف التام لحقائق المعقولات)، أي: إنّ كمال الإنسان يكمن في ألاّ يحجبه أيّ حجاب، وأن يصل الإنسان إلى جميع العلوم والمعارف العقلية، وهذا الأمر لا يتيسّر إلّا بزوال جميع الحُجب الماديّة وبوضع التعلّقات الماديّة جانباً. وبناءً على هذا؛ فمهما بقي الإنسان في هذه الدنيا، فإنّه لن يصل إلى الكمال أصلاً، ومنطق هذا النوع من الأفراد هو: (كن مجرداً حتّى ترى المجرّدات).

وفي المقابل هناك أشخاص من يعتقد بأنّ الإنسان مركّب من الجسم والروح، وبأنّ البدن الماديّ هو جزء من وجودنا، وأنّ تجاهل الجسم ليس أمراً صحيحاً، وأنّ البدن عبارة عن أمانة إلهيّة، ويجب علينا أن نستفيد منه بالنحو الأفضل، كما أنّهم يعتبرون هذا البدن مركّباً للروح، وأنّ الروح لن تصل إلى كمالها بدون هذا البدن، فـ(العقل السليم في البدن السليم)، والإنسان في هذه الدنيا يُمكنه أن يصل إلى مقام (خليفة الله) الذي هو أعلى المقامات.

وبالتالي؛ فإنّ هؤلاء الأفراد يعتقدون بأنّ الإنسان يُمكنه الوصول في نفس هذه الدنيا إلى الكمال ونيل السعادة فيها. مع ملاحظة أنّ السعادة - بحسب ما هو

واضح - على درجاتٍ ومراتبٍ مختلفة، فالسعادة الجسائية غير السعادة العقلية، والسعادة التي هي فوق السعادة العقلية تفوق كلا السعادتين السابقتين.

وعلى أية حال، فإنّ داء الإنسان ودواءه بيده هو، فمن يعرف نفسه، ويكون لديه إحاطة وإشراف تامّ على قوى جسمه وروحه وأعمالهما وتصرفاتهما، لن يحتاج إلى قراءة كتابٍ آخر، وسيعتبر (حقيقة نفسه أفضل كتاب)، وسوف يجد داخل نفسه ما يحصل عليه الآخرون من خارجها، وسيجد العلم الحسولي الذي عند الآخرين علماً حضورياً عنده، فعليه أن يجد (كأس جمشيد)^(١) في نفسه، و(مرآة الإسكندر)^(٢) التي تُري جميع الآفاق وجميع الأزمان، واللذان هما ليسا شيئاً آخر غير (دفتر القلب).

هناك الكثير من الأخذ والردّ حول كتاب مصباح الشريعة من جهة مصدره، فالبعض يعتقد أنّه من كلمات الخواجة عبد الله الأنصاري، لكنّ ما نسب في هذا الأثر إلى رسول الله ﷺ ليس فيه هذا التردد، وقد جاءت في هذا الكتاب الرواية التالية: «قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: لا أطلع على قلب عبدٍ فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلّا تولّيتُ تقويمه وسياسته»^(٣). ليس هناك شيءٌ أفضل من أن يقوم الله بنفسه بتأديب الإنسان وتربيته، إنّ

(١) [تُسمّى بالفارسيّة: جام جم، وهي ترتبط بأسطورة عن كأس أسطورية كانت تجعل جمشيد يرى كلّ ما يدور في العالم، وهنا استعارها المؤلّف للقلب الذي يُمكن من خلاله أن يرى الإنسان كلّ ما في العالم. أنظر: دستغيب، عبد العلي، حافظ شناخت: ص ١٤٩. (م)].

(٢) [مرآة تُنسب للإسكندر، وهي تُشبه في عملها بحسب الأساطير عمل كأس جمشيد، وهي كما ذكرنا أعلاه كناية عن القلب الصافي الذي يتجلّى العالم فيه. أنظر: برومند سعيد، جواد، حافظ وجام جم: ص ١٢٧. (م)].

(٣) [الأنصاري، عبد الله، مصباح الشريعة: ص ٩٢. كما أنّ هناك من ينسب هذا الكتاب إلى الإمام الصادق عليه السلام].

النبى الأكرم ﷺ - وهو الإنسان الكامل - كان حصيلةً لتأديب الله، وكلّ إنسانٍ يريد أن يكون تحت التربية الإلهية المباشرة، فيجب أن يمتلك في قلبه الإخلاص، وينبغي أن تكون عبادته خالصةً لوجه الله، وعليه أن يسعى إلى تحصيل رضا الله؛ وذلك كي يصل إلى أفضل طريق وأسلوبٍ في التربية.

إنّ أسس الأخلاق الإسلامية عديدة، وسنكتفي هنا بذكر واحدة منها فقط.

الالتفات إلى حضور الله

لقد سلّطت مجموعة كبيرة من آيات القرآن المجيد الضوء على الحضور الدائم لله عزّ وجلّ، بحيث إنّ الأخلاق الإسلامية قد بُنيت على هذا الأصل المهمّ، قال تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(١).

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(٣).

﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^(٤).

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾^(٥).

وهذا النوع من الآيات الشريفة بصدد بيان أنّنا في محضر الله على الدوام، وأنّه لا يخفى على الله شيءٌ، وأنّ على كلّ إنسانٍ أن يُلَقِّن نفسه ويذكّرُها بهذه الحقيقة على الدوام، وأن يعتقد بأنّه في قبال الله دائماً، وأنّنا حتّى إذا غفلنا عنه ولو للحظةٍ، فإنّه لا يغفل عنّا أبداً. نعم، إنّ الله معنا بناءً على صريح الآية الشريفة حتّى لو لم نكن

(١) الحديد: آية ٤.

(٢) ق: آية ١٦.

(٣) الفجر: آية ١٤.

(٤) البقرة: آية ٢٥٥.

(٥) الحديد: آية ٣.

نحن معه، وهنا يكمن العجب! وهو أن الحبيب بجانبه، ومع ذلك فأنا مهجورٌ.
لا ينبغي لأحد أن يتصور بأن الذي يُصاحبنا هو علم الله بنا، أو أن الله يرانا
ويطلع علينا على الدوام فقط، فعلى الرغم من أن هذا الكلام صحيحٌ، لكن الأهم
هو أن الذات المقدسة لله عز وجل معنا، فإن كان العالم هو محضر (محل حضور) الله،
إذن؛ فالله عز وجل مع جميع الموجودات وبجانبيها. هذا، وأن الناس لو التفتوا إلى
هذه النقطة، لأمكن تحليل جميع القيم الأخلاقية وتفسيرها بناءً على هذا الأصل،
أي: إن الشيء الذي يحمل قيمةً أخلاقيةً هو ذلك الشيء الذي يُنبهنا إلى (حضور
الله)، وفي المقابل، فإن الشيء الذي يُعدّ رذيلةً أخلاقيةً هو الذي يمنعنا من الانتباه
إلى أصل (حضور الله) ويجعله باهتاً.

وكم هو حسنٌ جداً أن يُعلّق كلّ إنسانٍ الآية الشريفة القائلة: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾^(١)
كلوحةٍ في محل عمله أو في المكان الذي يعيش فيه، فإن الإنسان لو اعتقد بأن الله لا يراه
حينما يقوم بالمعصية، فهو كافرٌ في هذه الحالة، ولو أنه يعتقد بأن الله يراه، لكنه مع ذلك
لا يُعطي لذلك أهميّةً، فقد نظر إلى الله نظرةً دون نظرتة لعباد الله، ولو أنه يعتقد واقعاً
بحضور الله ورؤيته له، فقهرًا لن يقوم بالعمل الذي يُوجب سخط الله وغضبه.

محبة الله

نُشير هنا إلى إحدى الصفات والمفاهيم الأخلاقية الراقية جداً، والتي تبتني على
مسألة (الالتفات إلى حضور الله)، فلو أن شخصاً أراد أن يختصر جميع المفاهيم
الأخلاقية في مفهوم واحدٍ فقط، فيجب عليه أن يقول: الأخلاق الإسلامية تعني
(حبُّ الله)، وأن جميع المسائل الأخرى في الأخلاق هي إمّا مقدّمة للوصول إلى محبة

(١) العلق: آية ١٤.

الله، وإما ثمرات ونتائج لمحبة الله، فعلى سبيل المثال: إن الشخص الذي يحب الله، فسوف يطيعه، وقهراً سوف يتجنب الغيبة والكذب والحسد والبخل و... كما أنه من يحب الله، سوف يحب آثار الله وأفعاله وآياته أيضاً؛ وبالتالي فإن شخصاً كهذا سينظر قهراً إلى عباد الله بنظرة المحبة، ومن خلال محبته وعشقه لهم ورغبته بهم سوف يقوم بالإيثار والإنفاق والإحسان و... كما أن الشخص الذي يحب الله لن يظلم نفسه، وسيصلح علاقته بالله وبالناس والطبيعة.

إن كلمة المحبة قريبة المعنى من ألفاظ المودة والخلة والوكة والعشق والهيام، وكلها أحسن إنساناً أو حيواناً بالمشابهة والمجانسة بينه وبين موجود آخر، فإنه سيبرز محبته له، ف(الطيور على أشكالها تقع).

إذاً؛ فشرط إيجاد المحبة هو وجود المشابهة والمجانسة وتوحيد الأفق الفكري، ولذا؛ نجد بأن الآيات الشريفة ذكرت محبة الله للإنسان ومحبة الإنسان لله، ونحن نعلم بأن الإنسان مركّب من الجسم والروح، وأن له مسانخة ومشابهة مع الله من الجنبه الروحية؛ لأنه خلق من روح الله، وبالتالي فبسبب هذه السنخية يمكن للإنسان أن يكون عاشقاً ومحباً لله عز وجل.

لكن بالطبع، بدون العلم والمعرفة لا يمكن أن تحصل المحبة، كما أن المجالسة والمعاشرة تؤدي إلى زيادة المحبة؛ ولذا إذا أراد شخص أن يحب الله، يجب عليه من خلال العلم والمعرفة أن يقوّي معرفته بالله تعالى وبأسمائه وصفاته، ثم عليه أن يزيد محبته له من خلال الذكر والدعاء والتوجه إليه.

هذا، ويوجد لدينا - في المقام - العديد من المباحث، ولكننا سنغض النظر عنها ونكتفي بتسليط الضوء على هذه النقطة فقط، وهي أن محبة الله تُعدّ من المسائل الأساسية في الأخلاق الإسلامية، وأن هناك اختلافاً جوهرياً ومبنيّاً - يجب

البحث عنه في موطنه - بين هذه المحبة التي تمّ التأكيد عليها في الدين الإسلامي عن تلك المحبة التي هي في الدين المسيحي.

إنّ الكتاب الماثل بين أيديكم هو أثرٌ قيّمٌ وعلميٌّ لساحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد حسين فهم نيا، والذي استخدم فيه المنهج القرآني لبيان بعض المفاهيم الأخلاقية، بالإضافة إلى الأسس العقلية والقرآنية لتلك المفاهيم، وقد صاغها بقلم رصينٍ وجميلٍ ومتين، وقد طالعتُ هذه الأبحاث، فاستفدتُ منها، ولما كان التعرّض لمبحثي (حضور الله) و(حبّ الله) مختصراً في هذا الأثر، بل كان على نحو الإشارة العابرة؛ لذا فقد أكّدتُ عليها في هذه المقدمة. وعلى أية حال، فإنّ الكتاب الحاضر يُعدّ خطوةً مهمّةً في سبيل تطوير الأخلاق والأخلاقيات، وهو أمرٌ يُشكر عليه المؤلّف المحترم من صميم القلب، ونأمل أن نشهد له في المستقبل أثراً أخرى مليئةً بالتحقيق والعلم.

بمنّه وكرمه

أحمد عابدي

القسم الأول
مفاهيم الأخلاق ومباحثها العامة

◀ **الفصل الأول:** شرح المفاهيم

◀ **الفصل الثاني:** الأخلاق الفاضلة والأخلاق الإسلامية

الفصل الأول

شرح المفاهيم

١. الأخلاق

تعريف الأخلاق

إنّ مفردة أخلاق هي كلمة عربيّة، وهي جمع «خُلُق»، والخُلُق معناه الأسلوب والطبع والسجيّة، يقول يحيى بن عدي في مقام تعريف الأخلاق: «إنّ الخُلُق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا رويّة واختيار»^(١).

والمقصود من عبارة «بلا اختيار» أي: بدون تفكير، ومن دون الحاجة إلى التأمل. وفي نفس الصدد يعدّ ابن الأثير الأخلاق صورةً عن باطن الإنسان، وعن أوصافه الحسنة أو القبيحة^(٢).

كما يكتب آتكينسون في تعريف الأخلاق ما يلي: «الأخلاق: نظامٌ من العقائد الجارية في المجتمع، والتي ترتبط بسجاياه وسلوكيّاته، لتحديد ما ينبغي أن يكون عليه أفراد المجتمع من سجايا وسلوكيّات»^(٣).

(١) الرازي، ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق: ص ٥.

(٢) الجزائري، مجد الدين السيّد محمد، النهاية: ج ٢، ص ٧٠.

(٣) آتكينسون، درآمدى به فلسفه اخلاق [= مدخلٌ إلى فلسفة الأخلاق]، ترجمه للفارسيّة: سهراب علوي نيا: ص ١٦.

ومع تشتت الآراء في تعريف الأخلاق، يتوجب علينا تعريف الأخلاق بنحو يجعله متميزاً عن باقي العلوم، فالقانون (الحقوق)، والفقه وخصوصاً المستحبات منه، والسياسة، والآداب والرسوم الاجتماعية، والسير والسلوك والعرفان العملي، والنصائح والمواعظ، و... تشبه الأخلاق، ورغم أنها قريبة من الأخلاق، إلا أن أيّاً منها ليس هو الأخلاق، فعلى سبيل المثال: لا تُعتبر قوانين مجلس الشورى (البرلمان) أو الكتب القانونية أخلاقاً أبداً رغم أن مجلس الشورى يُمكن له أن يطرح مسألة أخلاقية بعنوان كونها قانوناً، فيُضفي عليها الصبغة القانونية، وفي نفس الوقت، يُمكن أن يُعدّ معلّم الأخلاق - بنحو من الأنحاء - ضمن من يُشرع القوانين للناس.

إنّ الخلق هو فعل الله، ويُطلق على الخَلقة الظاهرية للإنسان، وفي المقابل يتعلّق الخلق بإرادة الإنسان، بحيث يستطيع الإنسان أن يبنّي ملكاته وصفاته وأن يُبرز تصرّفاته بناءً على تلك الصفات والملكات، وقد كتب الفيض الكاشاني في معنى الأخلاق ما يلي: «اعلم أنّ الخلق عبارة عن هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سُميت الهيئة خُلُقاً حسناً، وإن كان الصّادر منها أفعالاً قبيحة سُميت خُلُقاً سيئاً»^(١).

بناءً على هذا؛ لا يُمكن أن تحصل للإنسان ملكة السخاء بالإنفاق لمرة واحدة، بل يجب أن تُصبح السجية ملكة راسخة بما هو أعلى من كونها عادةً حتّى يصدق عليها بأنّها (خلق)، وبعبارة أخرى: يجب أن تتشكّل الصورة الباطنية للإنسان على أساس هذه الصفة أو الأوصاف، والناس مختلفون في وصولهم إلى هذا التوفيق،

(١) الفيض الكاشاني، الملاحسن، الحقائق في محاسن الأخلاق: ص ٥٩.

فكما أنّ ظاهر الناس مُختلفٌ من ناحية القبح والحسن، فإنّ باطنهم مختلفٌ من ناحية الحسن والقبح أيضاً، إلّا أنّه يُمكن للإنسان أن يتدخّل في هذا الأمر ويُغيّره. كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ أَمْرٌ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ خَلْقَكَ فَأَحْسَنْ خُلُقَكَ»^(١).

ومن هنا، فإنّ الفرق الأساسي بين الصورتين الظاهريّة والباطنيّة هو التالي:
أولاً: إنّ الصورة الظاهريّة يُمكن رؤيتها بالعين، خلافاً للصورة الباطنيّة التي لا تُرى إلّا بعين البصيرة.

ثانياً: لا يُمكن إحداث تغييرٍ مهمٍّ في الصورة الظاهريّة والخارجيّة، أمّا الصورة الباطنيّة والتي تُمثّل الصفات النفسانيّة، فيُمكن أن يؤثّر عليها الإنسان من خلال عمله.

فائدة الأخلاق

إنّ الأخلاق تقود الإنسان وتهديه إلى التحلّي بالصفات الحسنة والفضائل الأخلاقيّة، والابتعاد عن القبائح والرذائل الأخلاقيّة، وفي الواقع فإنّ الأخلاق تُعرّف إطار تفكير الإنسان وتصرفاته، وبعبارة أخرى: إنّ هدف الأخلاق هو تطوير النفس، فالإنسان الشجاع والسخيّ والمتواضع والمتحلّي بروح التسامح أعلى وأرفع بكثير من الفرد الجبان والبخيل والمتكبر والذي لا يتحلّى بالعفو؛ ومن هنا قيل: «فائدة علم الأخلاق هو تخليص النفس عن صفات الرذيلة، وتحليتها بالملكات الحسنة، وهو ما يُعبّر عنه بـ «تهذيب الأخلاق»، وأمّا ثمرة الأخلاق، فهي الوصول إلى الخير والسعادة الأبديّة، كما أنّه ينبغي العلم بأنّ السعادة المطلقة لا تحصل إلّا إذا كانت صفحة النفس نظيفة في جميع الأوقات من جميع الأخلاق المدمومة، ومُتحلّيّة بجميع

(١) [المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٣٩٤]. (م)

الأوصاف الحسنة، أمّا إصلاح بعض الصفات، أو في بعض الأوقات، فرغم أنّه لا يخلو من الفائدة، لكنّه لا يؤدّي إلى السعادة الأبدية»^(١).

ومن خلال نظرةٍ كليّةٍ إلى أهداف الأخلاق وتأثيراتها، يُمكن أن نُعدّد هذه الأهداف بالنحو التالي: «١. الأخلاق تُعدّل نوايا الإنسان. ٢. الأخلاق تقوّي وتُريّ البُعد المعنوي للإنسان. ٣. الأخلاق هي الضامن لإجراء القوانين والتشريعات. ٤. الأخلاق هي الحافظ للإيمان. ٥. الأخلاق تُخلّص أفراد البشر من كلّ عيبٍ ونقصٍ، وتوصلهم إلى ذروة مكارم الأخلاق. ٦. علم الأخلاق هو السلاح الذي يتمّ به التغلب على النفس وإخضاعها، وتقويتها لتسير في طريق الحكمة والعدالة والعفة؛ كي تصل إلى مرتبة مكارم الأخلاق. علم الأخلاق يهدف إلى أن نتمكّن من القيام بالأعمال الصالحة بسهولة ويُسر»^(٢).

٢. الآداب

تعريف الآداب

(الآداب) كلمةٌ عربيّةٌ، وهي جمع كلمة (أدب)، وقد فسّروها في معاجم اللغة بالنحو التالي: «الأدب: تراكم كلّ من التربية الأسريّة والمعرفة الاجتماعية والأصول الثقافية لدى الفرد بشكلٍ خاص، وكذلك الاطلاع على طرق السلوك الاجتماعي السليم، والمعاشرة المقبولة مع أفراد المجتمع بشكلٍ أعم»^(٣). إنّ التعاريف المعروضة للأدب، تُبيّن أنّ (الآداب) تتعلّق بالأعمال الظاهريّة

(١) النراقي، المّلا أحمد، معراج السعادة: ص ٩.

(٢) فائزي، علي، تربيت - روشها واخلاق اسلامي [= التربية والسلوكيات والأخلاق الإسلامية]، ص ١٦١.

(٣) انصاف پور، غلام رضا، كامل فرهنگ فارسي [= الكامل، معجم فارسي]: ص ٣٤.

والبدئية للأفراد في ارتباطهم مع الآخرين؛ ومن هنا عادةً ما تُستعمل كلمة (آداب) مضافةً إلى كلمة «المعاشرة»، وهو ما يُعبّر عنه بـ (آداب المعاشرة).

فائدة الآداب

ومع الالتفات إلى التعريف المذكور لـ «الآداب»، فسوف تتضح أهميتها وفائدتها، فإنّ المحيط الذي يعيش فيه مجموعات من البشر إلى جانب بعضهم البعض، يُمكن أن يُسمّى مجتمعاً إنسانياً وبشرياً حينما لا تسود فيه روح اللامبالاة وعدم التعاطف في سلوكيات أفرادهِ وعلاقاتهم فيما بينهم.

وبناءً على هذا؛ فالفائدة الأولى للآداب هي: نمو الإنسانية والعواطف والإحساسات القيّمية في المجتمع؛ وأمّا الفائدة الثانية، فهي: إنّه ونظراً إلى اختلاف مستويات أفراد المجتمع من الجوانب العلميّة والمعنويّة وغيرها من المميزات القيّمية، فإنّ مراعاة (الآداب) مع كلّ فردٍ تُؤدّي إلى تسليط الضوء على معايير التفاضل وملاكاته في المجتمع وإبرازها.

٣. السير والسلوك

تعريف السير والسلوك

هناك تركيبٌ عاطفيٌّ بين كلمتي السير والسلوك، بحيث نجد أنّه في كتب اللغة قد تمّ تفسير هاتين الكلمتين مع بعضهما البعض، فقول: طيّ الطريق والقيام بالرياضات. وفي تصوّف هو: الآداب والرسوم وكيفية المقامات والأحوال وكيفية الطريقة، وقد شَبَّهوا ترقّي الحياة الروحيّة بالسفر والسير، وهذا التشبيه أجمع من كلّ التشبيهات الأخرى، فالسالك يقوم بطيّ الطريق من نفس اللحظة التي يضع فيها رجله في سبيل تكامل نفسه، فيعبر المراحل والمنازل في طريق الوصول إلى غايته وهدفه، وهو كالمسافرين الذين يتجوّلون في العالم، فيواجه كلّ واحدٍ منهم

منظراً مختلفاً عن الآخر^(١).

وقد فسّرت بعض معاجم اللغة هاتين الكلمتين بجانب بعضهما البعض بشكل ملخص وبالنحو التالي: «هو منهجٌ ورياضةٌ من أجل الوصول إلى المقامات المعنوية»^(٢). فكلمة (السلوك) تدلّ بمفردها على طيّ الطريق، وكلمة (السير) معناها مشاهدة آثار المنازل والمراحل وخصائصهما أثناء ذلك الطريق^(٣).

شروط السالك لطيّ الطريق إلى الله

على مَنْ يسلك طريقة المعرفة الإلهية أن يلتزم بأربعة شروطٍ ضرورية:

١. الحضور: على السالك أن يرى ما سوى الله وجميع العالم وبضمنه نفسه بجميع شؤونها في محضر الله، وأن يرى جميع أعماله وأفعاله تحت رقابة الله.
٢. آداب الحضور: عليه قدر الإمكان أن يُراعي آداب الحضور في محضر (ربّ الأرباب).

٣. الهمة: على السالك أن يدخل هذا الطريق بهمة عالية، فـ(قدر الرجل على قدر همّته).

٤. الطلب: على السالك أن يطلب من (الغنيّ المطلق) كما يستعطي المتسوّلون ويُصرّ على ذلك، فـ«مَنْ طلب شيئاً وجدَّ وجدَّ»^(٤).

وبناءً على هذا؛ فإنّ طيّ المراحل من أجل (تهذيب النفس وتصفيتها) يُطلَق عليه

(١) أنظر: دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]، ج ٢، ص ٧٦٢.

(٢) انصاف پور، غلام رضا، كامل فرهنگ فارسی [= الكامل، معجم فارسي]: ص ٦٠٥.

(٣) أنظر: الحسيني الطهراني، محمّد، رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أولي الألباب: ص ١٩.

(٤) طاهري، حبيب الله، درسهای از اخلاق اسلامی یا آداب سیر وسلوك [=دروس من الأخلاق الإسلامية أو آداب السير والسلوك]: ص ٩٩.

سير وسلوك، ويُسمّى السالك في المقام: صاحب السلوك و(صاحب الطريقة).
إنّ طيّ مراحل الطريق يحتاج إلى معرفة أربعة عوامل، هي: الطريق،
الأسلوب، الغاية، المرشد.

تصنيف الناس على أساس السير والسلوك

قسّم السيّد الإمام الخميني رحمه الله - في كتابه الآداب المعنويّة للصلاة - الناس
من ناحية السير والسلوك إلى أقسامٍ أربعة:

١. المحجوبون: وهذه الطائفة غفلت بسبب توجّدها إلى الدنيا وانغماسها فيها
عن الحركة والصعود إلى الملكوت، وعن السير نحو الحقّ، وهم معدودون
ضمن الغافلين.

٢. السالكون: وهذه الطائفة هم المسافرون إلى الله والمهاجرون إلى حضرة
القدس، وهم يحتاجون إلى الشيخ والأستاذ.

٣. الواصلون: وهذه الطائفة هم الواصلون إلى المنزل المقصود عن طريق السير
والسلوك باتجاه الحقّ.

٤. الرّاجعون: وهذه الطائفة هم الذين وصلوا إلى المقصود، وبعد وصولهم
عادوا من المحبوب إلى الخلق، ليأخذوا بأيدي الآخرين في سيرهم إلى الله^(١).

فائدة السير والسلوك

١. يحتاج الإنسان إذا أراد الوصول إلى أهدافه، إلى خطة عمل وبرنامج، لكي
يُعرّفه على مسيره وطريقه، فالبشر يحتاجون في ساحة المعنويّات والسير إلى الله إلى
قوانين ومقرّرات. هذا، وأنّ مباحث السير والسلوك التي عرضها العرفاء وأصحاب

(١) الإمام الخميني، روح الله، الآداب المعنويّة للصلاة: ص ٤٣٥.

الشهود هي بمثابة المصباح - الذي يُنير الطريق - والهادي في مسير المعرفة الإلهية؛ كي لا يغرق السالك في زوبعة الحيرة.

٢. الثمرة الأخرى لـ (السير والسلوك)، هي أن يتّضح المقصد والغاية للسالك من بداية الطريق.

٣. لقد تمّ تنظيم مراتب الطريق إلى الله ومراحله في مباحث (السير والسلوك) من أدنى الدرجات المعنوية إلى أعلاها، وقد بيّن دستور العمل لذلك، بحيث يتمكن كلّ شخصٍ من الوصول - بناءً على ما لديه من قابليّات وقوّة وثبات - إلى بعض تلك المراحل أو إلى جميعها. وبناءً على ذلك، فإنّه يُمكن لجميع الأفراد - وفي أيّ درجةٍ من المعنوية كانوا - أن يعملوا بالبرنامج والتوصيات اللازمة في المقام.

٤. العرفان

تعريف العرفان

جاء في معاجم اللغة في مقام تعريف العرفان ما يلي: «العرفان في اللغة بمعنى العلم والمعرفة اللذين يحصلان بعد الجهل، ومن الناحية الاصطلاحية: هو اسم علم من العلوم الإلهية، وموضوع هذا العلم هو معرفة الحقّ [عزّ وجلّ] وأسمائه وصفاته، والخلاصة: يُسمّى الأسلوب والمنهج الذي اختاره (أهل الله) لمعرفة الحقّ [عزّ وجلّ] (عرفان)»^(١).

هذا، وأنّ عرفان الحقّ ومعرفته يُمكن أن يحصل من خلال طريقين، هما:
الأوّل: عن طريق الاستدلال من الأثر إلى المؤثر، ومن الفعل ومن الصفات إلى الذات، وهذا الطريق يختصّ بالعلماء.

(١) دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ٢٣، ص ١٧٨.

الثاني: عن طريق (تصفية الباطن) عن كل ما هو أجنبيّ، وتزيين الروح، وهذا هو نهج الأنبياء والأولياء والعرفاء، ولم يستطع أن يسير في طريق الكشف والشهود هذا سوى المنجذبين إلى الله.

الفرق بين العرفان والعلم

يعتقد العرفاء بأن الوصول إلى الحقّ والحقيقة يحتاج إلى طيّ مراحل؛ وذلك لكي تستطيع النفس أن تطلع بنفسها على الحقّ والحقيقة طبقاً لاستعداداتها. وبعبارة أخرى: إنّ العرفاء - وخلافاً للحُكماء - لا يتمسّكون بالاستدلال العقلي لوحده، بل عملهم مبنيّ على الشهود والكشف. وبالتالي فإنّ (العرفان والمعرفة) عبارة عن: «المعرفة والاطّلاع على أمرٍ خاصّ عن طريق المشاهدة الباطنيّة والعلم الحضورى، وأمّا المعرفة والاطّلاع عن طريق الاستدلالات العقليّة - والتي هي في ماهيّتها أمرٌ كلي من خلال الالتفات إلى المصداق المعلوم - فتُسمّى علماً وليس عرفاناً، وكذلك العرفان أكثر ما يُستعمل في الوطن الذي يسبقه نسيانٌ، مثلاً يُستعمل في الشخص الذي يعرفُ أمراً ثمّ يعرض عليه النسيان ثمّ يلتفتُ إليه، ويطلع عليه مرّةً أخرى، لكنّ كلمة العلم لا تُستخدم بهذا النحو. ومن هنا؛ فالمعراج المعنوي والروحاني للإنسان عبارة عن الرجوع إلى عالم الغيب، أي: بأن يكون السالك مجذوباً إلى عالم القدس، وألا يلتفت إلى عالم الملوك»^(١).

جاذبيّة العرفان وتأثيره

لقد حاز العرفان في المجتمعات الإسلاميّة على نفوذٍ واسعٍ، وقد ترسّخ في

(١) شفيعي ما زندراني، محمد، پرتوی از مبانی تربیتی عرفان امام خمینی [= شعاع من مباني التربية العرفانية للإمام الخميني]: ص ٥٤.

قلوب الناس وجرى على ألسنتهم من خلال الشعر، ويمكن مشاهدة المصداق البارز لذلك في اعتناء الناس بأشعار حافظ الشيرازي عارف القرن الثامن. وقد قال الشهيد مطهري حول جاذبية العرفان ما يلي: «إنَّ الإنسان الكامل الذي بيَّنه الفلاسفة - كابن سينا وأرسطو - لم ينتشر ويشيع بين الناس، بل ظلَّ في نصوص الكتب الفلسفية ولم يخرج منها، أمَّا مدرسة العرفان والتصوف، فقد نشرت وجهة نظرها حول الإنسان الكامل بين الناس وبسطتها نثرًا وشعرًا، وبما أنَّ الكتب العرفانية قد بيَّنت مطالبها بأسلوبٍ تمثيليٍّ وشعريٍّ؛ لذا فقد نفذت بين الناس بشكلٍ قهريٍّ. وفي هذه المدرسة - كما في المدرسة الفلسفية - أمورٌ مقبولةٌ في نظر الإسلام، ولكن في نفس الوقت فيها أمورٌ قابلةٌ للنقد أيضاً وعليه؛ فالإنسان الكامل في الإسلام لا يتطابق مع الإنسان الكامل الذي يُبيَّنه العرفاء والمتصوفة مائة بالمائة»^(١).

٥. علم النفس التربوي

تعريف علم النفس التربوي

علم النفس التربوي «عبارة عن البحث في أصول علم النفس وقواعده وتطبيقها في الأحداث التربوية»^(٢)، وقد بيَّن بعض المحققين التعريف السابق بصورة أكثر توضيحاً، فقال: «هذا الفرع من فروع علم النفس، والذي هو في الواقع من أهمِّ الفروع وأكثرها تطبيقاً في علم النفس، فهو يسعى لدراسة أصول علم النفس التربوي وقوانينه ونتائجه، كما أنَّه يدرس ويهتمُّ بالمواضيع التي هي من قبيل: الأساليب المختلفة للتعلُّم، وأنواع التعلُّم وقواعده، وعملية التفكير والمعرفة، ومسألة التذكير والحفظ،

(١) مطهري، مرتضى، إنسان كامل [=الإنسان الكامل]: ص ١٧١.

(٢) كديور، پروين، روانشناسی تربیتی [=علم النفس التربوي]: ص ٩.

والذاكرة والنسيان، وتحفيز الذكاء، والتقييم والمقايسة، وتطبيق الاختبارات النفسية، ودور المعلم والمتعلم في انتقال المعرفة، وشروط النجاح في التعلم، والانضباط والتقدم الأكاديمي^(١).

فائدة علم النفس التربوي

لعلم النفس التربوي أدوارٌ وآثارٌ كثيرةٌ في حياة الإنسان الشخصية والاجتماعية، ومن ضمنها:

١. يُثبت أن جميع الأشخاص لهم القابلية للتربية، وذلك خلافاً لما كان يتصوره القدماء.

٢. إن أصول التعلم وقواعده في علم النفس التربوي تمثل دليلاً نافعا للمربين والمعلمين وأولياء أمور الأطفال.

٣. يُمكن التعرف من خلال (علم النفس التربوي) على الموانع التي تواجه تربية المراهقين والشباب، والعمل على علاجها.

المائز بين العناوين الخمسة المتقدمة

من خلال إمعان النظر في التعاريف والفوائد التي تم عرضها للأخلاق والآداب والسير والسلوك والعرفان وعلم النفس التربوي، يتضح الفرق بين هذه المفاهيم، فموضوع الأخلاق هو معرفة الفضائل والردائل الأخلاقية والسعي إلى تجميل الصورة الباطنية للإنسان وجعلها جذابة والعمل على إصلاحها. فيما يأتي (السير والسلوك) في مرتبة تلي الأخلاق، فيعرض السبل اللازمة للوصول إلى

(١) أفروز، غلام علي، چكیده ای از روانشناسی تربیتی (كاربردي) [= خلاصة لعلم النفس التربوي (تطبيقي)]: ص ١٢.

الفضائل والابتعاد عن الرذائل الأخلاقية، ويُقدّم للسالك برنامجاً يُوضّح له كلّ خطوة ينبغي أن يخطوها، وهذه المرحلة هي المرحلة التنفيذية للأخلاق، فعلم الأخلاق يُعرّف ويُوصّف الأخلاق الحسنة والسيئة، أمّا (السير والسلوك) فيُقدّم برنامجاً دقيقاً ومحسوباً للحركة نحو الهدف النهائي الذي هو العرفان الإسلامي ومرحلة الكشف والشهود.

أمّا الفرق بين الآداب وبين الأخلاق والسير والسلوك والعرفان، فيعود إلى أنّ الآداب تتعلق بشكلٍ أساسيٍّ بأمور الإنسان الظاهرية والبدنية، على الرغم من احتياجها أرضيةً باطنيةً وثقافيةً. وأمّا (علم النفس التربوي) فهو يسعى إلى إيجاد الأرضية اللازمة للأمور التعليمية والتربوية، ويسعى إلى تهيئة الظروف والشروط اللازمة للتعلّم، ورفع الموانع التي قد تواجه هذه العملية أحياناً.

الفصل الثاني

الأخلاق الفاضلة والأخلاق الإسلامية

تمهيد

إنّ المتون الأخلاقية الكلاسيكية من قبيل (تهذيب الأخلاق) ليعحي بن عدي و(معراج السعادة) للملا أحمد النراقي، قد اعتمدت اتجاهاً نظرياً في موضوع الأخلاق متأثراً بما عند اليونانيين القدماء في هذا المضمار؛ ولذا يبدأ بحثهم ببيان الأمور العامة من قبيل التعريف والفائدة وأهمية الأخلاق، ثمّ يتمّ البحث عن حقيقة الإنسان، وأنّه مُكوّن من جسمٍ وروحٍ، وأنّ الجسم هو موضوع (الآداب)، وأنّ الروح هي موضوع (الأخلاق)، كما أنّه يتمّ في هذا النوع من الكتب الأخلاقية المتعارفة إثبات وجود النفس وتجّدها، وبيان تأثيرها وتأثرها؛ أي: العقل النظري ومراتبه الأربعة (العقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد)، بالإضافة إلى العقل العملي ومراتبه الأربعة (التجلية والتخلية والتحلية والفناء)، ثمّ بعد ذلك يتمّ البحث في القوى الثلاث للنفس؛ يعني: الناطقة والغضبية والشهوية، ويتمّ أيضاً بيان مرتبة اعتدال كلّ واحدةٍ منها وإفراطها وتفريطها، بحيث تتشكّل لدينا من الإفراط والتفريط ست صفاتٍ من صفات الرذيلة، وفي المقابل تُطرح ثلاثة حدودٍ وُسطى، بالإضافة إلى (العدالة) التي هي الاعتدال، والتي تجمع تلك الحدود الوسطى الثلاثة، وتُطرح بعنوان (صفات الفضيلة)، وهذه الصفات العشر تُسمّى أصول الفضائل والرذائل، ويندرج تحت كلّ واحدةٍ منها عددٌ كبيرٌ من

الصفات^(١).**الأخلاق الأرسطية**

كان أفلاطون من أعظم الفلاسفة اليونانيين القدماء، وكان يتبنّى الاتجاه المعنوي والميتافيزيقي للأخلاق، وفي مقابله كان تلميذه أرسطو يتبنّى الاتجاه الطبيعي؛ ومن هنا نجد في تاريخ الفلسفة أنّ الفلاسفة الذين اهتموا بتقييم المصادر الميتافيزيقيّة [للأخلاق] كالله والعقل المحض، تأثّروا بأفلاطون؛ وأمّا الفلاسفة الذين بحثوا المعايير الأخلاقيّة في قالب احتياجات الإنسان الأساسيّة والميول والاستعدادات، فقد تأثّروا بأرسطو، ولذا قيل: كان أفلاطون يسعى في الأخلاق نحو الكمال النموذجي، أمّا أرسطو فكان يسعى نحو السلوك الطبيعي للإنسان، فأرسطو كان يعتقد بأنّ الهدف من الأخلاق هو (تأمين سعادة الفرد)، أمّا هدف السياسة فهو (تأمين سعادة المجتمع)، وبما أنّ خير الكلّ يشمل خير الجزء أيضاً، لذا فإنّ الأخلاق الفرديّة دائماً تكون تحت تأثير السياسة، ولكن في نفس الوقت ليس من اللازم على الفرد أن يُضحي بمصالحه للمجتمع إلّا في الظروف غير الاعتياديّة؛ كما في حالة الحرب. إنّ أحد أهمّ النظريّات الأخلاقيّة: نظريّة (الشعور بالسعادة)، ويقول أرسطو في تفسير السعادة: كلّ إنسانٍ يسعى نحو (الحسن)، ولكنّ ذلك الأمر الحسن الذي يبقى على الدوام هو الذي يُسمّى سعادةً، وجميع الأمور الحسنة الأخرى تُمثّل مقدّمةً للوصول إلى السعادة، في المقابل السعادة هي بنفسها غايةً ومطلوبةً، ولا تُمثّل مقدّمةً لشيءٍ آخر^(٢).

(١) أنظر: السبحاني، جعفر، رسالة في التحسين والتقبيح العقليين: ص ١٦٦.

(٢) أنظر: عابدي، أحمد، فلسفه اخلاق [= فلسفة الأخلاق]: ص ٢٨ (الكُرّاس الدراسي).

معيار السعادة

يكمن خير الإنسان الأعلى وسعادته في تحقّق استعداداته وتفعيل قدراته المودعة لديه بالقوّة، فمثلاً: الخير بالنسبة للفيلسوف يكمن في التعلّم، وخيرُ الموسيقي في الموسيقى، وخير العامل في العمل والشُّغل، وبالتالي فإنّ كلّ نشاطٍ يكون له دورٌ في إحداث تحوّلٍ ينسجم مع الإنسان يُسمّى (سعادة)، وأهمّ أركان سعادة الإنسان توجد في (التفكير)، فالتفكير هو السعادة الموجودة في باطن الإنسان. هذا، ويرى أرسطو بأنّ الخير الأعلى هو المساوي للسعادة، وهو يفترض عند بيانه للسعادة وجود عدّة قوى للإنسان، ويجعل لكلّ واحدةٍ منها حدّاً وسطاً وطرفين (إفراطاً وتفریطاً)، فعلى سبيل المثال: (الشجاعة) هي الحدّ الوسط بين الجبن والتهوّر، وكذلك الاعتدال في الطعام هو الحدّ الأوسط بين الشرّ والإمساك؛ ومن هنا قيل: «إنّ السعادة عند أرسطو هي ما ينطبق من النشاطات على الفضيلة، أي: هي الاستجابة المنسجمة للميول الطبيعيّة للإنسان، وقد عمد أرسطو إلى دراسة أقوال الناس وتصرفاتهم، ورأى بأنّ الناس يعدّون أحياناً أنّ أحد الأعمال يُمثّل الحياة الجيدة أو الحياة السيئة، ورأى من جهةٍ أخرى أنّ جميع ما يُسمّيه الناس أمراً جيّداً فهو يمتلك خصوصيّةً مشتركةً، وهي (السعادة)، ورأى أيضاً بأنّ السبيل للوصول إلى هذه السعادة منحصرٌ بنظريّته حول الاعتدال»^(١).

إنّ تعريف السعادة الذي عرضه أرسطو في كتاب نيقوماخوس، أي: فعاليّة النفس المطابقة للفضيلة، يُبيّن مرونة السعادة وعدم جمودها، وهو قد جعل السبيل للوصول إلى السعادة منحصراً في نظريّة الاعتدال^(٢). ويمكن توضيح الاعتدال

(١) نيكوماخوس [= نيقوماخوس]: ص ٢٣.

(٢) أنظر: راسل، برتراند، تاريخ فلسفه غرب [= تاريخ الفلسفة الغربيّة]: ج ١، ص ٣٣٤.

الذي يراه أرسطو من خلال هذا المثال: (إذا سأل شخصٌ إنساناً معيّنًا: ما هو المقدار الذي ينبغي عليه تناوله من الطعام كل يوم؟ فلا يُمكنه أن يُجيبه بمقدارٍ معيّن، كأن يجيبه بقوله: كيلو واحد أو أكثر)، بل الأمر يتوقّف على وزنه ومقدار نشاط البدن ونوع العمل الذي يقوم به هذا الشخص؛ فكثيراً ما يكون مقدارٌ معيّن من الطعام قليلاً بالنسبة لشخصٍ، وهو بنفسه كثيرٌ بالنسبة لشخصٍ آخر. إذن؛ يجب أن يصل إلى الحدّ الوسط وإلى الاعتدال بين كثرة الأكل وقلة الأكل، وليس الحدّ الوسط بين الكيلو والكيلوين، وتعيين المقدار الدقيق يحتاج إلى تجربة، مثلاً: أن يأكل الطعام ثمّ يختبر نفسه وينظر ما الذي يشعر به، إلى أن يُعيّن الحدّ الوسط الذي له، ومن الممكن أن يكون الشيء جيّداً بالنسبة لأحد الأشخاص، ولكنه سيّئ بالنسبة لشخصٍ آخر، وهذا الأمر يُمكن معرفته من خلال الاختبار والتجربة.

دراسة ونقد لنظرية أرسطو

إنّ معيار قياس السعادة في الاتجاه الأخلاقي عند أرسطو هو الاعتدال، ولكنّ هذا المعيار قابلٌ للنقض في مواطن متعدّدة، وأهمّ إشكالٍ يوجّه لنقض هذه النظرية وهي أنّه لا يوجد حدٌّ وسطيٌّ بين الوفاء بالوعد وخلفه، كذلك الأمر بالنسبة إلى (الصدق والكذب) فإنّه لا يوجد حدٌّ وسطٌ بينهما، وقد يُنقض على هذا الإشكال بأنّ الوفاء بالوعد أو الصدق يتعلّقان بالأعمال الظاهرية للإنسان؛ ولذا فهما خارجان عن مجال الأخلاق المتعلقة بالنفس، ولكن ينبغي القول: بأنّ أكثر علماء الأخلاق عدّوا هاتين المسألتين ضمن مسائل الأخلاق، وبالتالي يجب أن يُعاد النظر في تعريف الأخلاق وموضوعه الذي يختصّ بالمسائل النفسية^(١). هذا، وأنّ (العبادة) هي الأخرى ممّا لا ينسجم معها أمر الاعتدال، فعلى الإنسان أن يُوصل عبوديته

(١) أنظر: عابدي، أحمد، فلسفه اخلاق [=فلسفة الأخلاق]: ص ٣٠.

وعبادته لمعبوده وخالقه إلى الحد الأعلى.

إنّ من الإشكالات المهمّة على نظرية أرسطو، اتّجاهها المادّي ودينويّتها هذه، فأرسطو يشترط ثلاثة عناصر للسعادة، هي: اللذة، ودوام اللذة، وشمولها؛ وأمّا أمثلته لهذه الشروط هي من قبيل: المرأة والمنزل، وكلاهما يختصّان بهذه الدنيا، وبالتالي فهو أغفل الآخرة والسعادة القصوى، مع أنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾^(١). وهذه السعادة هي أهمّ سعادة يذكرها القرآن. وقد التفت (برتراند راسل) إلى هذه المشكلة في نظرية أرسطو، فكتب ما يلي: فلك مثلاً أن تقول عنه: إنّ حذف كلّ ما يمسّ الخبرة الإنسانية ممّا يُعنى به الدين، فما يقوله لا يزيد على كونه كلاماً ينفع أولئك الذين يعيشون عيشاً رغداً، ولا يُمارسون حدّة العاطفة نحو شيء، أمّا أولئك الذين قد ملأ عليهم الله أو الشيطان شعاب نفوسهم، أو أولئك الذين انتهى بهم سوء حظّهم في شؤون العيش إلى حالٍ من اليأس، فلا يقول لهم شيئاً، لهذه الأسباب - في رأيي - إنّ كتاب «الأخلاق» قليل الأهميّة الذاتية، على الرغم من شهرته^(٢).

ومن هنا؛ فإنّ نظرية أرسطو الأخلاقيّة، بما أنّها تواجه مشكلاتٍ في تفسير (الاعتدال)، وكذلك تفتقر إلى الجامعيّة في تفسير جميع المفاهيم الأخلاقيّة وتبريرها؛ فإنّه لا يُمكنها أن تُعرّف للإنسان سعادته الكاملة، كذلك ليس باستطاعتها الانتشار أبعد من محيط العلماء والفلاسفة؛ بحيث تُصبح مقبولةً من قبل عموم الناس؛ وذلك بسبب اتّجاهها النظري والعلمي الصّرف^(٣).

(١) هود: آية ١٠٨.

(٢) أنظر: رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربيّة، ترجمة: نجيب محمود، زكي: ج ١، ص ٢٩١.

(٣) أنظر: الديلمي، أحمد، وأذربيجاني، مسعود، اخلاق اسلامي [=الأخلاق الإسلامية]: ص ٢٣

(نقلاً عن: مطهري، مرتضى، التعليم والتربية في الإسلام).

الرؤية الإسلامية للأخلاق

عادةً ما يعتمد الفلاسفة المسلمون في مجال الأخلاق - كما أشرنا سابقاً - على نظرية (الاعتدال) الأرسطية في بيان المسائل الأخلاقية. وفي المقام وبغية الخروج عن هذا القلب المتعارف، ولإبراز التعاليم الأخلاقية الدينية، سنتعرض للتفسير الصحيح للخير والكمال والفضيلة من وجهة النظر الإسلامية، فأحد الأصول الإسلامية التي تم قبولها في الفلسفة الإسلامية هو أن مصداق الكمال واللذة والسعادة واحد؛ فهناك شيء واحد هو كمال وخير وسعادة معاً، وقد تعرض ابن سينا في النمط الثامن من كتابه (الإشارات) إلى هذا الأصل^(١).

إن أتباع أرسطو يرون أن كمال الإنسان بالتعقل، بحيث يعتمدون في تفسيرهم للإنسان على الجملة المعروفة بأنه (حيوان ناطق)، والنطق عندهم يعني إدراك الكليات، وبالتالي فامتياز الإنسان عن الحيوانات هو بإدراكه للكليات؛ وبناءً على هذا فالإنسان الكامل هو الفيلسوف، وأفضل السجيا الأخلاقية هي تلك التي تقود الإنسان لأن يصبح فيلسوفاً، وكما أشرنا سابقاً فالكاتب التي من قبيل: (معراج السعادة)، و(جامع السعادات)، و(تهذيب الأخلاق)، و(الشفاء لابن سينا)، ترى بأن كمال الإنسان إنما يكون بتسليم القوة الغضبية والشهوية للقوة العاقلة؛ لكن النقطة المهمة هنا، هي أفضلية العلم الحضوري بالنسبة للعلم الحسولي، وبما أن العلم يؤدي إلى السعة الوجودية للإنسان - لا أن العلم شيء منفصل عن حقيقة الشخص العالم، بل هو متحد معه - إذاً فجميع الصفات الأخلاقية كالعلم توجب سعة وجودية للإنسان، وكلما ارتقى الإنسان في هذه الجهات أكثر، صارت وحدته

(١) أنظر: ابن سينا، الحسين بن عبد الله، الإشارات والتنبيهات: ج ٣ (في علم ما قبل علم الطبيعة)،

أكثر؛ ولذا قيل: في المجردات جنبه الوحدة هي الغالبة، وأمّا في المادّيات فالغالب هو جنبه الكثرة، وتُسمّى هذه السعة أو التكامل الروحي بـ (القرب من الله)؛ أي: إنّ أعلى درجات العلم وأعلى درجات القدرة وأعلى درجات الحياة ... تكون في هذه الحالة، والتي تحصل النفس فيها على لذّة، بحيث لا يُمكن مقارنتها مع أيّ شيءٍ آخر، وبالتالي فأفضل تفسيرٍ للخير الأخلاقي هو (القرب من الله)، وكلّ شيءٍ يمنع عن الوصول إلى هذا القرب يُسمّى شراً أخلاقياً، وبالطبع لا ننسى بأنّ حقيقة (التقرب من الله) لها من المقام الشامخ والرفيع بحيث تقصر أيدينا عادةً عن الوصول إليها، ولا يُمكن شرحها وتفسيرها أبداً من خلال العلم الحسولي؛ لذا فالعلم الحسوري والشهودي هو السبيل الوحيد الذي يُمكننا من خلاله أن نفهمها، وأحياناً الوحي يُخبرنا عنها أيضاً. هذا، ونحن نعلم بأنّ هناك درجةً عاليةً جداً يُعبّر عنها بـ (القرب من الله، ولقاء الله، والفناء في الله، والكون مظهراً لله)، ورغم أنّنا نعرف المعنى الاسمي واللفظي لهذه العبارات، لكنّنا لا نعرف كنهها وحقيقتها، فهذا المقام لا يُمكن مقارنته مع أيّ شيءٍ أبداً، ولهذا فالخير الأخلاقي يعني كلّ صفةٍ أو عملٍ يُوصل الإنسان إلى هذا الكمال الحقيقي الذي هو مصداق العلم والقدرة والحياة والعشق والبهجة اللامتناهية، ليُصبح الإنسان مظهراً للصفات الإلهية^(١).

إنّ روح الإنسان ومراتبها ودرجاتها تُمثّل مسألةً مهمّةً جداً في كسب الكمال والسعادة، فبعض الأشخاص أرواحهم لم ترتقِ إلى أكثر من مستوى الروح النبائيّة، والبعض الآخر منهم لديهم أرواح حيوانيّة، بينما نجد في المقابل أنّ بعضاً منهم لا يُمكن لنا أن نتصوّر كمالات أرواحهم ودرجاتها.

(١) أنظر: عابدي، أحمد فلسفه اخلاق، [=فلسفة الأخلاق]: ص ٣٩.

إنّ الروح مثل البدن، يُمكنها أن تفقد ما لديها من كمال، أو أن تكتسب كمالاً في زمانٍ آخر، فعلى سبيل المثال: قد يكون الإنسان مؤمناً اليوم، وكافراً غداً. إنّ بعض الناس يتقدّمون كالزواحف في حركتهم التكاملية، وبعضهم الآخر يُقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، وهناك فئة أخرى تتحرّك مثل الحصان الهائج، في المقابل هناك مجموعة تتحرّك بسرعة الضوء، ورواية (ضربةُ عليٍّ يومَ الخندقِ أفضلُ من عبادةِ الثقلين) مصداقٌ للقسم الأخير، فعمق وسعة (إخلاص) الروح العالية لعلّي ﷺ؛ أدّت إلى أن تصبح ضربةُ سيفه قيمةً إلى ذلك الحدّ.

إنّ كمالات الروح الإنسانية مختلفة جداً إلى درجة أنّها تمتدُّ بما لا نهاية له في طرف السلب إلى ما لا نهاية له في طرف الإيجاب، وتوضيح ذلك: إنّ بعض الأفراد لديهم درجةٌ سالبةٌ (تحت الصفر)؛ ولذا فهم يتمنّون الصفر، ويرون أنّ الوصول إليه كمالٌ بالنسبة لهم، وينقل القرآن لنا أمنيّتهم هذه يوم القيامة بهذا النحو: ﴿يَلَيِّنُنِي كُنْتُ تُرَبّاً﴾^(١) وفي المقابل هناك بعض الأشخاص وصل في الآخرة إلى المقامات العالية، بحيث لا يُمكن وصف هذه المقامات في الدنيا؛ أي: إنّهم يسيرون في الاتجاه الموجب إلى ما لا نهاية.

ضرورة التكامل المتناسق

إنّ (التكامل بنحوٍ متناسق) هو خصوصيةٌ بارزةٌ للمنهج الأخلاقي الإسلامي، وبناءً عليه فالإنسان عليه أن يصل إلى الكمال في جميع جهات الحياة الإنسانية، أو أن يسير في هذا الاتجاه، لا أن يتكامل أو يسير في اتجاه واحد، مثل الشخص الذي يتعبّد فقط ويغفل عن العلم والجهاد، وفي حال حصل هذا

(١) النبأ: آية ٤٠.

التناسق، فإنّ أعماله الصالحة سوف تُرشده نحو القرب إلى الله سبحانه وتعالى؛ ولذا قيل: إنّ أكثر الناس سعادةً هو الشخص الذي حصل على أعلى درجة من (القرب إلى الله)، وأساء الناس هو الشخص الأبعد عن هذا المقام، فإنّ حدّ نصاب القيمة والاعتبار في الإسلام هو عبارة عن الشهادة بالتوحيد والعدل والرسالة، ومن يمتلك هذا الحدّ من النصاب، فسوف تكون أعماله ذات قيمة، وأمّا الشخص الذي لا يمتلك هذا الحدّ من النصاب، فليس فقط لا قيمة له، بل له قيمة سالبة^(١).

ومن وجهة نظر الفلسفة الإسلامية، فإنّ تصرّفات الإنسان [جميعها] تُؤثّر في التكامل أو الانحطاط الروحيين، ولهذه التصرفات علاقة مباشرة بروح الإنسان كعلاقة العلة بالمعلول، بحيث إنّ بعض الأعمال لها أثر إيجابي في الروح، وهي تُمثّل سبباً للتكامل، وفي المقابل هناك بعض الأعمال والتصرّفات السيئة التي توجب ضعف الروح وانحطاطها. ومن خلال هذا البيان، يُمكن لنا أن نُفسّر ونوضّح الخير والشرّ أو السعادة والفضيلة أيضاً. وهذا الكلام يُمكن أن يقبله فقط من يعتقد بوجود الروح وتجّردّها وأصالتها ورجحانها على البدن، ويعتقد كذلك ببقاء الروح بعد موت البدن، ويرى أنّ الإنسان مختارٌ وقادرٌ على التأثير على روحه.

(١) أنظر: عابدي، أحمد فلسفه اخلاق، [=فلسفة الأخلاق]: ص ٤١.

القسم الثاني

أُسُس الأخلاق الإسلامية في القرآن

◀ الفصل الأول: تصحيح الاعتقادات

◀ الفصل الثاني: الاهتمام بالآخرة

◀ الفصل الثالث: أصالة الروح في قبال البدن

◀ الفصل الرابع: حرّية الاختيار

◀ الفصل الخامس: القبول بالحُسن والقُبْح العقليّين ومراعاة الحسن

الفعلي والفاعلي

◀ الفصل السادس: ضرورة كون الدوافع إلهيّة

تمهيد

تُقسّم المعارف الإسلامية إلى ثلاثة أقسام: العقائد والأخلاق والشرعية (الأحكام)، هذا من جانب، ومن جانب آخر تعدّ آيات القرآن الكريم أهمّ وأصفي مصدر للمعارف الإسلامية، فهي الأخرى إذن يُمكن تقسيمها إلى ثلاث أقسام: آيات العقائد، وآيات الأحكام، وآيات الأخلاق. ومن هنا؛ فالأخلاق هي أحد الأركان الثلاثة المهمّة في المدرسة الإسلامية. هذا، وأنّ تقديم دراسة كاملة حول الأخلاق القرآنية تستلزم بيان (أسس) الأخلاق (مفاهيمها)، والأسس هي البنية التحتية (الفرضيات والأصول الموضوعية في الأخلاق)، كما يُمكن تعريف الأسس أيضاً بأنها الآراء النظرية التي يبتني عليها علم الأخلاق. وأمّا المراد من (المفاهيم الأخلاقية) في القرآن، فهو المفردات والمصطلحات التي تحمل مضامين أخلاقية، وأحياناً يكون لها بُعدٌ إيجابيٌ وقيميٌّ كالتقوى، وأحياناً أخرى يكون لها بُعدٌ سلبيٌّ ومخالفٌ للقيم كالفسق.

تاريخ البحث عن الأسس الأخلاقية في القرآن

يُسمّى زمان نزول القرآن وما بعده إلى زمان الغيبة الكبرى بـ (زمان الحضور)، وقد تمّ في هذا المقطع الزمني المهمّ من تاريخ الإسلام - والذي شهد حضور المعصومين عليه السلام - بيان (القضايا الأخلاقية) فقط، دون التعرّض لـ «أسسها النظرية»، ويُمكن لنا أن نُشير إلى جملة من القضايا الأخلاقية في الروايات التالية:

«رُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ] قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبَيْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَهُ. وَرُويَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: إِنِّي قُلْتُ لَامْرَأَةٍ، وَأَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنْ هَذِهِ لَطَوِيلَةُ الدَّيْلِ، فَقَالَ: الْفِظِي الْفِظِي، فَلَفَظْتُ بَضْعَةً مِنْ لَحْمٍ»^(١). وقال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَهْلَكَاتٌ: شَحٌّ مُطَاعٌ، وَهُوى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(٢).

أما المرحلة الثانية التي تلت زمان حضور المعصومين عليهم السلام، فقد عمد فيها المسلمون وبالتدريج إلى بيان الأسس النظرية للأخلاق وتدوينها، وكان الفارابي أحد السبّاقين في هذا المجال، وقد قام ببيان (الأسس النظرية للأخلاق) في كتابه المدينة الفاضلة، ولم يتعرّض إلى المسائل الأخلاقية إلا في مواطن قليلة.

وفي المرحلة الثالثة التي جاءت بعد الفارابي، فقد تعرّض الخواجة نصير الدين الطوسي - أحد أعلام القرن الثامن - في مقدّمة كتابه (الأخلاق الناصرية) لبيان الأسس الأخلاقية، ومن ثمّ قام ببحث المسائل الأخلاقية. فقد جاء في مقدّمة الكتاب المشار إليه ما يلي: «ولا بدّ أن يُعلم بأنّ مبادئ مصالح الأعمال ومصالح الأفعال للنوع البشري، والتي هي مقتضى نظام أموره وأحواله، إمّا أن تكون في أصل الطبع، وإمّا بالوضع، فأما ما كان مبدؤه الطبع فهو ما كانت تفاصيله مقتضى عقول أهل البصيرة والتجارب وأرباب الكياسة، ولم يتبدّل أو يختلف باختلاف الأعصار ولا بتقلّب سير الآثار، وهي أقسام الحكمة العقلية التي تمّ ذكرها...»^(٣).

(١) النراقي، المّلا أحمد، معراج السعادة: ص ٤٠٥. [ومجموعة ورّام: ج ١، ص ١١٨].

(٢) الفيض الكاشاني، المّلا محسن، المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء: ج ٦، ص ٢٧٢.

(٣) الطوسي، الخواجة نصير الدين محمّد، اخلاق ناصري [= الأخلاق الناصرية]: ص ٤١.

هذا، وقد خصّص الخواجة نصير الدين الطوسي القسم الأول من مقدمة الأخلاق الناصرية بمبادئ الأخلاق.

وأخيراً، جاءت المرحلة الرابعة التي استمرّ فيها أسلوب الخواجة نصير الدين، وإلى عصرنا الحاضر، حيث كُتبت كُتبٌ مستقلةٌ في أسس الأخلاق أو فلسفة الأخلاق.

أسلوب التحقيق

بما أنّ هذه الدراسة تتعرّض لأحد المواضيع القرآنيّة، فمحور البحث فيها هو الآيات القرآنيّة، ولكن هناك نقطة تجدر الإشارة إليها وهي أنّه وللأسف لم نجد في خصوص هذا الموضوع تحقيقاً كاملاً يشتمل على (الأسس والمفاهيم)، رغم أنّ بعض الأعظم كتب مجموعة من المطالب حول هذا الموضوع، أو أنّ بعض المحاضرات أُخرجت بنحوٍ مكتوبٍ، أو كُتبت فيه بعض المقالات، ولكنّها ناقصة جميعاً.

وقد يكون هناك كُتباً باسم (أسس الأخلاق في القرآن)، ولكنّ ما ينطبق مع هذا العنوان من المحتوى هو نسبةٌ قليلةٌ جداً، وأكثر مباحثها لا يرتبط بالبنية الأساسيّة للأخلاق (الأسس).

وبالالتفات إلى هاتين النقطتين، فلا بدّ أن تكون المصادر الأصليّة لهذا التحقيق هي القرآن والتفاسير وكتب المعاجم واللغة، وفي هذا المجال عمدنا في كلّ فصلٍ من قسم أسس الأخلاق إلى الرجوع للآيات، ثمّ القيام بتبويبها وعند الضرورة استعنا بالتفاسير أيضاً.

وأما في قسم المفاهيم، فإنّنا بعد أن قمنا بالبيان الدقيق للمعاني اللغوية والاصطلاحية لكلّ مفردةٍ ومصطلحٍ أخلاقيٍّ، أشرنا إلى موضعه في القرآن، وفي المرحلة الثالثة قمنا بتصنيف الآيات من خلال الاستعانة بـ (المعجم المفهرس للقرآن) و(الكتب الموسوعيّة القرآنيّة) و(دوائر المعارف).

ومن هنا؛ فالتحقيق الحاضر يحتاج إلى مجالٍ واسعٍ جداً؛ ولكن بسبب محدودية ظروفنا الزمانية اقتصرنا على المباحث الضرورية فقط.

الفصل الأول

تصحيح الاعتقادات

تمهيد

تشكّل المعارف الإسلامية من ثلاثة أقسام مهمّة، هي: (العقائد) و(الأحكام العملية) و(الأخلاق)، وهنا يُطرح السؤال التالي: كيف يُمكن لعقيدة الإنسان المسلم أن تُؤثّر في القسمين الآخرين؟ إنّ الأحكام الموجودة في عشرات الآثار الفقهية لن تُطبّق بشكلٍ عمليٍّ إلّا في حالة كان لدى الإنسان المسلم يقينٌ بأصول الدين، والمسائل الأخلاقية المهمة هي من هذا القبيل، وأنّ أحد الأسس المسلّمة في (الأخلاق الإسلامية في القرآن) هو تصحيح العقائد.

إنّ الآية الوحيدة^(١) في القرآن، والتي تُبيّن الأصول الاعتقادية والإيمانية الثلاثة

(١) هناك عدّة آيات قرآنية يُمكن أن يُستفاد منها ترتّب العمل الصالح والكثير من الفضائل الأخلاقية على الإيمان وترسخ الأصول الاعتقادية لدى الفرد، منها: قوله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، إن كنتم مؤمنين ﴿، الأنفال: آية ١٠. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَقَلِّبْهُ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾، يونس: آية ٨٤. كما تؤكد جملة من الآيات على ارتباط العمل الصالح بالاعتقاد بالمعاد، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصُلُوهُنَّ أَن يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُم يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾، البقرة: آية ٢٣٢. كما بيّنت بعض الآيات الارتباط الواضح بين عدم الإيمان بالمعاد وبين الانحراف الأخلاقي، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

مع الإشارة إلى الأخلاق والعمل الصالح، هي الآية الأخيرة من سورة الكهف، والتي تذكر بأن العمل الصالح هو نتيجة من نتائج الاعتقاد بالمعاد، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَنَكانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

فقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: «قد رتب على الاعتقاد بالمعاد العمل الصالح وعدم الإشراك بعبادة الرب؛ لأن الاعتقاد بالوحدانية مع الإشراك في العمل متناقضان لا يجتمعان»^(٢).

كما أنه قد وردت مجموعة من الروايات في ذيل هذه الآية الشريفة، الدالة على أن المراد من الشرك هنا هو الرياء. وبناءً على هذا؛ فالاعتقاد الصحيح والراسخ يجب أن ينتج عملاً خالصاً.

الاعتقاد والعمل

إن الوصول إلى الكمال يحتاج إلى دليلٍ ومساعدٍ، وعلى الإنسان في المرحلة الأولى أن يحرز سلامة الفكر على المستوى النظري والاعتقادي، ثم في المرحلة الثانية عليه أن يستكشف علوم الطريق ومراحل طي الطريق الصائب؛ إذاً فالخطوة الأولى هي تحصيل العلوم الاعتقادية.

و(الاعتقاد) مأخوذٌ من (العقد) بمعنى الربط، أي: ما يربط الإنسان بالله وبسائر أصول الدين، وبالطبع قد يُحصّل الإنسان علماً، ومع ذلك لا يحصل بينه وبين هذا العلم حالة الاعتقاد القلبي، مثل: فرعون الذي أنكر وجود الله رغم علمه بأن معجزة



مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾، المؤمنون: آية ٣٣. (خ).

(١) الكهف: آية ١١٠.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٣، ص ٤٠٥.

موسى كانت معجزة إلهية، أو مثل الشيطان الذي لم يقبل بنتيجة علمه، قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

رأي القرآن في كيفية تأثير العقيدة

لقد بين القرآن الكريم في سورتي (إبراهيم) و(طه) بياناً تاماً وبشكل صريح أن العقيدة الصحيحة أو الباطلة لها أثر على عمل الإنسان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٢) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٣).

فهذه الآيات تتعلق بالإيمان الصحيح والآثار المترتبة عليه، وكما أشرنا في مقدمة هذا الفصل، فإن الاعتقاد التوحيدي الخالص له آثار عملية وأخلاقية كثيرة، وقد كتب العلامة الطباطبائي في هذا الصدد ما يلي: «القول بالوحدانية والاستقامة عليه، هو حق القول الذي له أصل ثابت محفوظ عن كل تغير وزوال وبطلان، وهو الله عز اسمه أو أرض الحقائق، وله فروع نشأت ونمت من غير عائق يعوقه عن ذلك من عقائد حقة فرعية وأخلاق زاكية وأعمال صالحة يحى بها المؤمن حياته الطيبة، ويعمر بها العالم الإنساني حق عمارته، وهي التي تلاثم سير النظام الكوني الذي أدى إلى ظهور الإنسان بوجوده المفطور على الاعتقاد الحق والعمل الصالح...»^(٤).

ومن هنا؛ شبه القرآن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بالشجرة المثمرة التي لها جذور ثابتة، والتي كلما تمت العناية بها أكثر، كان عطاؤها وآثارها الإيجابية في عمل الناس وأخلاقهم أكثر ظهوراً. وفي المقابل شبه القرآن (الشرك) بالشجرة الخبيثة

(١) النمل: آية ١٤.

(٢) إبراهيم: آية ٢٤-٢٥.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٢، ص ٧٣.

التي أقتلعت من مكانها، ولم يعد لها أصل ثابت، وليس لها من قرار ولا مكان محدد، وبما أثمرها خبيثة فليس لها أثر إلا الشر والضرر.

هذا، وقد عرض لنا القرآن الكريم نماذج عملية كثيرة فيما يتعلق بالتوحيد والشرك وتبعاتها، وذلك من حياة الناس في الماضي، ونحن بدورنا سنذكر بعض هذه النماذج.

١. الإيمان هو الذي حفظ نبي الله يوسف ﷺ

ينقل لنا القرآن قصة عفة النبي يوسف ﷺ، وذلك عندما أرادت زوجة عزيز مصر أن تحصل على لذتها منه ﷺ، بحيث إنه وقف موقفاً مخالفاً لذلك وبشدة، وهنا نجد بأن القرآن يبين - ضمن عرضه لإيمان يوسف ﷺ - بأن لطف الله هو العامل الذي أدى إلى عفته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١).

وقد فسر الطبرسي في جوامع الجامع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ بالنحو التالي: «﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ﴾ [أي زليخا] بمخالطتها ﴿وَهَمَّ﴾ بمخالطتها ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، جوابه محذوف تقديره: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لخاطرها»^{(٢)(٣)}.

(١) يوسف: آية ٢٤.

(٢) الطبرسي، الفضل بن حسن، تفسير جوامع الجامع: ج ٢، ص ١٨٤.

(٣) لقد ذكرت عدة آراء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، منها: أن في الآية تقديراً وتأخيراً، فيكون مفادها: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها. وعليه فلم يحصل لهم من يوسف ﷺ أبداً. قال الشيخ الطبرسي في مجمع البيان: «... أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير، ويكون التقدير: ولقد همت به، ولو لا أن رأى برهان ربه؛ لهم بها، ولما رأى برهان ربه؛ لم يهم بها، ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت؛ لو لا أنني تداركتك، وقد كنت قُلت؛ لو لا أنني خلصتك. والمعنى: لو لا تداركي؛ هلكت، ولو لا تخليصي إياك؛ لُقت، وإن كان لم يقع هلاك وقتل. ومثله قول الشاعر:

ولما كان النبي يوسف عليه السلام يتمتع بإيمان قويّ شمله اللطف الإلهي، وآخر ما ورد في هذه الآية شاهدٌ على هذا المدعى؛ لأنها عدّت يوسف من عباد الله المخلصين، والمخلص هو الشخص الذي أمّن نفسه في قبال الوسوس الشيطانية والأهواء النفسانية من خلال سعيه المعنوي المتواصل الذي لا ينقطع.

هذا، وقد صرح الشيطان أيضاً بأنه ليس له سلطان على عباد الله المخلصين^(١). وبناءً على هذا؛ فإن قرب هذه الفئة من الأشخاص إلى الله وعدم وجود أيّ حجابٍ بينهم وبين مصدر الكمالات، صار مانعاً من اقتراب الشيطان لهم وانحرافهم عن طريق الكمال.

٢. قوم لوط وإنكار الرسالة

يعتبر القرآن الكريم عمل قوم لوط عليه السلام وعاقبته نموذجاً من نماذج الشرك، ويذكر بأن منشأ ضلال قوم لوط هو تكذيبهم لرسالة الرسل، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْفِقُ^(٢).

إنّ تكذيب الرسالة يجرّ إلى إنكار التوحيد أيضاً، ويهيئ الأرضية لكلّ فسق



فلا يدعني قومي ليوم كريهٍ لئن لم أعجل ضربة أو أعجل

وفي القرآن: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ (القصص: آية ١٠). الطبرسي، محمد بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٥، ص ٣٤٣.

وقد روي هذا المعنى عن الإمام الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون عن هذه الآية، حيث قال عليه السلام: «لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَلَوْ لَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ؛ لَهَمَّ بِهَا كَمَا هَمَّتْ بِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ مَعْصُومًا، وَالْمَعْصُوم لَا يَهْمُ بِذَنْبٍ، وَلَا يَأْتِيهِ...». الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٠١. وأنظر هذا المعنى أيضاً في: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١٢٧-١٢٩. (خ).

(١) الحجر: آية ٤٠. [إشارة إلى قوله تعالى على لسان الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾].

(٢) الشعراء: آية ١٦٠-١٦١.

ومعصية، فعندما يرى الأشخاص أنهم غير مُكَلَّفِينَ بالتكاليف الإلهية، وأنهم مُتَحَرِّرون من كل قيد، فسوف يُتَوَقَّع منهم أيُّ فعلٍ قبيح؛ ومن هنا نجد أن قوم لوط خالفوا نبيهم، ولم يمتنعوا عن القيام بها كانوا يقومون به من أعمالٍ قبيحة، وكانت عاقبة هذا الشرك والكفر هو العذاب الإلهي في هذه الدنيا، وهو ما أدى إلى إهلاك هؤلاء القوم.

٣. أكل الحرام نتيجة لعدم الإيمان

من القصص المتعلقة بآثار الشرك وتبعاته، والتي ذُكرت في القرآن، قصة أصحاب الأيكة الذين خالفوا أمر النبي شعيب عليه السلام، حيث إنهم وخلافاً لما أوصاهم به نبيهم، لم يتوقفوا عن البخس والإفساد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(١).

وفي قبال هذه الوصايا الإلهية والأخلاقية التي وصّاهم بها النبي شعيب عليه السلام، فقد اتهموه بأنه مسحور وكذبوا رسالته، قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾^(٢) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ^(٣).

٤. الإسراف والفساد مع تكذيب النبوة

لقد امتنع قوم ثمود عن الانصياع لأوامر النبي هود عليه السلام بترك الإسراف والفساد، فنجد أنهم قابلوا كلام النبي الحقّ باتهامه وتكذيبه، قال تعالى مبيّناً قصّته معهم: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ^(٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ^(٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ^(٤).

(١) الشعراء: آية ١٨٣.

(٢) الشعراء: آية ١٥٣-١٥٤.

(٣) الشعراء: آية ١٥١-١٥٤.

هذا، ونستفيد من مجموع الآيات المذكورة بخصوص الشرك وتبعاته أن منشأ استمرار جميع المعاصي والفساد والعقاب الذي ينزل على تلك الأمم هو رفض الرسالة ونبوة الأنبياء الذين كانوا على حق، والذين قاموا بالمعاجز من أجل إثبات حَقَانِيَّتِهِمْ. ومن هنا؛ نجد أن جميع الرُّسل قد وظَّفوا كلَّ جهودهم التبليغيَّة من أجل إصلاح معتقدات أقوامهم، ولو أن الناس اعتقدوا بالعقائد الصحيحة والبعيدة عن الشرك والخرافات، لترشَّحت من وجوداتهم آثارٌ قيِّمةٌ جدًّا، سواءً من الناحية العمليَّة أم الأخلاقيَّة، ولأصبح المجتمع مجتمعاً إنسانياً وإلهياً.

كما أننا نجد في دعوة النبيِّ نوح ﷺ دعوةً إلى الأصول الاعتقاديَّة الثلاثة أيضاً، وذلك بنحوٍ صريحٍ وواضح، قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْصِيَاءَهُ﴾^(١).

ومن هنا؛ نجد أن تصحيح العقائد هو من أهمِّ أسس الأخلاق، وهو الضامن لإصلاح البشر، ويُلاحظ في الآية أعلاه أن النبيِّ نوح ﷺ، ولأجل أن ينجو قومه من المعصية والانحراف الأخلاقي، اقترح أولاً الإيمان بثلاثة أصولٍ اعتقاديَّة، هي: التوحيد والنبوة والمعاد.

مراتب الإيمان والعمل

لا يتحلَّى جميع المسلمين بنفس المستوى من الإيمان والعقيدة، وبما أن الإنسان كلّما كان إيمانه أعمق كان أثره أشمل، فسوف نتعرَّض إلى بعض مراتب الإيمان.

١. الفرح بالصالحات

إنَّ أقلَّ أثرٍ من الآثار العمليَّة لتحقيق الإيمان، هو أن يُصبح الإنسان مُحبّاً للعمل

(١) نوح: آية ٢-٣.

الصالح وأن يستاء من الأعمال السيئة، ولكن إذا شعر بشعورٍ مُعاكسٍ، أو لم يشعر بأيّ فرقٍ بين الأعمال الصالحة والسيئة، فلن يكون هناك دافعٌ في داخله يدفعه نحو الوصول إلى الفضائل والأموال الحسنة، أو يُبعده عن القبائح، وفي النتيجة لن يسير في مسير الهداية، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(١). وعليه؛ فإذا تعلّقت إرادة الله بهداية أحدٍ، فأول علامةٍ لذلك هو أن يشعر بالانبطاح الروحي والنشاط عند مشاهدة الصالحات، وكلّمًا قام بعملٍ صالحٍ شعر بالفرح من ذلك العمل، وإذا لم يصل الإنسان - على الأقل - إلى هذا الحدّ في مسير الهداية، فسوف يكون مُعرّضاً لخطر الانحراف في حياته، وقد تكون عاقبته إلى البوار.

٢. الإثبات العملي للتقوى

المرحلة الثانية (من الناحية الخارجية) هي أنه بعد الامتحان المعنوي، يثبت استحقاق قلب الشخص الممتحن وباطنه لعطف الله بأن يُصبح من المتّقين، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢). إنّ كلمة (الامتحان) في المعجم العربي تعني إيجاد الحرارة من أجل فصل الأشياء الثمينة عن الأشياء التي لا قيمة لها، مثلاً: الحجارة المختلطة بالذهب، تُعرّض للحرارة حتّى ينفصل الذهب عن الشوائب الأخرى، والمراد من الآية هو أنّ الله يُوقع عبده في بعض المشاكل لكي يتّضح مقدار تحمّلهم في سبيل الله، قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ^(٤).

(١) الأنعام: آية ١٢٥.

(٢) الحجرات: آية ٣.

(٣) العنكبوت: آية ٢-٣.

إنَّ الإيمانَ الظاهر ليس له ثوابٌ عند الله، فقد كان المنافقون في صدر الإسلام يطلبون الرخصة من النبي ﷺ لترك الجهاد بحججٍ مختلفة، وفي المقابل كان هناك الأفراد العابدون والمؤمنون، مثل: عمر بن الجموح الذي اشترك في الجهاد مع ثلاثة من أبنائه رغم ما يُعانيه من كبر السن وإعاقة في رجله، ومعارضة قومه، كما أنَّ زوجته الشجاعة كانت تحمل جنازة زوجها وأخيها وأبنائها الشهداء على الناقة باتجاه المدينة، وكانت تُجيب الناس حين يسألونها عن ساحة القتال، فتقول: خيرٌ بحمد الله؛ لأنَّ النبي ما يزال حيًّا.

٣. الوصول إلى العصمة الاختيارية^(١)

إنَّ الإيمان والاعتقاد الكامل بمعارف الدين إذا صاحبه ممارسة عملية سوف يؤدي إلى عدم صدور الذنب من الإنسان، وحينما يتحمَّل الإنسان المتاعب من أجل الوصول إلى هذه المرحلة من المصونية، ويقوم بأعماله العبادية بنحو صحيح وكامل، فإنَّه سوف يرتقي إلى المرحلة الثالثة، وفي هذه المرحلة يُنظَّم الإنسان جميع حركاته وسكناته على أساس رضا الله، ويتعد عن جميع ما هو مخالف للإيمان، قال تعالى: ﴿...وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(٢).

وفردٌ كهذا لا يهتم إلا بما يُريده المحبوب، والإيمان بالنسبة للإنسان في هذه المرحلة هو المقود الوحيد الذي يقود وجوده، والتوحيد الخالص هو المعيار الوحيد لحياته.

(١) مراد المؤلف من العصمة الاختيارية، هي الملكة التي ترسخ عند الإنسان غير المعصوم - بالعصمة الواجبة - وتحول بينه وبين الوقوع في المعاصي، وقد أطلق عليها وصف الاختيارية في قبال العصمة الواجبة الثابتة للأنبياء والأوصياء، فلا يفهم من قيد (الاختيارية) أنَّ عصمتهم ﷺ تكون بالجبر وسلب الاختيار، بل هي اختيارية أيضاً على ما قرَّر في محله. (خ).

(٢) الحجرات: آية ٧.

هذا، وقد أُستعملت ثلاث مفردات في القسم الثاني من هذه الآية، وهي: (الكفر والفسوق والعصيان)، ومع بيان معانيها سوف يتضح تفسير الآية أيضاً:

الكفر: «الكُفْرُ في اللغة: سترُ الشيء، ووُصف الليل بالكافرٍ لستره الأشخاص»^(١).

الفسق: «فَسَقَ فلان: خرج عن حجر الشرع، وذلك من قولهم: فَسَقَ الرُّطْبُ، إذا خرج عن قشره»^(٢).

العصيان: «عصى عصياناً؛ إذا خرج عن الطاعة»^(٣).

ومن خلال الوصول إلى المرحلة التي يكون فيها الإيمان محبوباً وزينةً للقلب، ويكون فيها الكفر والفسق والعصيان مبغوضاً من قبل الإنسان، فمن الطبيعي أن لا يحصل للإنسان انحرافٌ؛ ويمكن أن تُفسر الآية بنحوٍ مختصرٍ كما يلي: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمُنُّ﴾ عارض زينة رأيكم زينة الإيمان به؛ إذ ﴿زَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ﴾ لم يجعلها بحيث تفيد أدنى ترجيح له على الكفر، بل ﴿كَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ﴾ بالغ حتى كره إليكم مقدماته؛ أعني ﴿الْفُسُوقَ﴾ أي: الخروج عن مقتضى الدلائل ﴿وَ﴾ لواحقه أعني ﴿الْعُصْيَانَ﴾ أي مخالفة أوامره ونواهيه...^(٤).

ونستنتج من مجموع المباحث التي تم عرضها في هذا الفصل أن القرآن يرى بأن صفاء العقيدة والبُعد عن الشرك وباقي الانحرافات الأخرى، لها تأثيرٌ رئيسي وأساسي في البنية الصحيحة للأخلاق، ومع اكتمال الإيمان، يصل الإنسان إلى أعلى مراتب التقوى والبُعد عن المعصية، وهذه المرحلة تُسمّى (العصمة الاختيارية).

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٧١٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٧٠.

(٤) أنظر: المهائمي، علي بن أحمد بن إبراهيم، تفسير القرآن المسمّى: تبصير الرحمن وتيسير المنان: [ج ٢، ص ٢٨٩].

الفصل الثاني

الاهتمام بالآخرة

إنَّ أحدَ أسس الأخلاق الإسلاميَّة ومبادئها في القرآن هو (الاهتمام بالآخرة)، حيث نجد بأنَّه على الرغم من أنَّ الاعتقاد بالمعاد هو أحد الأصول الدينيَّة المسلَّمة، إلَّا أنَّ إشارات القرآن إلى المعاد تنسجم أكثر مع هدف التربية واكتساب الأخلاق، فلو أنَّ الهدف هو بيان حقيقة عالم الآخرة وواقعها فحسب، لمَّا كان هناك من حاجةٍ لكلِّ هذا التوضيح والتكرار، وإنَّما يمكن الاكتفاء ببيان موضوع الموت والبرزخ والقيامة والجنَّة والنار في عدَّة آياتٍ فقط، في حين أنَّنا نجد ما يقرب من (١٤٠٠) آية تختصُّ بالمعاد! وعليه؛ فإنَّ القرآن في ظلِّ هدفه التربوي يُريد من خلال التبشير بالجنَّة والوعيد بالنار أن يُرغِّبنا بالقيم الأبديَّة وأن يُبعدنا عن القبائح، وهو يحاول الوصول إلى هذا الهدف من خلال الطرق التالية:

١. التذكير بالموت.
٢. الإشارة إلى الفرص التي لا تعود.
٣. كيفيَّة الدخول إلى البرزخ.
٤. الترغيب بالصالحات والوعيد على السيِّئات.
٥. النعم مشروطة بتحصيل القيم.
٦. التهديد في سبيل تهذيب النفس.
٧. التحذير بذكر الأسماء المختلفة ليوم القيامة.

أساليب القرآن التربوية والأخلاقية في بحث المعاد

١. التذكير بالموت

إنَّ أحد الأساليب التي استعملها القرآن من أجل الترغيب نحو القيم الأخلاقية، والابتعاد عن الرذائل، هو لفت النظر إلى الموت، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١).

ومراد الآية هو تنبيهنا إلى أنَّ صلاح الصالحين وصلاح الطالحين لن يكون نسيًا منسيًا، ولن يزول عبر الموت، وإنَّما الذي سيحصل هو الانتقال فقط من مرحلة إلى مرحلة أخرى، فكلمة (الموت) في القرآن تعني (الانتقال)، وهو ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأُحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ﴾^(٢)، حيث إنَّ الانتقال الأوَّل في هذه الآية يكون من الدنيا إلى البرزخ، بينما يكون الانتقال الثاني من البرزخ إلى القيامة، ولم تتمَّ الإشارة في هذه الآية للانتقال من رحم الأمِّ إلى الدنيا^(٣). هذا، ولو كان الموت معناه الانعدام لم يكن هناك معنى لتكراره، وبالتالي فالإنسان لا يُعدم من

(١) المؤمنون: آية ١١٥.

(٢) غافر: آية ١١.

(٣) قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية: «والمراد بقولهم: ﴿أُحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ وَأُحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ﴾ - كما قيل - الإماتة عن الحياة الدنيا والإحياء للبرزخ، ثم الإماتة عن البرزخ والإحياء للحساب يوم القيامة، فالآية تشير إلى الإماتة بعد الحياة الدنيا والإماتة بعد الحياة البرزخية، وإلى الإحياء في البرزخ والإحياء ليوم القيامة، ولولا الحياة البرزخية لم تتحقق الإماتة الثانية؛ لأنَّ كلاً من الإماتة والإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافة. ولم يتعرضوا للحياة الدنيا، ولم يقولوا: وأُحْيَيْنَا ثَلَاثًا، وإن كانت إحياء؛ لكونها واقعة بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح؛ لأنَّ مرادهم ذكر الإحياء الذي هو سبب الإيقان بالمعاد، وهو الإحياء في البرزخ، ثم في القيامة، وأما الحياة الدنيوية فإنَّها وإن كانت إحياء؛ لكونها لا تُوجب بنفسها يقيناً بالمعاد، فقد كانوا مرتابين في المعاد وهم أحياء في الدنيا». الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٧ ص ٣١٣. (خ).

خلال الموت، وإنَّما يخرج بالموت من قلعة البدن فحسب.
ومن هنا؛ فالقرآن في صدد بيان الهدف من الخلقة، ونفي دعوى العبثية عن
المقام، وهذا الهدف القيم الذي على الإنسان أن يسعى نحوه، هو التكامل والرقى
من الجهات الإنسانية والقيمية والابتعاد عن القبائح والرذائل.

الدنيا مقدمة للآخرة

إذا قارنا الحياة الدنيا مع الآخرة، فهي مثل حياة الجنين في عالم الرحم بالنسبة
لهذه الدنيا، فعلى الجنين أن ينشأ في الرحم ويتكامل فيه حتَّى يستطيع أن يعيش في
الدنيا، والطفل لا يحتاج في رحم أمه إلى اللسان والعينين وباقي الأعضاء، بل هذه
عبارة عن أدوات سيحتاجها في الحياة الدنيوية، والتي ينبغي أن يكتسبها قبل
خروجه، كي يستفيد منها عندما يخرج؛ ولذا ينبغي علينا أن نتهيأ في حياتنا الدنيا
لكي نعيش في الحياة الآخرة، وأن نستعدّ من الجوانب الاعتقادية والأخلاقية،
بحيث نتمكن من العيش في البرزخ والقيامة حياةً إنسانيةً وإلهيةً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ
كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

إذاً، فالقرآن يُنبّه الإنسان - من خلال لفت نظره إلى الموت والعودة نحو الله -
إلى المسؤولية الثقيلة التي تقع على عاتقه.

٢. فُرْصٌ لا تعود

الموت هو بوابة الخروج من الدنيا، والدخول إلى البرزخ، ومع الدخول إلى هذا
العالم، سيفتح في وجه الإنسان أفقٌ جديدٌ، ومن خصائص البرزخ هو أنّنا لا نستطيع
الخروج منه، والخصوصية الأخرى هي إحساس الإنسان بالفقر والاحتياج الشديد

(١) الإسراء: آية ٧٢.

للقيام بالأعمال الصالحة، ومن خصوصياته كذلك أنه لا يمكن فيه العمل، وبالتالي فالإنسان في البرزخ يطلب من الله تعالى أن يعود إلى عالم الدنيا؛ لكي يُعاود السفر نحو الآخرة بزادٍ أفضل وأكثر، ولكن هذا الطلب يُرفض بنحوٍ قطعيٍّ وبنحوٍ مُقلقٍ في نفس الوقت؛ ولذا نجد أن القرآن يُحذّرنا من خلال توصيفه لواقع الحياة البرزخية، ويُنبّهنا إلى أنه ينبغي علينا أن نعتبر من ظروف الحياة الصعبة التي سنُقبل عليها، وأن نسعى في هذه الدنيا إلى تحصيل الحسنات والقيام بالأعمال الصالحة، والابتعاد عن الأفعال الفاسدة، قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ﴾^(١).

وبناءً على هذا؛ فالدنيا توضع بين يدي الإنسان فُرصاً لا تعود أبداً، وعليه أن يستغلّها بأحسن وجهٍ ممكنٍ، وتعبير الآية الشريفة: عليه أن يعمل صالحاً. وفي حال عمل الإنسان أعمالاً حسنةً وصالحةً، بحيث استطاع أن يتخلّص من الملكات القبيحة، وأن يتحلّى بالعادات الحسنة والصالحة، سيكون عندها قد وصل إلى الغاية التي يسعى من أجلها علم الأخلاق، وأما لو كان الإنسان أسيراً لأهوائه النفسية وتسلب الشيطان عليه، ولم يعمل على بناء نفسه من الناحية الأخلاقية والمعنوية، فلا يمكنه الاستفادة من (الفرص التي لا تعود).

٣. كيفية الدخول إلى البرزخ

يرغب الإنسان عندما يدخل إلى مكانٍ جديدٍ أن يُستقبل بالمحبة والترحيب الحارّ، كما أنه ينزعج في المقابل من الاستقبال السيئ، وقد تعرّض القرآن إلى نحو دخول الناس إلى عالم البرزخ، وبيّن كيف يتم استقبال الأشخاص الذين يتحلّون

(١) المؤمنون: آية ٩٩-١٠٠.

بالصفات الحسنة والأعمال الصالحة النقيّة استقبلاً حارّاً، فيتمّ السلام عليهم ويُرحّب بهم أشدّ ترحيب، وفي المقابل فإنّ الكفّار والعصاة يُستقبلون بأسوأ استقبال وبأصعب طريقة، يقول القرآن عن الفئة الأولى: ﴿الَّذِينَ نُوفِّهِمُ الْمَلَكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

إنّ الطهارة من الصفات والأعمال السيئة - أي: كون هؤلاء الأشخاص طيّبين - هو المعيار الوحيد الذي يجعله هذه الآية لتعليل الاستقبال الجميل للصالحاء. وأمّا ما يتعلّق بعاقبة الفئة الثانية، فإنّ الآية التالية قد وردت في سياق تحذير الكفّار، فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢).

ومن هنا؛ فإنّ الناس عند دخولهم إلى البرزخ سيواجهون أحد نوعي التعامل التاليين: الأوّل: التعامل بكلّ محبة مع الصالحين، والثاني: التعامل القاسي والشديد مع الأرجاس. والقرآن الكريم يُريد أن يسوق الناس في هذه الدنيا من خلال هذا البيان نحو الطهارة والصفاء وجمال الأخلاق والقيم الأبديّة، يقول الله عزّ وجلّ في سورة الرعد بعد بيان مقام الصالحين: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٣).

إنّ لفت النظر نحو هذا التعامل المليء بالمحبة في الآخرة هو من أجل تشجيع المؤمنين على الأعمال الصالحة.

(١) النحل: آية ٣٢.

(٢) الأنفال: آية ٥٠.

(٣) الرعد: آية ٢٣-٢٤.

٤. التشجيع على الصالحات والتحذير من السيئات

لقد استعمل القرآن الكريم عدّة طرقٍ لإيقاظ الناس وتوعيتهم، وأحد هذه الطرق الواردة في (تهذيب الأخلاق) هو الدعوة الكلية والعامّة نحو الصالحات والنهاي العامّة عن السيئات، ويُمكن تقسيم الآيات التي تحث بشكلٍ عامٍّ على العمل الصالح وتنهى عن فعل السيئات إلى خمس مجموعاتٍ على الأقلّ:

١. الآيات التي استعملت مفردتي: (الحسنات) و(السيئات).
٢. الآيات التي تستعمل عنوان (الصالحات) في قبال مشتقات (الفساد).
٣. الآيات التي استعانت بمصطلحي (الأبرار) و(الفجار).
٤. المواطن التي يُبحث فيها عن مقدار ثقل العمل وخفّته.
٥. عددٌ من الآيات التي عبّرت عن الصالحات بـ(الخيرات) وعن السيئات بـ(الشرّ) أيضاً.

هذا، ويمكن أن نستعرض بعض الموارد القرآنيّة للمجاميع المتقدّمة كما يلي:

المجموعة الأولى: بعض الآيات التي استعملت مفردتي: (الحسنات) و(السيئات)، هي من قبيل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمَنُونَ﴾^(١) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(٢).

إذ يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الآية الثانية: «والمعنى ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه، ظهر لكم فلزّمكم فلا ظلمٌ في الجزاء ولا جورٌ في الحكم. والآيتان في مقام بيان ما في طبع الحسنة والسيئة من الجزاء، ففيهما حكمٌ من جاء بالحسنة فقط ومن أحاطت به الخطيئة واستغرقتة السيئة، وأمّا من حمل حسنةً وسيئةً فيعلم بذلك حكمه إجمالاً^(٣). وكذلك جاء نفس هذا البيان في سورة القصص: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ

(١) النمل: آية ٨٩-٩٠.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٥، ص ٤٠٣.

حَيْرَ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾.

المجموعة الثانية: الآيات التي تُذكرُ بالعمل الصالح من دون ذكر مصداقٍ له، ولكنها تذكره من خلال ذكر نعم الجنة المترتبة عليه، هي عبارة عن أكثر من خمسين آية في القرآن، ومن بينها الآيتان الأخيرتان في سورة البينة، وهما: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿٨﴾.

وعلى ما يبدو، فإن القرآن قد استعمل في قبال (العمل الصالح) مُشتقات مادة (الفساد)، مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿٣﴾. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ﴿٤﴾.

وبناءً على هذا؛ فالصالح والفساد يقابلان بعضهما البعض في القرآن. المجموعة الثالثة: الآيات التي استعملت تعبير (الأبرار) و(الفجار) في قبال بعضهما البعض، وهي تدعو الإنسان - من خلال بيان مقام كل واحدٍ منهما في عالم الآخرة - إلى عمل الصالحات وتُحذِّره من الفسق والفجور، وهذه الآيات من قبيل قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾.

المجموعة الرابعة: الآيات التي دعت إلى الصالحات والابتعاد عن السيئات من خلال الحديث عن ثقل ميزان العمل أو خفته، مثل: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي

(١) القصص: آية ٨٤.

(٢) البينة: آية ٧-٨.

(٣) الشعراء: آية ١٥٢.

(٤) الأعراف: آية ٨٥.

(٥) الانفطار: آية ١٣-١٦.

عِشْكَةً رَاضِيَةً ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾.

المجموعة الخامسة: وهي التي جاءت فيها الدعوة إلى (المسارعة) و(السبق) في مقام عمل الخيرات بنحوٍ عامٍّ، وفي هذه المجموعة من الآيات ليس هناك إشارة إلى فعلٍ معيّن أيضاً، ففي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(١). كما تُرغّب الآية التالية أيضاً بالمسارعة إلى عموم الخيرات: ﴿...فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٢).

وقد ذكر بعض المفسرين في تفسير جملة ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ما يلي: «فبادروا أيها الناس إلى الصالحات من الأعمال والقرب إلى ربكم، بإدمان العمل بما في كتابكم الذي أنزله على نبيكم، فإنه إنما أنزله امتحاناً لكم وابتلاءً، ليتبين المحسن منكم من المسيء، وليُجازي الله كلّ واحد منكم - ثواباً أو عقاباً - على أساس ذلك»^(٣).

من التعابير الخمسة الآمرة أو الناهية بأجمعها بنحوٍ عامٍّ يُستنتج أنّ أحد الأساليب القرآنية لإصلاح البشر هو الدعوة إلى جميع الصالحات والنهي عن جميع السيئات. وبالطبع، فإنه في جميع هذه المواطن قد تمّ الترغيب بنعم الجنة عند الدعوة للصالحات، وفي المقابل تمّ التخويف من عذاب الآخرة عند التحذير من السيئات.

٥. النعم مشروطة بتحصيل القيم الأخلاقية

إنّ أحد الطرق لسوق الناس نحو القيم الأخلاقية، هو بيان الآثار الإيجابية في الآخرة لكلّ واحدٍ من تلك القيم بنحوٍ مستقلٍّ. وبناءً على هذا؛ يذكر القرآن أحياناً

(١) القارعة: آية ٦-٩.

(٢) المؤمنون: آية ٦١.

(٣) المائدة: آية ٤٨.

(٤) تعيلب، عبد المنعم أحمد، فتح الرحمن في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٧٦٦.

الصفات والأعمال الحسنة بنحوٍ خاصٍّ مع أثرها في الآخرة، وهنا ستعرض
للآيات التي تذكر الصفات الحسنة مع نتائجها الأخروية:

(أ) التقوى

يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

وفي آيات أخرى قد ذكرت أيضاً نعم الجنة كوسيلةٍ للترغيب بالتقوى، كما في
كلٍّ من سورة النبأ^(٢) والمرسلات^(٣) وآل عمران^(٤)، وقد عدت بعض الآيات المتقين
الوارثين الوحيدين للجنة، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(٥).

(ب) الإنفاق

لقد حثت بعض الآيات القرآنية الإنسان على الإنفاق من خلال بيان الأجر
الأخروي لهذا العمل الصالح، من قبيل قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يُنْفِقْ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٦).

كما تعرّضت بعض الآيات إلى التذكير بالموت والحسرة الناشئة من تضييع
فرصة الإنفاق، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

(١) آل عمران: آية ١٥.

(٢) النبأ: آية ٣١-٣٦.

(٣) المرسلات: آية ٤١-٤٤.

(٤) آل عمران: آية ١٩٨.

(٥) مريم: آية ٦٣.

(٦) البقرة: آية ٢٦٢.

رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾.

ومن هنا؛ فإن آيات الإنفاق تُذكر بنعم الجنة التي لا حد لها، وذلك من أجل ترغيب الناس بالقيام بهذا العمل الخَيْر، أو تحذّرهم عبر التذكير بالحسرة التي ستحصل بعد الموت بسبب حرمانهم من أجر الإنفاق العظيم.

ج) الصبر

إنّ الصبر من الصفات والمفاهيم الأخلاقية العامة في القرآن، ويمكن إدراج جميع الأوصاف الأخلاقية الأخرى بنحوٍ من الأنحاء تحت هذه الفضيلة المهمة والشاملة. هذا، وقد استعمل القرآن تعبيراً ملفتاً من أجل إيجاد الدافع الكافي للتحلي بالصبر، فقال عز وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(١). والنقطة المهمة في هذه الآية هي أنّ الله عز وجل قد أكد على أنّه هو مَنْ سيُكافئ الصابرين بسبب صبرهم الذي صبروه.

ثم إنّ القرآن في بعض الأحيان يستعمل عند بيانه لمفهوم الصبر الذي يعني: «حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع»^(٢)، مادّة (القيام)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَدَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٣).

(١) المنافقون: آية ١٠-١١.

(٢) المؤمنون: آية ١١١.

(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٤٧٤.

(٤) فُصِّلَتْ: آية ٣٠.

ويُتَّضح من هذه الآيات بشكلٍ جليٍّ أنَّ القرآن يدعو الناس إلى (الصبر) و(الاستقامة) من خلال عرض ثواب الجنة الذي لا ينتهي، ويُبيِّن بأنَّهما من العناصر المهمة التي تتألف منها (الأخلاق الإسلامية والقرآنية).

د) صلة الرحم

إنَّ أحد الخصائص والسلوكيات التي أكَّد القرآن على بقائها واستحكامها تأكيداً شديداً جدّاً، صلة الرحم والارتباط مع الأقارب، وفي المقابل نجد أنَّه يواجه القاطعين لهذا الارتباط بأشدَّ التعابير^(١)، ويعدُّ الأشخاص الذين يحفظون علاقتهم بأقاربهم بأفضل الجزاء، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾^(٢) أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴿٢٣﴾.

إنَّ لحفظ الرابطة العائلية وصلة الرَّحِم آثاراً أخلاقية عديدة، وقد أوصى القرآن بصلة الرحم بأنحاء مختلفة من أجل حفظ هذه القيمة الأخلاقية.

٦. التهديد من أجل تهذيب النفس

لقد قام القرآن الكريم في سبيل دعوته للناس - وبهدف إيصالهم إلى الكمال - بتنبههم إلى عاقبة المفساد والمنكرات؛ وذلك بالإضافة إلى تشجيعهم وترغيبهم بالقيام بالصالحات؛ فإنَّه في هذا المقام لا يكفي التعريف بالصفات القبيحة، بل لا بدَّ من بيان عواقبها الخطيرة في الآخرة؛ ومن هنا نجد أنَّ القرآن في العديد من الآيات عمل على التخويف من الاتِّصاف بالصفات السيئة ومن ارتكاب الأعمال القبيحة من خلال أنواع العذاب الذي جُعِلَ للأشخاص الذين لا يتَّصفون بالنقاء،

(١) البقرة: آية ٢٧.

(٢) الرعد: آية ٢١-٢٣.

وستعرض هنا لبعض الآيات التي وردت في هذا المجال.

(أ) البخل

يُمثل البخل أحد الصفات الأخلاقية القبيحة، فمضافاً إلى ما يُعانيه البخيل من معاناة باطنية، فإنه سوف يُحرم من تحصيل النعم الإلهية أيضاً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١).

وعليه؛ فالقرآن يُحذّر الإنسان من هذه الصفة القبيحة عبر بيانه للآثار والعواقب الدنيوية والأخروية لها.

(ب) تتبّع العيوب

إنّ إحدى الخصائص القبيحة هي تتبّع عيوب الآخرين والطعن بهم، فتتبع العيوب يستلزم أن يرى الإنسان المتبّع لعيوب الآخرين نفسه نقيّاً وأنه أفضل من الآخرين، وعندها يبدأ بذكر عيوب الآخرين، وهذا ما يجعل هذه الحالة منشأً لسائر الانحرافات. يقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾^(٢) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾^(٣). ثم يذكر في تنمّة هذه الآيات أربع خصوصيات لجهنم، لكي يُخوّف الأشخاص المبتلين بهذا المرض، فيبادروا إلى معالجته.

(ج) التطفيف

هناك قسمٌ كبيرٌ من الوصايا الأخلاقية في القرآن التي ترتبط بالشأن المالي، وذلك من قبيل: البخل والحرص والإنفاق. والإسلام حريصٌ من الأساس بشأن

(١) آل عمران: آية ١٨٠.

(٢) الهُمة: آية ١-٤.

الأموال المائيّة، ويُطالب بالرعاية المؤكدة لهذا الشأن، وهناك العديد من الروايات التي تُؤكّد على ذلك.

إنّ التطفيف في المعاملة هو أحد الانحرافات المائيّة، وهو من الأمراض الروحيّة التي تدلّ على دناءة الشخص المُطفّف؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم يتحدث عن التطفيف والأخذ بما هو أزيد من الحقّ بما يلي: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝۱ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝۲ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝۳ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝۴ لِّيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝۵ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١). فالقرآن يطرح الموضوع - مورد البحث - ببيان واضح، ويهدّد المُطفّفين ضمن تعريفه بهم وعرض ما يقومون به، ويقول: ألا يعلم هؤلاء أنّهم سوف يُبعثون؟ وأنّ بعثهم سيكون ليومٍ عظيمٍ، وقد وصف القرآن يوم القيامة بأنّه (عظيم) في عشر مواضع، وكان أحدها فيما يتعلّق بـ (التطفيف)، وقد ذكر المفسّرون في معنى التطفيف ما يلي، وقالوا إنه: مُشتقٌّ من الطّيف، وهو (القليل اليسير)، ومن الطّف، يعني: (جانب) الشيء، وبالتالي فالتطفيف هو تقليل شيءٍ يسيرٍ من الكيل أو الوزن، والمُطفّف هو الشخص الذي يُقلّل من حقّ الطرف الآخر في المعاملة من خلال تقليل المكيل أو الموزون^(٢). وعليه؛ فإنّ القرآن يُخوّف المُطفّفين من حوادث يوم القيامة العظيمة من أجل إصلاح أخلاقهم.

د) البُهتان

إنّ أحد الذنوب الكبيرة التي ينطوي فيها عملاّن مُحَرَّمان وقبيحان هو البُهتان، فإنّه ينطوي على كلّ من الغيبة والكذب، وقد جاء في القرآن حول ذلك ما يلي: ﴿إِنَّ

(١) المطفّفون: آية ١-٦.

(٢) أنظر: مخلص، عبد الرؤوف، تفسير أنوار القرآن (فارسي): ج ٦، ص ٥٦٣.

الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١).

وقد أشار بعض المفسرين إلى المعنى المراد من مفردات هذه الآية الشريفة والجملة الواردة فيها بالنحو التالي: «إِنَّ مَنْ يَتَّهَمُ عَفِيفَةً طَاهِرَةً كَامِلَةً النَّزَاهَةِ عَنِ الْفَحْشِ حَتَّى مَا يَخْطُرُ لَهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى بَالٍ، وَهِيَ مُصَدِّقَةٌ مُسْتَيَقِّنَةٌ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، مَنْ يَتَّهَمُ وَاحِدَةً مِنْ هَؤُلَاءِ بِالزَّنا فَإِنَّهُ مُبْعَدٌ عَنْ رَحْمَةِ رَبَّنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ النِّكَالُ وَالْجَحِيمُ وَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ... إِنَّ مَعْنَى ﴿لُعِنُوا﴾ طَرَدُوا وَأُبْعِدُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ. [وَمَعْنَى] ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ [أَيُّ اللَّاتِي] لَمْ يَخْطُرْ بِبَاهُنَّ أَوَّلًا مَقَارَفَةٌ فَاحِشَةٌ أَوْ دَنَسٌ»^(٢).

إذاً؛ فمن أجل إصلاح أخلاق الناس وتحذيرهم من هذه المعصية الكبيرة؛ فقد قام القرآن ببيان آثارها الخطيرة في الدنيا والآخرة. وأما ما يتعلق بسائر الرذائل الأخلاقية، فهناك العديد من الآيات القرآنية التي نزلت من أجل حفظ الفضائل الأخلاقية للناس وإبعادهم عن الرذائل؛ لكننا سنكتفي بها ذكر في المقام.

٧. التحذير بذكر الأسماء المختلفة ليوم القيامة

إنَّ أحد أساليب القرآن في التذكير بالآخرة، هو إطلاق تسميات دقيقة على يوم القيامة، فجميع أسماء القيامة تتضمن تنبيهاً لنا، وقد بين القرآن من خلال هذه التسميات خصوصيات ذلك اليوم العظيم ومميزاته في حدود ما يُدرّكه البشر، وقد عُدَّ في القرآن أكثر من تسعين اسماً وصفة ليوم القيامة، ويمكن تقسيم هذه الأسماء إلى سبع مجموعات:

١. الأسماء التي تُبين الحالات الروحية للأفراد.

(١) النور: آية ٢٣.

(٢) تعيلب، عبد المنعم أحمد، فتح الرحمن في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٢٣٣٣.

٢. الأسماء التي تُذكر يوم القيامة.
 ٣. الأسماء التي تُبين عدم وجود الفرصة لاستئناف العمل في ذلك اليوم.
 ٤. الأسماء التي توضح بعض أصناف العذاب يوم القيامة.
 ٥. الأسماء التي تُعبّر عن أنّه يوم الاطلاع على نتائج أعمالنا في الدنيا.
 ٦. الأسماء التي تُبين صفات يوم القيامة.
 ٧. الأسماء التي تُبين عدم إمكان الاستعانة بالآخرين في ذلك اليوم.
- وهنا سوف نُشير إلى بعض هذه الآيات التي تتناسب مع البحث:

(أ) يوم القيامة

﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(١)، يوم القيامة، ويعني يوم الوقوف، وقد ذكر وجهان لهذه التسمية، هما:

- الوجه الأوّل: لأنّ الناس تقوم في هذا اليوم من قبورها وتقف.
- الوجه الثاني: لأنّ الناس يقومون ويقفون في قبال ميزان العدل الإلهي.

(ب) ظهور النوايا والسرائر

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٢) ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ قُبُورِهِمْ يُرَاجِعُونَ﴾^(٣)

(ج) الجمع

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْجَمْعُ﴾^(٤)

(د) الفصل

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾^(٥)

(١) القيامة: آية ١.

(٢) الطارق: آية ٩ - ١٠.

(٣) التغابن: آية ٩.

(٤) [النبا: آية ١٧] (م).

(٥)

هذا، ويُقال ليوم القيامة (يوم الجمع)؛ لأنّ الناس يجتمعون في ذلك اليوم من أجل الحساب، وبما أنّهم بعد أن يجتمعوا يُفصلون عن بعضهم البعض؛ لذا يُقال له: (يوم الفصل)، وقد ذكر كلا التعبيرين (الفصل) و(الجمع) في إحدى آيات سورة المرسلات، وهو قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾^(١).

وقد عبّر بالفصل في هذه الآيات إمّا باعتبار انفصال الحسن عن السيئ في هذا اليوم، وإمّا بسبب انفصال المنافقين عن المؤمنين فيه، مع أنّهم لم يكونوا يتميّزون في الدنيا، أو بلحاظ انفصال الإنسان عن رُقيّه وتكامله المعنوي.

هـ) يوم الخلود

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾^(٢).

إنّ دوام يوم القيامة وخلوده يُمكن أن يكون مُقلقاً جداً بالنسبة للإنسان، لا سيّما مع احتمال العقوبة^(٣).

و) يوم الحسرة

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

إذا خسر الإنسان رأس ماله في الدنيا فإننا نجده يتحسّر، في حين أنّه يستطيع أن

(١) المرسلات: آية ٣٨.

(٢) ق: آية ٣٤.

(٣) المستفاد الآية وسياقها أنّ الخطاب فيها للمؤمنين، حيث يُبشرون بدخول الجنة ودوام نعيمها وخلودهم فيها، ولم يكن خطاباً للكافرين، وقد ذكر بعض المفسرين أنّ الوجه في وصف يوم القيامة بالخلود هو لكونه يوم تقدير الخلود والإقامة الدائمة في النعيم الدائم. أنظر: الزنجشيري، جار الله، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل: ج ٤، ص ٣٩٠. (خ).

(٤) مريم: آية ٣٩.

يُعَوِّضُ ما خسره لاحقاً، ولكنه سيُدرِك في القيامة أَنَّهُ خسر رأس مالٍ ثمينٍ جداً ومن نوعٍ آخر، ولا يُمكنه أن يُعَوِّضه ولا أن يُرجعه، هذا مع أَنَّهُ بحاجةٌ شديدةٍ إليه؛ لذا فهو يتحسّر على هذه الخسارة حسرةً لا تُوصف. وعلى هذا الأساس؛ ورد في الرواية أَنَّ بعض أهل النار يشكون إلى الله بهذا النحو: نحن نستطيع أن نتحمّل عذابك في جهنّم، ولكنّ الآهات التي يُطلقها هذا الجهنميّ بجانبنا قويّةٌ إلى درجة أَنّها أنهكت طاقتنا.

ز) يوم النداء

﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾^(١).

(النداء) يعني طلب الشخص بالصوت من بعيد، ويظنّ الناس يوم القيامة بأنّهم يستطيعون أن يستنهضوا الآخرين لمساعدتهم من خلال النداء والصياح.

ح) يوم التغابن

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ...﴾^(٢).

(التغابن) معناه الخسارة والندم، وبما أن الإنسان لم يحضر في عرصات القيامة ولم يُدرِك فقره، فلا يُمكنه أن يُدرِك واقعيّة الضرر والخسارة التي ارتكبتها في الدنيا، بحيث أعدمت ما لديه من رأس مالٍ ثمينٍ، فيوم القيامة ستتجسّد هذه الخسارة ويُصبح لها عينيّة، وسيدرِك الناس ذلك.

ط) يوم الحساب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٣).

(١) غافر: آية ٣٢.

(٢) التغابن: آية ٩.

(٣) ص: آية ٢٦.

ي) فقدان الصداقات والعلاقات في ذلك اليوم

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾^(١).

ك) يوم فرار الأقرباء من بعضهم

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^(٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٢٥) وَصَخِيْبِهِ وَبَنِيهِ^(٢٦) لِكُلِّ أُمْرٍي مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٢).

هذا، ويعمد القرآن من خلال ذكره لأسماء يوم القيامة وتعدادها إلى بيان ضرورة إصلاح أخلاق البشر، وتحذيرهم فيما يتعلق بهذا الأمر. وقد سعى في آيات المعاد إلى إيقاظ الناس وتعريفهم بتكليفهم الأخلاقي والعملي عبر ستة طرق؛ ومن هنا فإن أحد أسس الأخلاق الإسلامية في القرآن هو الآيات التي تتعلق بالمعاد، فالقرآن جعل هذا الموضوع - وبأشكالٍ مختلفة - قاعدةً لإيجاد الدوافع الأخلاقية عند الناس.

(١) البقرة: آية ٢٥٤.

(٢) عبس: الآية ٣٤ - ٣٧.

الفصل الثالث

أصالة الروح في قبال البدن

إنّ المحور الذي يدور حوله البحث في علم الأخلاق الإسلامي هو النفس وحالاتها، وسنسير في هذا القسم عبر ثلاث مراحل: معرفة النفس وإثبات تجرّدها، وأصالة الروح في قبال البدن، ورؤية القرآن لمكانة الروح، ولكن في البداية لا بدّ لنا من بيان ضرورة معرفة النفس.

ضرورة معرفة النفس في مجال الأخلاق

إنّ كلاً من الفضائل والسجايا الأخلاقيّة، وكذا الرذائل والقبائح، من أحوال نفس الإنسان، ولذا فإنّ اكتساب الفضائل ورفع الرذائل يستلزم معرفة الموضوع وما يتعلّق به، وهو النفس، ولذا قيل: ليس للإنسان سبيلٌ أقرب من نفسه للوصول إلى المقامات المعنويّة، فلماذا يبحث عن الله من طريق البحر والصحراء والسماء والأرض؟ لماذا لا يجعل (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) معياراً له في العمل؟ هو بنفسه يُمثّل أعجب كتابٍ إلهيّ، فلماذا لا يبدأ بنفسه؟ ولماذا لا يتصفّح كتاب وجوده ويفهمه؟ ولماذا لا يقرأ كلمات وجوده بنحوٍ صحيحٍ وبالتالي يصل إلى أسرار هذه الكلمات؟ نعم، إنّ أعلى درجة للاستعداد النفسيّ للإنسان هي أن يمتلك عقلاً مُقدّساً وأن يقرأ كتاب وجود نفسه بنحوٍ صحيحٍ، وفي هذه الحالة سوف يقرأ كلّ شيء من باطن نفسه، وسيُصبح (كَأَنَّهُ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ نَفْسِهِ) بدون حاجةٍ

إلى الحواس وآلات البدن، فيدرك الأشياء ويرى في نفسه حالة عدم الاحتياج إلى أي شيء^(١).

بناءً على هذا؛ فإن معرفة روح الإنسان التي هي نفس الاطلاع على حقيقة النفس الناطقة، أهم من كل علم ومعرفة؛ لأنها معرفة لأنفسنا ومعرفة بالآخرين، فمسير جميع المعارف يعبر من خلال نفس الإنسان، والشخص الذي لا يتعرف على نفسه، فما فائدة معرفته بالآخرين؟ وقد قال سماحة الأستاذ الشيخ حسن زاده الآملي حول هذا الأمر ما يلي: إن معرفة النفس الناطقة الإنسانية هي قطب قاطبة المعارف الذوقية، ومحور جميع مسائل العلوم العقلية والنقلية وأساس جميع الخيرات والسعادات، وبيان المولى أمير المؤمنين عليه السلام: «مَعْرِفَةُ النَّفْسِ أَنْفَعُ الْمَعَارِفِ»، إن معرفة النفس هي نفس علم النفس والمعرفة بالذات التي هي أقرب الطرق إلى ما وراء الطبيعة، والصراط المستقيم لمعرفة الله، إن الإنسان أعظم جدول من بحر الوجود وأجمع دفتر غيب وشهود، وأكمل مظهر لواجب الوجود، ولو أن هذا الجدول تم تصفيته وتنقيته بنحو صحيح، فسوف يكون مجرى ماء الحياة ومجلى للذات والصفات^(٢).

معرفة النفس الناطقة

إن الحديث المعروف الذي يقول: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ». يجعل معرفة النفس ملازمة لمعرفة الله، وقد كتب الشيخ البهائي - رضوان الله عليه - في شرح الحديث الأربعين من كتابه (الأربعون حديثاً) ما يلي: «وقد تحير العقلاء في حقيقتها،

(١) أنظر: عابدي، أحمد، دامن فكر بلند [=نطاق التفكير الراقى]، مجله حوزة [=مجلة الحوزة]:

العدد ٥٣، ص ١٦٤.

(٢) أنظر: حسن زاده الآملي، حسن، معرفت نفس [=معرفة النفس]: الدفتر الأول، ص ١.

واعترف كثيرٌ منهم بالعجز عن معرفتها، حتّى قال بعض الأعلام: إنّ قول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» معناه أنّه كما لا يمكن التوصل إلى معرفة النفس لا يمكن التوصل إلى معرفة الرب»^(١).

رغم أنّنا قد لا نتفق مع الشيخ البهائي في هذا الكلام، ولكن على الأقلّ هذه الرواية تدلّ على صعوبة هاتين المعرفتين (معرفة الله ومعرفة النفس)، وقبل أن نقوم بتعريف بعض خصائص النفس وبيانها، سنتعرّض للمشاكل التي تعترض الإنسان في معرفة النفس وخصائص الروح وسعة نطاق نشاطاتها.

لقد بحث سماحة الأستاذ الشيخ أحمد عابدي - في مقالة (دامن فكر بلند) [=نطاق التفكير الراقي] في مجلّة الحوزة - حول النفس بحثاً علمياً راقياً، وذكر ثلاثة عوامل تُسبّب صعوبة هذه المعرفة، وهي:

«١. عدم وجود تعريف دقيق وحدّ واضح لنفس الإنسان، فالتعريف الحدّي والتحديد الجوهرى لنفس الإنسان عملٌ صعبٌ جدّاً؛ لأنّه ليس للنفس مقامٌ واحدٌ وتجردٌ واحدٌ، بل لديها أكثر من مقامٍ للتجرد» مثل: التجرد البرزخي والتجرد العقلي، بل لديها مرتبةٌ فوق التجرد.

٢. خفاء معنى التجرد، فنفس الإنسان مجرّدة، والأمر المجرد يُعرّف في الكتب الفلسفيّة بأمورٍ سلبيةٍ وعدميّةٍ، إلّا أنّ حذف بعض صفات المادّة المحسوسة، لا يدلّ الإنسان على جوابٍ واضحٍ لمعاني المجردات، فالمادّة والمجرد عبارة عن نحوين ونشأتين من الوجود، وسلب خواص إحدهما لا يُمكنه أن يُعطي بياناً كاملاً لكنّه حقيقة الآخر. نعم، لا يُمكن تجاهل هذه التعاريف السلبية تماماً؛ لأنّه حينها يُقال: مكتبة آية الله النجفي المرعشي عليه السلام، تقع قبل مرقد السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام، فعلى الرغم من أنّ

(١) البهائي، محمّد بن الحسين، الأربعون حديثاً: [ص ٥٠٠].

هذا التعريف سلبي وقد يقول قائل: بما أنّ أصفهان أو شیراز يقعان قبل مرقد السيدة أيضاً، لذا فهذا التعريف لم يوضح شيئاً، ولكن في الوقت نفسه، يستطيع الفرد أن يصل إلى شيء من خلال هذا التعريف السلبي، حتّى لو لم يصل إلى كونه القضية، إلّا أنّه يفهم منه بأن المكتبة قريبة من المرقد ببضعة مئات الأمتار.

٣. تمتلك النفس ظلاً من الصفات الإلهية، وذلك ببيان: إنّهُ طبقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(١)، وبالالتفات إلى أنّ نفس الحقّ تعالى غير مُستثنى من هذه القاعدة، فلا بدّ من وجود رشحة وظلّ من الصفات الإلهية في نفس الإنسان؛ وعليه فكلّ إنسان يمتلك ظلاً من الصفات الإلهية في نفسه، ولكن بما أنّ الإنسان غالباً لا يكون له (قدم صدق) في معرفة الصفات الإلهية، لذا يصعب عليه معرفة نفسه أيضاً^(٢).

وبالنظر إلى المصاعب الموجودة في تعريف النفس تعريفاً حقيقياً، فلا يُمكن أن نُعرّفها تعريفاً جامعاً مانعاً وبصورة واضحة، ولكن يُمكن لنا أن نصل إلى مقدارٍ من هذه الحقيقة العظيمة ومقدارٍ من معرفتها، وذلك من خلال بيان بعض الخصوصيّات التي تُشاهد في نفس الإنسان وروحه. وقد قام بعض الفلاسفة الكبار من قبيل ابن سينا وصدر المتأهّلين بذكر عددٍ من خواصّ النفس، ونحن بدورنا سنذكر بعض الخواصّ التي تمّ تنظيمها وترتيبها في الكتاب القيم (عيون مسائل النفس):

١. من خواصّ الروح ونفس الإنسان النطق؛ وذلك لأنّ الإنسان مدنيّ بالطبع فيحتاج إلى أن يُعلّم غيره بما في نفسه، وغير النطق لا يفي بذلك؛ بالتالي فوجه تسمية النفس الإنسانيّة بـ(النفس الناطقة) هو أنّ النطق وسيلةٌ للتعليم والتعلّم وإظهار ما في الضمير، وأهمّ مظهرٍ للإدراكات الكلّية.

(١) الإسراء: آية ٨٤.

(٢) عابدي، أحمد، دامن فكر بلند [=نطاق التفكير الراقي]، مجله حوزة [=مجلة الحوزة]: العدد ٥٣،

٢. ومن خواص النفس الأدمية أنّ الإنسان يقوم بمقدّماتٍ عديدةٍ بشكلٍ متتابع للوصول إلى منفعه الشخصية، فرغم أنّ بعض الحيوانات مثل النحل يقوم ببناء البيوت ويصنع مادّةً مهمّةً، ولكن الغاية من عمله هو منافع الآخرين، بخلاف الإنسان فإنّ جميع مقاصده ترجع فائدتها إلى ذاته. [وقد جاء في الشعر الفارسي ما مضمونه: هل ما تعلّمته دودة القزّ، تعلّمته من عند نفسها؟ والإنسان الأرضيّ إنّما علّمه الله، فصار بعلمه يستطيع الارتقاء إلى السماء السابعة]^(١).

٣. ومن الخواص أيضاً أنّه يتبع إدراك الإنسان للأشياء النادرة انفعالاً يُسمّى التعجّب ويتبعه الضحك، ويتبع إدراكه للأشياء المؤذية انفعالاً اسمه البكاء.

٤. حينما يقوم الإنسان بعملٍ قبيح، فإنّه يشعر بالخجل.

٥. من مختصّات الإنسان أنّه يعرض له الخوف بسبب ظنّه أنّ أمراً ما سيضرّه في المستقبل، وكذلك تفاؤله بالمستقبل، وهذان الأمران [الخوف والتفاؤل] يؤثّران في حياة الإنسان بشكلٍ هامّ، خلافاً للحيوانات التي تتأثر بوضعها الآني فقط، وأمّا عمل النمل فهو ضربٌ من الإلهام، وتعتبره مسؤوليّة الآيّة.

٦. يفكر الإنسان ويتأمل في ما يريد أن يقوم به من أفعال، ثمّ يفعل ما يرى فيه مصلحته، وأمّا الحيوانات فليس لها ذلك، بل هي تحت الهداية التكوينية.

٧. إن الإنسان يتذكّر الأمور الغائبة عن ذهنه، أمّا سائر الحيوانات فليس لها القدرة على الاسترجاع والتذكّر.

٨. من أهمّ خصوصيّات النفس الإنسانيّة استنباط المعاني الكلّية المجردة تماماً

(١) آنچه حق آموخت کرم پيله را هیچ پيلي داند آن گونه حيله را
آدم خاکی ز حق آموخت علم تا به هفتم آسمان فروخت علم

عن المادّة من الأمور الجزئية المتعدّدة، والتوصّل من هذا الطريق إلى معرفة المجهولات تصديقاً وتصوّراً.

٩. أحد الخصوصيّات المهمّة جدّاً للنفس، هي أنّ لديها الاستعداد لأن تتّصل بالعالم الإلهي وتفنى فيه، بحيث إنّها تنسى حتّى ذاتها.

١٠. إنّ النفس الإنسانيّة ليس لها حدٌّ تقف عنده في تكاملها، فالإنسان ليس له حدٌّ يتوقّف عنده في تكامله، ويُعبّر عن هذه الخاصيّة بأنّ للنفس مقاماً فوق التجرّد العقلي. كما أنّ الخصوصيّتين التاسعة والعاشرة لم تُذكرا إلّا في [كتاب] الأسفار لصدر المتألّهين الشيرازي^(١).

وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: إذا كانت النفس الناطقة هي المسؤولة عن الإدراك والتعقّل، فهل تعمل تحت تأثير العوامل الخارجيّة؟ وهل مدركاتها خارجة عن وجودها، أو أنّ المدرك والإدراك والمدرك يقعون جميعاً داخل الروح والنفس الناطقة؟

إنّ التدقيق في حقيقة النفس الناطقة - التي هي نفسها الروح والنفس - يُبيّن سعة النفس الإنسانيّة وقدرتها على أن تستوعب كلّ الأركان الثلاثة، وأن يأخذ كلّ واحدٍ مكانه في نطاق عملها ونشاطها. فالمحسوسات تُدرك بواسطة الحواسّ، ويتمّ التعرّف عليها من خلال ذلك، ولكن هل تُدرك القوّة اللامسة نفسها، وهل تطلّع على نفسها؟ وكذلك هل تُدرك العين وتُبصر نفسها؟ كما أنّ نفس السؤال يُطرح بالنسبة إلى كلّ واحدةٍ من القوى الجسمانيّة، وفي مقام الجواب نقول: إنّنا لن نشكّ ولن نرتاب في عدم إدراك المذكورات لذواتها.

وفي المقابل، فإنّ النفس الناطقة ليست كذلك، بل هي في جميع الأحوال عالمةٌ بنفسها وعاقلةٌ بها؛ فبما أنّها عالمةٌ بنفسها، يكون معلومها ومعقولها هو نفس ذاتها،

(١) أنظر: حسن زاده الآملي، حسن، عيون مسائل النفس وشرح العيون في شرح العيون: ص ٦٢٢.

أي: إنّ ذاتها منكشفةٌ لذاتها، وهي مطلّعةٌ على نفسها، وبما أنّ العلم هو انكشافٌ ومعرفةٌ وظهورٌ؛ إذاً فالنفس الناطقة هي عِلْمٌ وعالمةٌ ومعلومةٌ، يعني: هناك اتّحادٌ بين العقل والعاقل والمعقول؛ وبالتالي فهناك حقيقةٌ واحدةٌ هي عِلْمٌ وهي كذلك عالمٌ ومعلومٌ، ومن الواضح أنّ العلم والإدراك لهما معنىً واحدٌ، إذاً هناك اتّحادٌ بين الإدراك والمُدرك والمُدرك، فهي حقيقةٌ واحدةٌ، لكن تتعدّد أسماؤها باختلاف العناوين والاعتبارات^(١).

إثبات تجرّد الروح

بالالتفات إلى الأمور السابقة، أصبح من الواضح أنّ إدراك حقيقة الروح من خلال الأدوات المادّية غير ممكّن، وإنّما يُمكننا أن ندركها من خلال الاستدلالات العقلية وعن طريق ظهور الآثار المختصّة بالروح، والتي ندركها ويمكننا من خلالها الوصول إلى كشف الحقيقة؛ فبالنتالي يثبت لنا - في نهاية المطاف - تجرّد الروح. والمراد من تجرّد النفس (هو أنّها ليست موجوداً مادّياً يقبل الانقسام، ولا تتقيّد بالزمان والمكان).

هذا، وقد قدّم الخواجه نصير الدين الطوسي عدداً من الأدلّة في (إثبات تجرّد الروح)، وهنا سنقوم بعرض دليلين من أدلّته مع توضيحهما، وبالإضافة إلى ذلك سنقدّم أدلّةً أخرى في إثبات تجرّد الروح أيضاً:

١. قوّة الروح وضعف الجسد

يقول الخواجه نصير الدين الطوسي: «كيف لا [تكون مجرّدة] وجميع القوى

(١) أنظر: حسن زاده الأملي، حسن، معرفت نفس [=معرفة النفس]: الدفتر الثاني، ص ١٨١ (نقل ملخصاً).

الجسمانية كالحواس الظاهرة والباطنة وغيرها تضعف بعد سن الوقوف، بينما هي تقوى، إذ يصير تعقلها أدق وأتم وأكمل». وقد ذكر أحد المحققين^(١) في مقام التعليق على كلام الخواجه نصير الدين ما يلي: «إن النظرية الحديثة تقول: إن القوة غير منفصلة عن المادة، وهي كامنة في ذرات المادة تتبع في نشاطها وضعفها انحلال المادة وانتشار ذراتها، فكلما فقدت المادة من ذراتها تفقد بمقدارها من قوتها الكامنة»^(٢).

ويمكن أن نذكر توضيحاً في مقام نقد ما جاء في العبارة أعلاه، فنقول: لو كانت حقيقة الروح متحدة ومتصلة مع ذرات المادة كما يقول به المادي لكان من المفترض أن تضعف (النفس الناطقة) بنفس المقدار الذي تضعف فيه هذه المادة وذراتها المادية، في حين أننا نرى بأنها في مرحلة الكهولة تصل إلى أقصى درجات الكمال من ناحية الفهم والإدراك والتعقل خلافاً لما كان يحصل معها في مرحلة الشباب، حيث تكون القدرات الجسدية في أوجها بينما تكون قدرات الإدراك والتعقل ليست بنفس الكمال الذي تكون عليه في الكهولة.

٢. عدم قابلية الحقائق البسيطة للانقسام

الدليل الآخر الذي يطرحه الخواجه نصير الدين لإثبات تجرد النفس هو التالي: «وأيضاً، ترسم في النفس المعقولات الوجدانية التي لا تقبل الانقسام بوجه كالحدة، وبالتالي فكل محل لارتسام مثل ذلك فهو غير قابل للقسمة الوضعية، وإلا لانقسم المعقول الذي ارتسم فيه بانقسامه. وبما أننا نعلم بأن الجسم هو الذي يكون قابلاً للقسمة الوضعية؛ فالنتيجة أن النفس ليست بجسم ولا بقوة حالة في الجسم بالحلول

(١) [وهو العلامة أبو عبد الله الزنجاني]. (م)

(٢) [الطوسي، الخواجه نصير الدين محمد، رسالة بقاء النفس بعد فناء الجسد: ص ٣٩]. (م)

السَّرياني^(١).

٣. انتزاع الكلّيات من الجزئيات

إنّ الإنسان يُصادف في العالم الخارجي العديد من الجزئيات في المجالات المختلفة، وإذا كان انتقال جميع هذه الجزئيات إلى قوّته الإدراكية والباطنية مبنياً على أساس التحليل المادّي، فلا يكون بإمكانه أبداً أن ينتزع أمراً جامعاً من مجموع تلك الأجزاء. ومن هنا؛ فإنّ الكلّيات المنتزعة ليست أمراً مادّياً قطعاً، فالكلّيات التي هي سلسلة من الواقعيّات، أعلى من المادّة ومن الزمان والمكان، وهي ثابتة ودائمة وغير متغيّرة، ونحن نجد أنّ الإنسان يُنفذ خطّته وبرامجه بناءً على هذه المعلومات الكلّية، ولذا قيل: إنّ الإدراكات المختلفة الموجودة في الإنسان، بما هي مجموعة من الآثار الوجوديّة للإنسان لا تقبل التفسير من خلال الموازين المادّيّة ومن خلال اختصار الإنسان في التركيب المادّي وحسب، بل هي تحكي عن وجود حقيقة أخرى غير هذا التركيب المادّي الظاهري، وهذه الإدراكات هي من الآثار الوجوديّة لتلك الحقيقة التي نسمّيها الروح المجردة^(٢).

٤. النفس تُدرك ذاتها

الدليل الآخر على تجرّد الروح عن المادّة هو أنّه يُمكن فرض حالة لا يلتفت فيها الإنسان إلى أيّ أمرٍ آخر غير نفسه، وأنّ يغفل عن بُعد المادّي تماماً، فلو لم تكن الروح مجرّدة؛ لما كان بالإمكان انفكاكها في هذه الحالة عن الجسم؛ ومن هنا قيل: إذا كان الإنسان في بيئة لا تجذب التفاتّه فيها الأشياء الخارجيّة، ووضع البدني لم يكن

(١) المصدر السابق: ص ٤٠.

(٢) أنظر: شجاع، محمد، معاد بازگشت به سوى خدا [= المعاد عودة نحو الله]: ج ١، ص ١٨٨.

بشكلٍ يؤدي إلى التفاتِه نحو بدنه، أي: إنَّه لا يعذِّبه الجوع أو العطش أو الإحساس بالبرد أو الحرَّ أو الألم أو أيَّ شيءٍ مزعجٍ آخر، وحتىَّ الهواء لا بدَّ أن يكون هادئاً تماماً بحيث لا يجذب انتباهه هبوبُ النسيم، وبحسب قول ابن سينا لا بدَّ أن يكون الهواء طليقاً، ففي مثل هذه الظروف إذا ركَّز انتباهه في ذاته، أي: في ذلك (الأنَّا المدرك) بصورة لا يلتفتُ فيها إلى أيِّ شأنٍ من شؤونه البدنيَّة، فإنَّه سوف يُدرك نفسه، بينما هو لا يُدرك أيَّ عضوٍ من أعضاء بدنه، ومن الواضح أنَّ ما يجده من خلال الإدراك غير الشيء الذي لا يجده، إذن النفس غير البدن المادِّي^(١).

وبناءً على هذا؛ فنفس الإنسان مجرَّدة، وهي موجودٌ وراء البدن، ولها أحكامٌ مختلفةٌ عن أحكام البدن، وأساساً كلُّ مُركَّبٍ جسمانيٍّ يحتاجُ إلى موجودٍ غير مادِّيٍّ لا طول له ولا عرض ولا يُوجد في حيِّز داخل البدن، بل يجب أن يكون مُرتبطاً بالبدن ومتعلِّقاً به، وتعبير العلامة الطباطبائي: متَّحدٌ معها، وبواسطة الشعور والإرادة وسائر الصفات الإدراكيَّة يُدير البدن. وأمر الله - ومنه الروح - شيءٌ غيرُ جسمانيٍّ ولا مادِّيٍّ؛ لأنَّه لو كان كذلك فلا بدَّ أن يكون محكوماً بالأحكام العامَّة للموجودات المادِّيَّة الجسمانيَّة، والتي منها أنَّها تدرجيَّة الوجود، مُقيَّدة بالزمان والمكان، وبالتالي فالروح التي للإنسان ليست بمادِّيَّة جسمانيَّة، وإن كان لها تعلقٌ بها... [وقبل هذا التعلُّق والارتباط، فد] الإنسان لم يكن إلَّا جسماً طبعياً تتوارد عليه صورٌ مختلفةٌ مُتبدِّلة، ثمَّ أنشأ الله هذا - الذي هو جسمٌ جامدٌ خامدٌ - خلقاً آخر ذا شعورٍ وإرادة، يفعل أفعالاً من الشعور والإرادة والفكر والتصرُّف في الأكوان، والتدبير في أمور العالم بالنقل والتبديل والتحويل إلى غير ذلك ممَّا لا يصدر عن الأجسام والجسمانيَّات، فلا هي جسمانيَّة، ولا موضوعها الفاعل لها^(٢).

(١) أنظر: مصباح اليزدي، محمَّد تقي، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: ج ٢، ص ١٧٦.

(٢) أنظر: الطباطبائي، محمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٣٥١.

٥. كلما تحمّلت الروح أكثر ازدادت قوة

يقول العلامة حسن زادة الآملي في إثبات تجرّد النفس بعد بحث معرفة النفس من كتاب تهذيب الأخلاق وطهارة الأعراق لابن مسكويه، ما يلي: إنّ البدن يتعب من حمل المتاع التي هي أثقالٌ جسمانيّةٌ، وكلّما كان الحمل أكثر، صار ضعفه وفتوره وتعبه أكثر، وبالعكس فإنّ تلك الحقيقة التي اسمها الروح نجد أنّها كلّما كان الحمل أكبر، والذي هو عبارة عن العلوم والمعارف، صارت قوّتها أكبر؛ إذاً هذه الحقيقة تختلف عن البدن^(١).

أصالة الروح مقابل البدن

يُعرّف الإنسان دائماً بأنّه مُركّبٌ من روح وبدنٍ؛ ولكن لا ينبغي لهذا التركيب أن يُوجد هذه الشبهة وهي أنّ الإنسان مُتشكّلٌ من قسمين، بل الإنسان موجودٌ متشخصٌ وممتدٌّ من مرتبة النفس إلى مرحلة البدن، فرغم أنّه يمتلك مرتبتين من الوجود: البدن وهو الموجود المادّي ذو الخصائص المختصّة به، والروح وهي الموجود المجرّد، ولكنّ توضيح هذه النقطة هنا ضروريٌّ، وهي أنّه كيف يكون البدن والروح في امتدادٍ واقعيّةٍ واحدةٍ وأمرٍ مُشخصٍ واحدٍ؟ في مقام الجواب نقول: بأنّه مع الالتفات إلى أصل (التشكيك في الوجود) المُسلم في الفلسفة الإسلاميّة، يُمكن القول: بأنّ الإنسان هو موجودٌ واحدٌ والجسم لا يستقلّ عن الروح، وفي نفس الوقت يمتلك مرتبتين إحداهما عالية والأخرى ضعيفة؛ أي: إنّ الروح هي المرتبة العالية لوجود الإنسان وبدنه، والبدن هو المرتبة والدرجة الضعيفة من الروح، وبعبارةٍ أخرى: أنّ الصورة المجرّدة للبدن هي الروح، كما أنّ صورة تجسّد الروح وتجسّمه هي البدن.

(١) أنظر: حسن زاده الآملي، حسن، معرفت نفس [=معرفة النفس]: الدفتر الثاني، ص ١٩٢.

نستنتج من المباحث السابقة أنّ للإنسان حقيقةً قيّمةً جداً اسمها (الروح أو النفس)، وله هيكل اسمه البدن، وفي عين امتلاكه لهذين الأمرين، فهو يملك هويّةً واحدةً، ولذا ننسب جميع الأشياء إلى هويّةٍ وواقعيّةٍ واحدةٍ، ونُعبر عن ذلك الشخص بقولنا: (أنا)، كما نقول: (بدني)، وبعبارةٍ أخرى: نحن ننسب جميع الأعضاء والجوارح وجميع النشاطات وحتى جميع البدن سواءً في اليقظة أم في النوم إلى تلك الهوية وذلك الشخص، فهذا الإنسان صاحب النفس والبدن عبارةً عن إنسانٍ واحدٍ، وتركيب هذين الأمرين مع بعضهما البعض من قبيل انضمام الطيّار إلى الطائفة وتحريكها بحيث يتحدان سوياً حتى يُصبح لهما هويّةً واحدةً وشخصيّةً واحدةً.

ومع هذه التوضيحات، فإذا اعتبر شخصٌ أنّ الإنسان لا يُمثّل موجوداً واحداً ممتدّاً من مرتبة نفسه إلى مرحلة بدنه، فعليه أن يعترف على الأقلّ بأنّ للروح أصالةً مقابل البدن، وأنّ تكامل البدن ونموّه من البداية وحتى النهاية والحفاظ عليه، إنّما يتمّ من خلال الروح المجردة؛ وأنّ فترة الأشهر الأربعة الأولى للجنين في رحم الأم هي الفترة الوحيدة التي لا يكون للإنسان فيها نفسٌ وروحٌ مستقلّة، ومع ذلك يكون في سيره التكاملي الأوّل هذا تحت تأثير روح الأم، ومع ولوج الروح في الشهر الرابع تُصبح حركة هذا الطفل مستقلّة، ويبقى غذاؤه مستمداً من الأم، وبمجرد أن تُفارق هذه الروح البدن، فإنّ البدن الباقي يُصبح جماداً، وسوف يتلاشى بسرعةٍ ويتعفن، وهذا يُوضّح (أصالة الروح مقابل البدن).

هذا، وبما أنّ الروح مُجرّدة فهي إذن لا تُعدم بعد انفصالها عن البدن، بل تبقى إلى يوم القيامة، ثمّ يخلق الله لها بدنًا جسمانيًا، ويهيئ الروح لذلك البدن فتدخل فيه، ليقوم أمام ميزان العدل الإلهي على حدّ تعبير القرآن في قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(١).

(١) القيامة: آية ١. يقول عزّ وجلّ: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾^(٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ، ﴿يَلَقَّ قَدِيرِينَ عَلَّ أَنْ سُوءَ بَنَاتِهِ﴾. القيامة: آية ٢-٤. (خ).

نظرة القرآن إلى مقام الروح ومنزلتها

من وجهة نظر القرآن فإنَّ الإنسان عبارةٌ عن موجودٍ له بعدان: جسميٌّ وروحيٌّ، وسنذكر هنا مجموعتين من الآيات المتعلّقة بخلقة الإنسان وأبعاده الوجوديّة، ثم سنبيّن فيما بعد هذه المسألة؛ وهي: أنّه بناءً على الآيات القرآنيّة، أيّهما الأصيل: الروح أم البدن؟

بيان القرآن لكيفيّة خلق جسم الإنسان

تتعرّض العديد من الآيات للبُعد المادّي للإنسان ومراحل تكوينه، وكمثالٍ على ذلك نذكر موردين:

١. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ۝١٤﴾.

٢. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا...﴾^(١).

تُشير الآية الثانية إلى خلق الإنسان، حيث ابتدأ الله خلقه من ترابٍ وهو المبدأ البعيد الذي تنتهي إليه الخلقة، ثم من نطفةٍ وهي المبدأ القريب الذي تتعلّق به الخلقة^(٢).

بيان القرآن لكيفيّة إيجاد الروح

كما بيّنا سابقاً، فإنَّ أحد الأبعاد المهمّة لوجود الإنسان هي جنبته الروحيّة والنفسيّة، وروح الإنسان المجرّدة ترتبط بالمادّة خلافاً لسائر الموجودات المجرّدة

(١) المؤمنون: آية ١٢ - ١٤.

(٢) فاطر: آية ١١.

(٣) أنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٧، ص ٢٥.

الأخرى، ورقّيتها أو تسافلها يحصل بسبب هذه العلاقة بالبدن، يقول الله عز وجلّ حول ارتباط روح الإنسان ببدنه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١). ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

هل الأصالة لروح الإنسان أم لبدنه؟

إنّ الآيات السابقة تُبيّن أنّ الإنسان مُركّب من البدن المادّي والروح المجرّدة، ولكن ينبغي أن نسأل هذا السؤال فيما يتعلّق بهذا التركيب ذي البعدين للإنسان: هل الأصالة في هذا التركيب للروح أم للبدن؟ ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بالاستعانة بالآيات القرآنيّة من جهاتٍ متعدّدة، فعلى سبيل المثال: ينقل القرآن في مواطن متعدّدة كلام الكفّار الذين يدّعون أنّ الإنسان بعد الموت سوف ينعدم، ولن يبقى منه أيّ شيءٍ بانعدام بدنه المادّي ووضعه تحت التراب، بحيث إنّ عقيدة الكفّار هذه مبنية على اتّجاه يذهب إلى مادّيّة الإنسان، لكنّ القرآن - في المقابل - يسعى في عددٍ من الآيات لردّ هذه العقيدة، من خلال طرح الرؤية الصحيحة فيما يتعلّق بحقيقة الإنسان الوجوديّة، والعمل على تفنيد عقيدة الكفّار من الأساس، كما يسعى كذلك إلى لفت نظرهم للجنة الروحيّة التي هي الأصالة الوجوديّة للإنسان، وإلى الوصول إلى هذه النتيجة، وهي أنّه مع موت الإنسان تبقى روحه غير الماديّة في يد الملائكة، وليس هناك من معنى لانعدامها، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾^(٣) قُلْ يَتُوبُ لَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي

(١) المؤمنون: آية ١٤.

(٢) السجدة: آية ٩.

(٣) السجدة: آية ١٠-١١.

ولكي نفهم هذه الآية لا بدّ من شرح معنى كلمة (التوفي)، والتي تعني أخذ الشيء أخذاً تاماً^(١). كالإنسان الذي يستوفي دينه ويأخذه كاملاً من الشخص المدين، وبالتالي فإنّ ما يأخذه ملائكة الموت من الإنسان عند الموت هو (الروح)، وأمّا الشيء الذي يتلاشى في القبر، ويتحوّل إلى رمادٍ فهو البدن وليس نفس الإنسان، فقد ذكر العلامة الطباطبائي بهذا الصدد ما يلي: «لكنّه تعالى أمرَ رسوله أن يُجيب عن حجتهم [أي: الكفار] المبنية على الاستبعاد بأنّ حقيقة الموت ليس بظلالاً لكم وضلالاً منكم في الأرض، بل ملك الموت الموكّل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم، أي: ينزع أرواحكم من أبدانكم، بمعنى قطع علاقتها مع الأبدان، وأرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم - أي: ما يعني بلفظة (كُم) - محفوظون لا يظّل منكم شيءٌ في الأرض، وإنّما تظّل الأبدان وتتغيّر من حالٍ إلى حالٍ، وقد كانت في معرض التغيّر من أوّل كينونتها... فإنّ حقيقة الإنسان هي نفسه التي يحكي عنها بقوله: (أنا)، وهي غير البدن، والبدن تابعٌ لها»^(٢).

وبناءً على هذا؛ فمن وجهة نظر القرآن، في الوقت الذي يتركّب فيه الإنسان من البدن والروح، إلّا أنّ أصالة وجوده تعود للروح.

حقيقة الروح

يقول القرآن في بيانه لأهميّة الروح: إنّ الملائكة إنّما أمروا أن يسجدوا لآدم بسبب حلول الروح في جسمه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾^(٣).

(١) أنظر: آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربى - فارسى [= القاموس المعاصر (عربي/ فارسي)]: ص ٧٦١.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٦، ص ٢٥٢.

(٣) الحجر: آية ٢٩.

والآن ما هي حقيقة هذه الروح التي لها كل هذه العظمة بحيث استوجبت أن يسجد الملائكة للإنسان؟ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

لا شك في أن أحد المصادر المهمة لمعرفة النفس هو الوحي الإلهي، وفي ظل ذلك سوف نتعرض لتحقيق هذا الموضوع من وجهة نظر القرآن الذي يُقسّم عالم الوجود إلى قسمين: أحدهما عالم الخلق، والآخر عالم الأمر، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

عالم الخلق وعالم الأمر

عالم الخلق مُركَّب من المادّة والزمان، وقد نشأ من الجمع بين هذين الأمرين، فإذا أراد موجودٌ ما أن يتكامل في هذا العالم، فلا بدّ أن تتوفر له الظروف المناسبة لذلك، مثلاً: حبة القمح كما لها هو أن تُصبح سُنبلةً، ولكي تنال هذا الكمال تحتاج إلى عددٍ من الظروف، من قبيل: التربة الخصبة، والماء، والهواء وغير ذلك، وعندها ستوجد بالتدريج في عالم الخلقة المادّية.

وأما عالم الأمر، فليس فيه كل تلك العقبات التي في عالم الطبيعة، وليس فيه سبيلٌ للمادّة أو الزمان؛ ومن هنا فهذا العالم خالٍ من كل قيدٍ وحدٍّ موجودٍ في الطبيعة، وهو أساساً موجودٌ فوق عالم الطبيعة، وبالتالي فعالم الأمر يوجد دفعةً.

وموضوع بحثنا هو أنّ الله عزّ وجلّ يقول طبقاً للتعبير القرآني: إنّ الروح من عالم الأمر، وأنها قد جاءت من مصدر الفيض الإلهي، وهبطت إلى جسم الإنسان،

(١) الإسراء: آية ٨٥.

(٢) الأعراف: آية ٥٤.

وأنّ هذا التركيب هيّاً الأرضيّة لكسب أفضل الكمالات للإنسان، فمصدر وخزانة مشاهداتنا في هذا العالم التي لا نهاية لها - والتي هي من قبيل: الذكاء والعقل والعلم والقدرة والإرادة - كلّها من قبل الله تعالى، وبالتالي فعالم الأمر هو عالم الكمال، وعالم الخلق هو عالم النقص، وهناك حجابٌ مضروبٌ بين هذين العالمين، فالإنسان لا يستطيع مع إدراكه الناقص هذا أن يصل إلى ذلك الكلّ الكامل الموجود وراء المادّة، ولكنّ ذلك لا يعني أنّه ليس له أيّ نصيبٍ أصلاً، فهناك شعاعٌ من أنوار الرحمة والمعرفة الإلهيّة هو من نصيبنا؛ وهو الروح، فالإنسان يُمكنه أن يُقوّي هذا الإدراك الضعيف إلى درجةٍ يُشاهد معها الغيب، ويُمكنه أن يجعل روحه - التي هي قطرةٌ من عالم الأمر - بوّابةً مناسبةً جداً للوصول إلى هذا الكمالِ.

العلاقة بين أصالة الروح والأخلاق الإسلاميّة في القرآن

إنّ إمعان النظر في الآيات الأخلاقيّة في القرآن، يُبيّن لنا أنّه لا يُمكن تفسير هذه الآيات إذا لم نأخذ بعين الاعتبار واقعيّة الروح وخصوبيّاتها، فالمُخاطب في العديد من الآيات الواردة في المباحث الأخلاقيّة، هو مصدرٌ يتحلّى بقوة الإدراك والتدبّر والتفكّر، والقرآن يُعبّر عن هذه الحقيقة بالـنفس والقلب والفؤاد والصدر، وهذه الحقيقة نفس روح الإنسان، وقطعاً ليس المراد من هذه المفاهيم ذلك المعنى المادّي لأعضاء البدن، فعلى سبيل المثال ليس المراد من القلب ذلك العضو الصنوبري الشكل الموجود في الصدر؛ ولذا قيل: الروح في المصطلح القرآني حقيقةٌ مجرّدةٌ، ولكنّها تُسمّى (نفس) بلحاظ نسبتها إلى الجسد وارتباطها به، وذلك بلحاظ كونها تُحرّكه وتبعث فيه الحياة، ويرى البعض بأنّها تُطلق على الإنسان باعتباره موجوداً مُدركاً مُفكّراً. ولذا فإنّ نفس الإنسان مُتحقّقةٌ في النشأة الطبيعيّة، وهي نفس الوجود المرتبط بكلّ من الجسم والروح، فلا تُطلق كلمة (النفس) على الجسد

لوحده ولا على الروح لوحدها^(١). كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾^(٢).

كما أنه قد عبّر في أغلب الآيات عن (الروح) بـ(القلب)، من قبيل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣). ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

وبالالتفات إلى الآيات السابقة، فإنّ التعبير بـ(القلب) الذي ورد في العديد من الآيات الأخرى، هو عبارة عن الحقيقة التي هي محور المباحث الأخلاقية في القرآن؛ ولذا قيل: «(القلب) في المصطلح القرآني موجودٌ يتولّى مهمّة القيام بهذه الأعمال: الإدراك، والتدبّر، وتركيز المشاعر، واتخاذ القرار، والصدقة والعداوة... ويمكن الادّعاء بأنّ المراد من القلب هو الروح والنفس الإنسانية التي يمكن أن تكون منشأً لجميع الصفات السامية والخصائص الإنسانية، أو منشأً للانحطاط والرذائل الإنسانية، ويمكن ادّعاء هذه الحقيقة وهي عدم إمكان العثور على بُعد من أبعاد النفس الإنسانية، وصفة من الصفات، أو عمل من أعمال الروح الإنسانية آبٍ عن الإسناد إلى القلب»^(٥).

القوى الأربعة للروح

إنّ الآثار التي تُشاهدها في البدن، إنّما تنشأ من روح الإنسان، ومنذ زمن

(١) أنظر: فرهاديان، رضا، اصول ومباني تعليم وتربيت در قرآن: ص ٢٦. [تجدر الملاحظة إلى أنّ هذا الكتاب قد عُرّب وطُبِع تحت اسم: أسس التربية والتعليم في القرآن والحديث].

(٢) آل عمران: آية ٣٠.

(٣) الرعد: آية ٢٨.

(٤) القصص: آية ١٠.

(٥) مصباح اليزدي، محمد تقی، الأخلاق في القرآن: ج ١، ص ٢٤٠.

أرسطو وحتى الآن يقولون في علم الأخلاق: بأنّ للإنسان أربع قوى، وعادةً ما تُرتَّب وتُبوَّب الكتب الأخلاقية على هذا الأساس، فكما أنّ للجَمال الظاهري الذي يعتبر من أركان الإنسان مثل: العين والأذن والوجه، فكذلك للروح أيضاً قوى، وبدونها يكون هناك نقص، وقد عدّوا للروح أربع قوى، وهي عبارة عن: العقل والشهوة والغضب والوهم، وأمّا باقي القوى الإنسانية فهي متعلّقة بهذه القوى الأربعة بنحوٍ من الأنحاء، وسنعمد هنا إلى تعريف هذه القوى وبيان فائدتها وآثارها في بقاء الإنسان وحياته:

١. العقل

تعريف العقل

لقد فسّر العقل في المعاجم اللغوية بهذا النحو: «أنّه نورٌ روحانيٌّ به تدركُ النفس العلومَ الضروريّةَ والنظريّةَ، وابتداءً وجوده عند اجتنان الولد، ثمّ لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ»^(١).

ويتّضح من التعبير عن العقل بأنّه نورٌ في هذا التفسير اللغوي، أنّ العقل وسيلةٌ لتمييز وتشخيص الحسن من السيئ، والكمال من النقصان، وفصل الأحسن من الأمرين الحسنين، والأقبح من الأمرين القبيحين، وقد تمّ تفسير العقل في الكتب الأخلاقية بالنحو التالي: «شأن العقل إدراك الحقائق والتمييز بين الخير والشرّ، والأمر بالأفعال الجميلة والنهي عن الصفات المذمومة»^(٢). فإنّ الإنسان يزن كلّ فعلٍ قبل القيام به في عقله، وقيس المصالح والمفاسد المترتبة عليه، ثمّ في النهاية يُرجّح أحد الطرفين الذي يتميَّز بمزايا أكثر، ويقوم بالإتيان به.

(١) الفيروز آبادي، محمّد بن يعقوب، القاموس المحيط: ص ٩٣١.

(٢) النراقي، الملا أحمد، معراج السعادة: ص ٢١.

الحالات الثلاثة الممكنة للإدراك

إنَّ العقل وقوَّة الإدراك عند الإنسان مثلها مثل سائر قوى النفس الأخرى، فيمكن أن يكون لها إحدى الحالات الثلاثة: الاعتدال والإفراط والتفريط؛ ولذا يقول الملا صدرا فيما يتعلَّق باعتدال قوَّة التفكير ما يلي: «فاعتدالها وحسنها أن تصير بحيث تُدرك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين النافع والضارَّ في الآراء، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا انصلحت هذه القوَّة يحصل منها خُلق الحكمة، وهي رأس الفضائل الخُلُقِيَّة»^(١)، فالاعتدال في التفكير والإدراك هو أن يُفكِّر الإنسان ضمن الإطار المقبول من قبل الدين والعقل، وألَّا يعتبر نفسه مُطلق العنان بالنسبة للتفكير.

الإفراط في التفكير

إنَّ الإفراط في الفكر، يُسمَّى في علم الأخلاق بـ (الجربرة)، والمراد منها هو أن يعتمد الإنسان على قواه الفكرية فيُصبح مغروراً، وبالإضافة إلى اعتماده على مدركاته، فإنَّه يستخدمها في كلِّ ميدانٍ حتَّى لو لم يكن مهيناً، ولا يمتلك المعلومات الكافية لذلك، ومن الواضح أنَّ التناج الفكري للأفراد يكون مفيداً وذا قيمةٍ حينما يمتلكون المُقدِّمات والشروط اللازمة في ذلك المجال، وإلَّا من الممكن أن يُصابوا بالشكِّ فيما يتعلَّق بجميع الواقعيَّات الموجودة؛ ولهذا السبب يُقال عن الشكَّاكين: بأنَّ حيواناتهم تفهم أكثر ممَّا يفهمون؛ لأنَّ الحيوان حينما يصطدم بالجدار يتوقَّف، ويُقرَّر بوجود هذا المانع في طريقه، أمَّا السفسطائيون فيشكِّون بوجود هذا الجدار.

الجهل البسيط أو التفريط في العقل

إنَّ المراد من (الجهل البسيط) أو التفريط في الإدراك هو أن يكون الإنسان

(١) [صدر المتأهين الشيرازي، محمَّد، شرح أصول الكافي: ج ١، ص ٤٢١]. (م)

جاهلاً، وأن يكون عالماً بجهله، وهو في قبال (الجهل المركّب)، ففي الجهل المركّب ينضمّ جهلان إلى بعضهما البعض، الأوّل هو أصل الجهل، والثاني هو الجهل بأنّه جاهل، فالجهل البسيط هو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمةً. والجهل البسيط غير مذموم في البداية لتوقّف التعلّم عليه؛ لأنّه ما لم تعتقد النفس بجهلها بالمعارف لن تنهض لتحصيله، وأمّا الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة، وأمّا السبيل لإزالته فعده أمور، أولها أن يتذكّر كلّ ما يدلّ على قبح الجهل ونقصه عقلاً^(١).

ويُعبر عن الاعتدال في التفكير في الآثار الأخلاقيّة بعنوان (الحكمة)، وإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى الحكمة (العلم بحقائق الأشياء)، فسوف يحصل على العديد من الآثار الإيجابيّة في حياته، مثل: (حسن التدبير) و(حدّة الذهن) و(تميز الرأي والفكر الصائب)؛ فالعلم هو أعلى الفضائل والكمالات وأشرف الصفات، بل هو أعلى الصفات الربويّة وأجمل علامات الألوهيّة، فإنّ العلم يؤدّي إلى تقرب الإنسان إلى الله والملائكة المقربين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢). وبناءً على هذا؛ فأحد الرذائل التي تأتي بعد التفريط في العقل، هو ما يُسمّى في اصطلاح علم الأخلاق بـ(الخمود)، ويُعبر عنه في عرف الناس بـ(الحماقة).

٢. القوّة الغضبيّة

إنّ الغضب كلمة عربيّة، وقد عرّفها اللغويّين بهذا النحو: «الغضب، نقيض الرضا. غَضِبَ لَهُ: غَضِبَ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَجْلِهِ...»^(٣). وقد نقل ابن منظور في لسان العرب عن

(١) أنظر: النراقي، الملامهدي، جامع السعادات: ج ١، ص ١٠٨.

(٢) البقرة: آية ٢٦٩.

(٣) ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب: ج ١، ص ٦٤٨.

ابن عرفة أقسام الغضب، ووضّحها بالنحو التالي: «الغَضَبُ، من المخلوقين، شيءٌ يُدْخِلُ قُلُوبَهُمْ؛ ومنه محمودٌ ومذمومٌ، فالمذمومُ ما كان في غير الحقِّ، والمحمود ما كان في جانب الدين والحقِّ؛ وأما غَضَبُ الله فهو إنكاره على مَنْ عصاه، فيعاقبه»^(١).

وقد أضاف بعض المحققين قيداً في تعريف (الغضب)، وهو (اقتضائه لحركة الروح إلى خارج البدن)، حيث قال: «الغضب: كَيْفِيَّةٌ نَفْسَانِيَّةٌ تَقْتَضِي حَرَكَةَ الرُّوحِ إِلَى خَارِجِ الْبَدَنِ طَلَباً لِلانْتِقَامِ»^(٢)، فإنَّ عمل القوَّة الغضبيَّة هو النهوض قبل وقوع الضرر على الإنسان لمواجهته، والشيء الذي يُشبع القوَّة الغضبيَّة هو الانتقام وحسب، والغاضب يلتذُّ بالانتقام، ولا يحصل له الهدوء بدون ذلك.

إنَّ أحد النقاط المهمَّة في تعريف كلِّ واحدةٍ من قوى النفس، هو بيان الحالات المختلفة التي يُمكن أن تعترى إحدى قوى الروح، فالغضب مثل قوَّة العقل - التي بُحثت سابقاً - فأحياناً يكون فيها إفراطٌ أو تفريطٌ، ولا بدَّ من إيصالها إلى حالة الاعتدال من خلال التعاليم الأخلاقيَّة، وستعرِّض إلى كلِّ واحدةٍ من هذه الحالات فيما يلي:

(أ) التفريط في الغضب

إنَّ التفريط في القوَّة الغضبيَّة عبارةٌ عن عدم وجود ردة فعل للإنسان في المواطن الضروريَّة، أو أنَّ تحرَّكه وهيجانه يكون ضعيفاً جداً في هذه المواطن. هذا، وأنَّ وجود حالة التفريط عند الشخص يُؤدِّي إلى حصول الإضرار في الأرواح أو الأموال أو الأعراض، وذلك ممَّا لا يقبل به الشرع المقدَّس والأسس العقليَّة والعرف والعقلاء، وهذه الصفة الرذيلة تُسمَّى (الجُبْن)، وحالة الجُبْن من الصفات

(١) المصدر نفسه: ص ٦٤٩.

(٢) التهانوي، محمَّد علي بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون: ج ٣، ص ٣٨٧.

المذمومة في الأخلاق، والله عزّ وجلّ عندما يُعرّف لنا شخصيّة النبي ﷺ، يقول: هو الشخص الذي يكون شديداً على الكفار والأعداء، قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ...﴾^(١)، ومضمون هذه الآية هو أنّ التفريط في الغضب هنا مذمومٌ، فالمجتمع الذي تضيّع منه العزّة والكرامة الإنسانيّة، لا يُظهر أيّ ردّة فعلٍ في قبال تجاوز الآخرين وإهانة العدو له، ويستمرّ في حياته ذليلاً مقهوراً.

ب) الإفراط في الغضب

كما أنّ التفريط في الغضب وعدم إظهار أيّ ردّة فعلٍ ضروريّة يُعدّ أمراً مذموماً وغير مقبول، فكذلك الإفراط فيه مذمومٌ أيضاً، فإذا لم تكن تصرّفات الإنسان في المواطن الضروريّة تحت تدبير العقل والشرع، فمن الممكن أن يُصيب نفسه والآخرين بأضرارٍ كبيرة، ممّا يُؤدّي إلى أمورٍ يندم عليها ولا يستطيع أن يتداركها؛ ومن هنا قيل: الإفراط [في الغضب]: هو أن تغلب هذه الصفة حتّى تخرج من سياسة العقل والدين وطاعتها، فلا يبقى للمرء معها بصيرةٌ ونظرٌ وفكرٌ واختيارٌ، ويعمى ويصمّ عن كلّ موعظةٍ^(٢).

والمسلم الخلق هو الشخص الذي يستطيع أن يضبط نفسه في زمان فورة الغضب وأن يتّخذ القرارات العقلانيّة والصحيحة آنذاك، والقرآن الكريم يُمجّد الأشخاص الذين أوجدوا في أنفسهم هذه المقدرة وهذه القوّة وعملوا على تقويتها، فيقول تعالى في حقهم: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبَظِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

(١) الفتح: آية ٢٩.

(٢) أنظر: شبّر، عبد الله، الأخلاق: ص ١٧٣.

(٣) آل عمران: آية ١٣٤.

وقد جاء في تفسير الأمثل في تعريف لفظتي (الكظم) و(الغيظ) وبيان معنيهما، ما يلي: «لفظة (الكظم) تعني في اللغة شدُّ رأس القُرْبَةِ عند مَلئِها، فيقول: كظمتُ القُرْبَةَ إذا ملأتمها ماءً ثمَّ شددتُ رأسها، وقد استعملت كنايةً عمَّن يمتلئُ غضباً ولكنّه لا يتتقم. وأمّا لفظة (الغيظ)، فتكون بمعنى شدّة الغضب والتوتّر والهيجان الروحي الشديد الحاصل للإنسان عندما يرى ما يكره»^(١).

وحينما يريد القرآن أن يُبيّن سمات المتّقين وعلاماتهم، يذكر لنا أنّ إحدى علاماتهم هي أنّهم يكظمون غضبهم ويمتنعون عن الإفراط والغليان، والنقطة المهمّة في التعامل مع هذه الصفة الرذيلة، هي أنّ اقتلاع جذورها من الإنسان أمرٌ غير ممكن، ومنهج الإسلام لا يُكلّف الإنسان المسلم بهذا التكليف أساساً، وإنّما يُكلّف المؤمن بالحدّ من التهورّ وبإيصال نفسه إلى حدّ الاعتدال، وحدّ الاعتدال في القوّة الغضبِيّة هو منع هذه القوّة إلى حدّي الإفراط أو التفريط، يعني: يغضب عندما يكون الغضب لازماً، ويحلم ويتجاوز حينما يكون ذلك لازماً أيضاً. هذا، وإذا وُفّق الإنسان لأن يقوم بعملٍ كهذا، فإنّه ستبدّل أفعال القوّة الغضبِيّة إلى فضيلةٍ وأمرٍ ذا قيمة، ويُسمّى علماء الأخلاق هذه الحالة النفسيّة بـ(الشجاعة)، وأمّا لو مال إلى طرف الإفراط، فإنّها ستُصبح رذيلةً ويُسمونها (تهوّر)، وإذا مال إلى جهة التفريط والتقصير، فإنّها ستُصبح رذيلةً أيضاً، ويُسمونها (جبن).

ج) الشجاعة والاعتدال في الغضب

إنّ إحدى الصفات الحميدة والمؤثّرة في الحياة الدينيّة والاجتماعيّة، هو امتلاك خِصلة الشجاعة، فلو أنّ أُمَّةً كانت جبانةً، لتعدّى عليها وظلمها كلّ عدوّ تُسوّل له نفسه ذلك، والإسلام يطلب من المسلمين ألاّ يظلموا وألاّ يقعوا تحت الظلم أيضاً،

(١) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٢، ص ٦٩٨.

وقد مدح الله عز وجل في القرآن الإيمان المصاحب للشجاعة والثبات، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١).

ويستفاد من هذه الآية الشريفة بأن الإنسان الشجاع والمستقيم، سوف يحصل في ظل الدين على مجموعة من الآثار الحسنة، وهي:

(١) لن يكون لديه خوفٌ وحُزنٌ فيما يتعلق بمستقبله.

(٢) لن يكون لديه غمٌ وندمٌ على أعماله السابقة.

(٣) سيرى أن الجنة مع ما فيها من أنواع النعم قد أعدت له.

٣. القوة الشهوية

إن إحدى القوى والقدرات الموجودة في الإنسان هي (القوة الشهوية)، والتي هي ضرورية جداً من أجل استمرار الحياة، سواء من ناحية التغذية أم حفظ النسل وإدارة الحياة الاجتماعية، ولكن في حال انجرت نحو الإفراط أو التفريط، فإنها سوف تؤدي إلى الرذائل والمعاصي.

المعنى اللغوي للقوة الشهوية

فسر اللغويون (القوة الشهوية) بالنحو التالي: «هي قوة الجذب المتناسب أو المطلوب الحصول، مقابل القوة الغضبية التي هي قوة دفع المنافر أو المهروب منه»^(٢). وقيل أيضاً: إن الشهوات والشهوى: هي الهوس بالأشياء، ورغبة النفس بالشيء المطلوب أو اللذيذ، قال تعالى: ﴿أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾^(٣).

(١) فُصِّلَتْ: آية ٣٠.

(٢) دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ٢٢، ص ٤٣١.

(٣) أنظر: بندريكي، محمد، فرهنگ بندريكي [= قاموس بندريكي]: ج ١، ص ١٢١٤.

يحتاج الإنسان للمحافظة على استمرار حياته إلى قوتين مهمتين: إحداهما لتدارك الأضرار وصدّ الأخطار والموانع، والأخرى لسوق الإنسان إلى شيء يوجب استمرار الحياة ودوامها، والعمل الأوّل على عهدة القوّة الغضبيّة؛ لكي يستعين بها الإنسان لحفظ نفسه عند الصراعات، والعمل الثاني على عهدة القوّة الشهويّة، فلو لم يكن لدى الإنسان ميلٌ نحو المنافع واللذات لما استمرّت حياته.

وبحث (الإفراط) و(التفريط) مطروحٌ بالنسبة لـ (الشهوة) أيضاً كما كان مطروحاً في (العقل) و(الغضب)؛ ولذا سنبحث القوّة الشهويّة بالالتفات إلى الأبعاد الثلاثة: الإفراط والتفريط والاعتدال، كما سنبحث في آثار كلّ واحدة من هذه الأبعاد وتبعاتها على حياة الإنسان الماديّة والأخلاقيّة.

١. الإفراط في الرغبات

كما أشرنا سابقاً، فإنّ الله عزّ وجلّ أودع في الإنسان القوّة الشهويّة لكي يميل إلى الطعام عندما يجوع؛ فيرفع بذلك جوعه، أو لكي يرفع من خلال الزواج حاجته الجنسيّة، فيضمن بذلك بقاء النسل، وكذلك الأمر عند الحاجة فيذهب لكسب المال، ولكن بالطبع لا ينبغي أن يكون إرضاء الغرائز أكثر من حدّ الاعتدال؛ لأنّه في هذه الحالة لا ينتهي الأمر بعدم كون ذلك عاملاً في سعادته فحسب، بل سيؤدّي إلى توجيه ضربة إلى أساس الحياة، فوجود الغرائز في البدن هو من النعم الإلهيّة، وحاله كحال المطر الذي يكون رحمةً للأرض الخصبة ويؤدّي إلى دوام الحياة الطبيعيّة، ولكن إذا أمطرت الفيضانات على الصحراء، ولم يكن هناك استعداداتٌ مسبقةٌ للسيطرة عليها، فهذه الرحمة والنعمة الإلهيّة ستتحوّل إلى سيولٍ مُدمّرة، وستؤدّي إلى تدمير البيئة؛ وعليه فالقوّة الشهويّة إذا لم تكن مُنظّمةً، فبدلاً من أن تؤدّي إلى دوام الحياة، فإنّها ستتحوّل إلى كارثة، فطبيعة الإنسان هي كالمثال المتقدّم، بحيث إنّّه إذا مشى في طريق المعنويّات والعلم والمعرفة، فسوف تُصبح أهدافه كلّ يومٍ أبعد

ونواياه أعمق، ولكن إذا سقط في وادي الغرائز الحيوانية، فلن يشعر بالشبع أبداً؛ لهذا السبب نجد أن المجتمعات التي تُبنى على نظريات علم النفس من قبيل نظرية فرويد، وتتجه في طريق الوصول إلى الشهوات بسهولة، وتتحرر في سبيل الوصول إليها لن تشبع من ذلك الحرص والشهوات، بل وستزداد كل يوم غرقاً وانغماساً في مستنقع الحيوانية والانحطاط.

ويُسمى الإفراط في الغرائز الحيوانية بحسب اصطلاح الكتب الأخلاقية بـ(الشَّرَه)؛ ومن هنا قيل: «الشَّرَه هو طرف إفراط القوّة الشهوية، وهو عبارة عن متابعة البطن والفرج، والحرص على الأكل والجماع، ولا شك في أن هذه الصفة من أعظم المهلكات، ولهذا السبب قال رسول الله ﷺ: مَنْ وَقِيَ شَرَّ قُبْضِهِ وَدُبْدُبِهِ وَلُقْلُقِهِ فَقَدْ وَقِيَ الشَّرَّ كُلَّهُ. وسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، فَقَالَ: الْأَجُوفَانُ الْفَمِّ وَالْفَرْجِ. وقال الصادق عليه السلام: إِذَا شَبِعَ الْبَطْنُ طَغَى... وكما أن للبطن آفات كثيرة، للجوع أيضاً ثمرات لا تحصى، فهو يجعل القلب نورانياً مضيئاً، والذهن حاداً، ويصل الإنسان بسببه إلى لذة المناجاة مع قاضي الحاجات... وأما اتباع شهوة الفرج والحرص على الجماع، فلا شك في أن صاحبه بعيد عن سلوك طريق الآخرة، بل كثيراً ما تغلب عليه القوّة الشهوية، وتضمحل قوّة الدين، ويزول خوف الله، وتدفع الإنسان إلى ارتكاب الفواحش، وإذا كانت القوّة الواهمة غالبية على شخص، تجرّه هذه الشهوة إلى العشق البهيمي»^(١).

٢. التقصير في تلبية الاحتياجات الغريزية

كما أن الإفراط في تأمين الاحتياجات الغريزية يمثل كارثةً وخطراً جسيماً، كذلك التفريط في هذه الأمور مُضَرٌّ أيضاً، وقد استعمل علماء الأخلاق مُصْطَلَح

(١) القمي، عباس، المقامات العليات في موجبات السعادة الأبدية، (تلخيص لكتاب معراج السعادة للملا أحمد النراقي): ص ٦٣- ٦٥.

(الخمود) لحالة التفريط في إرضاء الاحتياجات الغريزية، وقد فسر اللغويون (الخمود) بهذا النحو: «هو طرف التفريط بالعفة، وهو السكون في الحركة نحو طلب الملذات الضرورية التي رخص الشرع والعقل بالإقدام عليها، ويكون مقتدرًا على ذلك وليس بسبب نقص في الخلقة»^(١).

إنّ الوسطية والاعتدال هما الطريق الذي أكّده العقل والشرع في المجالات المختلفة، وقد وردت الوصية بالاعتدال في القرآن في الكلام والمشي وتناول الطعام والنوم والعديد من الأمور الأخرى، وفي المقابل هناك ذمٌ لكل من الإفراط في (الشهوة الجنسية) وكذا سائر الغرائز الطبيعية، وكذلك (التفريط) و(التقصير) و(الخمود) فيما يتعلّق بإشباع الشهوة الجنسية وسائر الغرائز الطبيعية؛ ولذا قيل: «تحصيل المعارف الإلهية واكتساب الفضائل الخلقية والعبادات البدنية موقوفٌ على قوّة البدن، فالتفريط في إيصال بدل ما يتحلّل إلى البدن يوجب الحرمان عن تحصيل السعادات، وهو غاية الخسران، وكذا إهمال قوّة شهوة النكاح يُوجب الحرمان عن الفوائد المترتبة عليها، فإنّ هذه القوّة إنّما سلّطت على الإنسان لبقاء النسل ودوام الوجود، ولكي يدرك لذّته فيقيس بها لذات الآخرة»^(٢).

ولدينا العديد من الآيات والروايات في باب الزواج الذي من أهدافه رفع الحاجة الجنسية، مضافاً إلى الآثار الأخرى الروحية والمعنوية، وقد ذكر القرآن عوامل متعدّدة تؤدّي إلى (السكينة والطمأنينة) الروحية والجسميّة للإنسان، منها:

١. المسكن: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾^(٣). فحينما يدخل الإنسان إلى منزله وبيته يحصل على سكينة وراحة خاصّة به.

(١) دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ١٥، ص ٧٣٩.

(٢) النراقي، الملا مهدي، جامع السعادات: ج ١، ص ٣٦١.

(٣) النحل: آية ٨٠.

٢. الزوج: قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١). فقد جعل الله عز وجل - في هذه الآية الكريمة - الزواج والعلاقة بالجنس الآخر والسكن إلى جانبه أحد السبل لمعرفة تعالى، وقد وبَّخ القرآن أيضاً الأشخاص البخلاء فيما يتعلق بالأطعمة، وفي المقابل توصي الأخلاق القرآنية أن يستعمل الإنسان النعم بنحو طبيعي وعادي، فإنه في هذه الحالة سيتكامل بنحو متزن وطبيعي، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وقال عز من قائل: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣).

٣. الاعتدال في القوة الشهوية

لقد عبّر في علم الأخلاق عن الوسطية والاعتدال في القوة الشهوية بـ(العفة)، ويمكن تشبيه أهميّة (الاعتدال) في هذه القوة الشديدة والواسعة التأثير ببناء سدّ في قبال فيضان النهر، فوجود هذا السدّ له العديد من الثمار، فسيل المياه الجارف الذي يُمكنه أن يجلب الموت والكوارث والخوف يُصبح موجباً للحياة والجمال والسكينة والعمران، وجميع هذه الآثار الثمينة هي بسبب السيطرة العاقلة التي حصلت بواسطة الأشخاص الأذكياء.

(١) الروم: آية ٢١.

(٢) الأعراف: آية ٣٢.

(٣) القصص: آية ٧٧.

إنّ القوّة الشهويّة أيضاً، إذا ما سيطر عليها، واستطاع الإنسان إشباعها وإرضاءها من خلال الطرق العقلانيّة، فبإمكانه عند ذلك أن يصل من خلال التخطيط الصحيح إلى جميع أهدافه، ولكن إذا أرخى الإنسان عنان اختياره وسلّمه إلى يد الغرائز المرفوضة، عندها لن يُوفّق في العلم والتحقيق والأمور المعنويّة والسعادة، فعلى الإنسان العاقل أن يُفكّر في جميع المسائل الأساسيّة للحياة، فالانشغال بالأمور الجذّابة التي في الدنيا مثله مثل النقش على الماء، لا يُسبّب له سوى الحسرة وضياع العمر، ومن هنا يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَعْفَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾^(١).

إذا بُنيت الحياة على أساس (الاعتدال) الذي يُوصي به كلّ من الشرع والعقل، وتقدّم الإنسان على هذا الأساس، عندها لن يقع الإنسان فريسةً للعب واللهو والزينة (الأمور الجذّابة التي لا واقعيّة لها ولا عمق)، ولن يقع في الفخر الطفولي والجاهلي، ولن يقوم بجمع المال بما هو أكثر من حاجته؛ ومن هنا فالحاكميّة في وجود الإنسان يجب أن تكون بيد العقل الذي نهل من الدين، لا بيد الأهواء النفسيّة المخزية، فقد روي عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى خلق الملائكة ورَكَّبَ فيهم العقل، وخلق البهائم ورَكَّبَ فيهم الشهوة، وخلق بني آدم ورَكَّبَ فيهم العقل والشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو أعلى من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو أدنى من البهائم»^(٢).

(١) الحديد: آية ٢٠.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥٧، ص ٢٩٢. لم نجد الرواية في التخرّيج المذكور،

وبناءً على هذا؛ فالأمر المهمّ هو إشباع الغرائز والوقوف بوجه التهيّج بنحوٍ خاطئ، وهذا الأمر هو نفس الاعتدال؛ ولذا قيل: «في الواقع أنّ مسألة إشباع الغريزة ومسألة عدم كبتها يُشكّلان موضوعاً واحداً، والحرية الجنسية ورفع القوانين والمعايير الأخلاقية يُشكّلان موضوعاً آخر، فليس هناك تنافي بين إشباع الغريزة وبين مراعاة مبدأ العفة والتقوى، بل لا يُمكن إشباع الغريزة إلى حدٍّ كافٍ إلّا في ظلّ هاتين الخصلتين وعبر الحدّ من التهيّجات التي لا طائل منها، ومنع حالات القلق والشعور بالحرمان والكبت النابع منها. وبتعبيرٍ آخر: إنّ تربية الاستعدادات تُمثّل مسألةً أخرى غير مسألة إطلاق الحرية للأهواء والنزوات والآمال والأمانى اللامتناهية. إنّ ما يُميّز الإنسان عن الحيوانات نوعين من الميول والأمانى التي تكون عند البشر فقط، وهما: الأمانى الصادقة والأمانى الكاذبة، بحيث تُعبّر الأولى عن الطبيعة الفطرية للفرد... ثمّ إنّ هذه الأمور كلّها محدودة، ولكنّها تصلح لأن تكون أرضيةً لأمنيةٍ كاذبةٍ، فالميل والرغبة إلى أنواع الطعام عند الإنسان مشهودٌ ومعروفٌ للجميع، وفي بعض الميول والغرائز ومنها الغريزة الجنسية تظهر الأمنية الكاذبة على شكل عطشٍ أو نهمٍ روحي؛ بحيث لا يعرف طريقاً للقناعة والانتهاء»^(١).

إنّ الوصول إلى (العفة) التي هي عبارة عن الاعتدال والوسطية في القوة



ولكن ما وجدناه في المصدر المذكور، هو هذه الرواية: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ عليه السلام، فَقُلْتُ: الْمَلَائِكَةُ أَفْضَلُ أَمْ بَنُو آدَمَ؟ فَقَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ فِي الْمَلَائِكَةِ عَقْلاً بِلَا شَهْوَةٍ، وَرَكَّبَ فِي الْبَهَائِمِ شَهْوَةً بِلَا عَقْلٍ، وَرَكَّبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلْتَيْهِمَا، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتُهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَ شَهْوَتُهُ عَقْلُهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ» (م).

(١) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار [=مجموعة الآثار]: ج [١٩]، ص ٦٥٩.

الشهوية يحتاج إلى معرفة الرغبات الصادقة والإجابة عنها، وكذلك الوقوف بوجه السعي نحو الملذات المخزية، والوصول إليها إنما يتيسر بمساعدة العقل والتقوى فقط، كما أن خيرات القوة العاقلة وحسناتها تتجلى في حالة تسلطها على حالات الإنسان وتصرفاته، أما قبورها فيظهر عندما تضعف تلك القوة وعندما تصبح تحت سيطرة بقية قوى النفس الأخرى.

٤. القوة الواهمة

لقد أضاف بعض علماء الأخلاق بالإضافة إلى القوى الثلاثة السابقة قوة رابعة اسمها قوة (الوهم) أو القوة (البهيمية)، فقال: «(القوة الوهمية) من الحواس الباطنية، شأنها هو إدراك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، مثل: شجاعة زيد وسخاء عمرو؛ وهذه القوة هي التي تأمر الشاة أن تهرب من الذئب، وأن يعطف الأب على ابنه، وقد استدلل الحكماء على وجود هذه القوة بالنحو التالي: هناك حاجة إلى قوة تدرك المعاني الجزئية، وهذه القوة هي غير الحواس الظاهرية؛ لأن المعاني لا يمكن أن تدرك بوسيلة أي حاسة من الحواس الظاهرية، وهذه القوة غير الحس المشترك والخيال وغير الحافظة وغير القوة المتصرفة وغير النفس»^(١).

وقد ذكر الغزالي في كتاب ميزان العمل فيما يتعلق بمنزلة هذه القوة في الدماغ وعملها، ما يلي: «القوة الوهمية، وهي قوة مُرتبة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ، تدرك معاني غير محسوسة من المحسوسات الجزئية، كالقوة الحاكمة في الشاة بأن الذئب مهروب عنه، وأن الولد معطوف عليه... وهذه القوى التي ذكرناها يشارك فيها الحيوانات الإنسان»^(٢).

(١) دهخدا، علي أكبر، لغتنامه [=قاموس]: ج ٣٢، ص ٢٦٩.

(٢) الغزالي، محمد، ميزان العمل: ص ٢٠٣.

ويعتقد بعض المحققين - فيما يتعلّق بالاختلاف بين قوّة العقل وقوّة الوهم - أن: «الوهم يسعى نحو المكر والخدعة والحيلة والخيانة... وإنّ العقل والوهم كليهما قوى إدراكية: العقل يُدرك الكلّيات، بينما يُدرك الوهم الجزئيات، فإذا كانت القوّة الوهميّة والشيطنيّة حاكمّة، غرق الإنسان في مستنقع الشيطنة، والاعتدال في القوّة الوهميّة يؤدّي إلى العدالة، والإفراط فيها يؤدّي إلى الظلم والتفريط فيها يؤدّي إلى تقبّل الظلم»^(١).

إنّ روح الإنسان محلّ لنزاع قواه الباطنيّة، بحيث سيتغلّب أحدها في النهاية على البقيّة لتتحرك تحت أمره، والعامل الأساسي في هذه النزاعات هو القوّة العاقلة التي تقف سدّاً منيعاً في قبال الرغبات التي تنبع من القوى الأخرى؛ لأنّ القوى الأخرى (الغضبّيّة والشهويّة والوهميّة) لا تتعارض مع بعضها البعض، إلّا إذا وضعها العقل في مواجهة بعضها البعض، ولتقريب الفكرة إلى الذهن شبّه البعض العقل بالملائكة، والغضب بالكلب، والشهوة بالخنزير، والواهمة بالشیطان، وهم يعيشون مع بعضهم البعض، وهذا الصراع سوف يؤدّي بالنتيجة إلى ظهور الفضائل والرذائل (القيم وأضداد القيم).

وكما ذكرنا سابقاً: إنّ العقل والوهم هما المسؤولان عن إدراك المسائل، والعقل هو المدرك للكلّيات، وأمّا القوّة الواهمة فهي المسؤولة عن إدراك الجزئيات؛ ومن هنا فكلّ فعلٍ يصدر عن البدن هو عبارة عن أمرٍ جزئيّ، وبتعبير كتاب معراج السعادة: «مبدأ تحريك البدن في جزئيات الأفعال هو فكر وروية القوّة الواهمة، ومن هنا يُقال له: العقل العملي والقوّة العاملة»^(٢).

(١) درسهایی اخلاق [=الدروس الأخلاقيّة]: ص ١٣.

(٢) النراقي، الملاً أحمد، معراج السعادة: ص ٢٨.

كيفية الاعتدال في الواهمة

يذكر المَلّا أحمد النراقي في معراج السعادة بأنّ الطاعة المحضّة للقوّة العاملة [للقوّة العاقلة] يُعبّر عنها بـ(الاعتدال والوسطيّة)، فيقول: «العدالة عبارة عن إطاعة القوّة العاملة للقوّة العاقلة، ومتابعتها للعاقلة في جميع التصرفات التي تجري في مملكة البدن، أو في خصوص حبس الغضب والشهوة تحت سيطرة وإدارة العقل والشرع، وقد فسّر البعض العدالة باجتماع القوى واتّفاقها على قيادة العاقلة وامتنال أوامرها ونواهيها بحيث لا يصدر من الإنسان أيّ نحوٍ من المخالفات»^(١).

إنّ النقطة التي تجدر الإشارة إليها فيما يتعلّق بإمكان تصوّر القوّة الوهميّة بعنوانها القوّة الرابعة وقسيمة للقوى الثلاثة الأخرى، هي أنّ جميع الصفات الحسنة في الإنسان إنّما تعود إلى سيطرة القوّة العاملة، فالعامل الإجرائي للفضائل (الحكمة والعفة والشجاعة) هو القوّة العاملة، وبالتالي فكلّ الصفات الحسنة التي تعود إلى إحدى هذه الصفات الثلاثة تكون بواسطة القوّة الوهميّة؛ لأنّها القوّة الإجرائيّة. على أنّ هذا الأمر لا يؤدّي إلى أنّ نسب القيم للقوّة الوهميّة. وعليه يكون العمل الوحيد المختصّ بالقوّة العاملة هو الطاعة المحضّة للقوّة العاقلة، وبالتالي فإنّها لا يُمكنها أن تكون في عَرَض الفضائل الثلاثة الأخرى، بل كلّ قيمة من القيم أو كلّ انحطاطٍ من انحطاطات يتعلّق بالقوّة العاقلة أو الغضبيّة أو الشهويّة، ولكن بالطبع بواسطة القوّة العاملة، ولا يمكن أن يُفترض لنفس القوّة العاملة بحدّ ذاتها فضيلةً أو رذيلة، إلّا مجرّد كونها وسيلةً للعمل؛ ومن هنا فجميع الفضائل تعود إلى الفضائل الثلاثة الأساسيّة: العفة والشجاعة والحكمة.

(١) المصدر نفسه: ص ٢٩.

العدالة أم الأخلاق؟

نستنتج من المباحث السابقة أنّ كلاً من (الإفراط) و(التفريط) في أيّ واحدة من قوى الروح يُعدّ صفةً من الرذائل والصفات الذميمة والقيحة، في حين يُعدّ الحدّ (الأوسط) لقوى الروح - فحسب - (فضيلة) وقيمةً من القيم. هذا، وإذا التقت الفضائل الأخلاقية (الحكمة والشجاعة والعفة) في النفس وانضمت إلى بعضها البعض، أُطلق عليها اسم (العدالة).

وبناءً على هذا؛ فالوصول إلى العدالة هو عبارة عن الوصول إلى قيمة الفضائل الأخلاقية، وبعبارة أخرى: العدالة تعني امتلاك جميع القيم والابتعاد عن جميع القبائح والأمور السيئة.

الفصل الرابع حرية الاختيار

الحرية من لوازم النظام الأخلاقي

إنَّ أحدَ الأسسِ المهمّةِ للأخلاقِ في القرآنِ هو التسليمُ باختيار الإنسانِ وحرّيتهِ في الحياة، فبدون الاعتقاد بهذا العامل المُهمّ لن يكون هناك أيّ معنى لتوصية الإنسان بتزكية نفسه وتحليتها بالملكات الجميلة، فلا معنى للأمر والنهي بالنسبة للإنسان المجبر، ومن الأساس لا يُمكن لأيّ نظامٍ أخلاقيٍّ أن يفتح باب المباحث الأخلاقية بدون القبول بـ (أصل الاختيار)؛ وبناءً على هذا نجد أنَّ القرآن الكريم قد طرح المسائل الأخلاقية في هذا الإطار أيضاً، فالإنسان يُخاطَب ويُكلّف في جميع الآيات القرآنية بعنوانه موجود حرٍّ؛ ومن هنا قيل: «القرآن الكريم يُلقِي على الإنسان مسؤولية أعماله، فهو يرى أنَّ الفاعلية الحقيقية والتأثير المستقلّ مختصّ بالله وحده، ولكن ذلك لا يعني تجريد الفواعل والعلل القريبة عن تأثيراتها أبداً، وكذلك توجد في هذا العالم عدّة عوامل من قبيل الوراثة والبيئة واللبن والطعام وغيرها، وهي تفرض تأثيراتها على أفعال الإنسان، ولكن الرؤية الإسلامية رغم قبولها لتأثير جميع العوامل المذكورة تؤكد بشدّة دور اختيار الإنسان باعتباره العامل الأهمّ من بينها، أي: إنَّ هذه العوامل ليست عللاً تامّةً للفعل، بل هي مجرد معدّاتٍ له، وبما أنَّ إرادة الإنسان هي التي تُعيّن وتُتمّ الفعل فإنّه مسؤول بمقدار ما يمتلك من إرادة واختيار.

إنّ العوامل المذكورة لا تسلب الإنسان اختياره، ولا يمكن التمسك بها كذرائع لارتكاب الذنوب وانحراف الإنسان؛ حيث لا جبر في أيّ شرط من الشرائط المذكورة، بل الإنسان مختارٌ فيها^(١).

الحرية والاختيار في القرآن

١. اختيار الإنسان في قبال وسوسة الشيطان

هناك العديد من الآيات التي تُبيّن وتثبت الاختيار للإنسان، وتُشير في عددٍ من المجالات والمواضيع المختلفة إلى هذه الخصوصية لدى بني البشر، ومن بينها الآيات التي تُصرّح باختيار الإنسان في قبال وساوس الشيطان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ﴾^(٢).

تُشير الآية الشريفة إلى أنّه عندما يفصل أهل الجنة عن أهل النار يوم القيامة، ويرى أهل النار أنّ عدداً كبيراً من الأشخاص قد نجوا وشُفّع لهم، يُنادون: مَنْ يشفع لنا؟ ويُحاطبون بذلك الشيطان الذي أضلّهم، وفي المقابل فإنّ الشيطان - والمراد منه هنا نفس إبليس ورئيس الشياطين - يُجيبهم بنحو مُفصلٍ، فيقول لهم: أنتم لم تكونوا مجبرين على طاعتي، بل كنتم مختارين وأحراراً.

وينقل الفخر الرازي في التفسير الكبير - في ذيل الآية الشريفة - عن المعتزلة ثلاثة أدلّة على اختيار الإنسان في قبال وسوسة الشيطان: «قالت المعتزلة: هذه الآية

(١) مصباح اليزدي، محمد تقي، الأخلاق في القرآن الكريم: ج ١، ص ١٩-٢٠.

(٢) إبراهيم: آية ٢٢.

تدلّ على أشياء:

الأوّل: إنّه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يُقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.
الثاني: ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ الشيطان لا قدرة له على تصريح الإنسان وعلى تعويج أعضائه وعلى إزالة العقل عنه، كما تقول الحشويّة والعوام.
الثالث: إنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الإنسان لا يجوز ذمّه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير.

أجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأنّ هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به. وأجاب الخصم عنه: بأنّه لو كان هذا القول منه باطلاً لبيّن الله بطلانه وأظهر إنكاره، وأيضاً فلا فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد^(١).

٢. حرّية الإنسان عند مخالفته الأنبياء ﷺ

يُشير القرآن في مواطن متعدّدة إلى مخالفة بعض الناس لدعوة الأنبياء ﷺ، وقد تعرّضت إحدى هذه الآيات إلى بيان مواجهة أعداء الحقّ للمدرسة الإلهيّة، فيقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^(٢).

هذه الآية في مقام تسليّة النبي ﷺ، ولذا فقد ذكرت قصّة الأنبياء الماضين ﷺ، وذكرت بأنّ هذه المواجهات حصلت مع سائر الأنبياء أيضاً، وبعد أن بيّنت وجود العداوة تجاه الأنبياء، ذكرت كيفيّة قيام هؤلاء الأعداء بالدعاية المضادّة تجاههم، كما

(١) [الفخر الرازي، محمّد بن عمر، التفسير الكبير: ج ١٩، ص ٨٥]. (م)

(٢) الأنعام: آية ١١٢.

صرحت بأن عملهم هو أنهم يُسرّ بعضهم إلى البعض الآخر زُخرف القول، ثم يستمرّ القرآن ويوضح بأنه لا ينبغي الاشتباه بأن الله لا يستطيع أن يقف بوجههم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ولكن السّنة الإلهية لم تكن كذلك.

وقد أوضح تفسير الأمثل العبارة التي وردت في بداية الآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا﴾ بالنحو التالي: «جميع أعمال الناس يُمكن أن تُنسب إلى الله؛ لأنّ ما يملكه الناس إنّما هو من الله، فقُدّرتهم منه، وكذلك حرّية اختيارهم وإرادتهم؛ لذلك فإنّ أمثال هذه التعبيرات لا يمكن أن تعني سلب حرّية الإنسان واختياره، ولا أنّ الله قد خلق بعض الناس ليتّخذوا موقف العداء من الأنبياء، إذ لو كان الأمر كذلك لما توجّهت إليهم آية مسؤوليّة بشأن عدائهم للأنبياء؛ لأنّ عملهم في هذه الحالة يُعتبر تنفيذاً لرسالتهم، والأمر ليس كذلك بالطبع»^(١).

وبناءً على هذا؛ يُمكن أن نستنتج من الآية أعلاه بأنّ الله تعالى يُصرّح بأنّ الأشخاص الذين يواجهون الأنبياء، قد تركوا أحراراً ومُنحوا الاختيار؛ فإمّا أن يستمرّوا بالمخالفة، وإمّا أن يحصلوا على الثواب بالإطاعة.

٣. العلاقة بين هداية الله واختيار الإنسان

لقد بُني نزول القرآن على محور (هداية الإنسان)، وأنّ هدف الله عزّ وجلّ من إيجاد هذا المخلوق - بحسب النظر القرآني - هو رقيّه وتكامله، وهذا التكامل يكون ذا قيمة حينها يدور حول أساس حرّية الإنسان واختياره؛ ومن هنا نجد أن الله قد هيأ أرضية الهداية في الإنسان، وأودع فيه حبّ الإيمان والفرار من المعصية بنحوٍ فطريّ، ولكن أحياناً - وبسبب المعاصي وتكرار القبائح - تتغيّر الحالة الأولى التي

(١) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٤، ص ٤٣٤.

كانت عند الإنسان، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ﴾^(١).

وقد جاء في تفسير الأمثل - في ذيل الآية أعلاه - توضيحاً يتعلق بتهيئة الأرضية للتكامل والهداية من جانب الله عز وجل، فيقول: «إنَّ الآيات الآتفة تجسّدُ بَيِّنٌ لوجهة نظر الإسلام في مسألة (الجبر والاختيار) والهداية والإضلال؛ لأنّها تُوضّح هذه اللطيفة - بجلاءٍ - وهي أنّ الله يهيئ المجال (والأرضية) للهداية والرشد، فمن جهةٍ يبعث رسوله ويجعله بين الناس وينزل القرآن الذي هو نور ومنهج هداية، ومن جهةٍ يُلقي في النفوس العشق للإيمان ومحَبَّته، والتنفّر والبراءة من الكفر والعصيان، لكن في النهاية يوكل للإنسان أن يختار ما يشاء ويصمّم بنفسه، ويشرّع سبحانه التكليف في هذا المجال»^(٢).

هذا، ويُمكننا أن نستنتج بوضوح من الآيات القرآنية الشريفة أنّ الإنسان قد خوطب باعتباره موجوداً حُرّاً وصاحب اختيار وإرادة، وأنّه مسؤولٌ في قبال أوامر الدين الإسلامي المبين من جهةٍ، ومسؤولٌ أيضاً عن مخالفة الأهواء النفسانية والشیطانية من جهةٍ أخرى.

٤. اختيار الإنسان في مسيرته التكاملية

اليقظة والغفلة

إنّ إمعان النظر في نقطة انطلاق المباحث الأخلاقية، يُوضّح لنا أنّ الانتباه من الغفلة والسبل المؤدية إلى ذلك - من قبيل التوبة والذكر والتوكّل - تعتمد جميعها

(١) الحجرات: آية ٧.

(٢) المصدر السابق: ج ١٦، ص ٥٣٢.

على المعرفة والإرادة والاختيار، وكل الأشخاص الذي عملوا في الماضي أو يعملون في الحاضر على تهذيب أنفسهم إنما طَوَّروا هذه المسيرة باختيارهم التام، وبالطبع بإرادتهم الفعّالة. وفي هذا القسم ستعرّض إلى مراحل التكامل والتهذيب وستثبت في الضمن أنّ طيّ هذا المسير غير ممكن بدون الاختيار والحرّية.

إنّ أحد أهمّ المباحث الأخلاقية - بعد القبول بضرورة العمل على تكامل الإنسان - هو معرفة نقطة العزم والانطلاق في هذا المسير، ودون هذه المعرفة لن تتمكن من الفهم الصحيح لسائر المباحث الأخلاقية. فعلى امتداد مسيرة السير والسلوك ومراحلها المختلفة حتى الوصول إلى المقصود، يُوجد العديد من العناوين الأخلاقية التي ينبغي علينا التعرّف عليها وعلى ترتيبها، وهي عبارة عن: اليقظة والتوبة والذكر والتوكّل وغيرها.

ومن الواضح أنّه يلزم قبل البدء بأيّة حركةٍ صحيحةٍ من تحقق المعرفة والاطّلاع التام واليقظة؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن يُشير إلى أنّ هداية الأفراد تعتمد قبل كلّ شيء على إزالة الغفلة باعتبارها أهمّ مانع عن تحقّق الهداية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١).

إنّ الأفراد المقصودين بهذه الآية أُعتبروا غافلين من جهة أنّهم يمتلكون جميع إمكانات الهداية ومع ذلك فقد ضلّوا، فالسبب في تعطلّ جميع القوى الظاهرية والباطنية للهداية في وجود الإنسان هو الغفلة، وأمّا اليقظة فهي النقطة المقابلة لذلك، ولذا قيل: إنّ أساس الشقاء بالنسبة للذين يتعرّضون للعقاب والشقاء الأبدي هو الغفلة والجهل بالحقائق التي تقتضي إنسانية الإنسان العليم بها

(١) الأعراف: آية ١٧٩.

والالتفات إليها، وبهذا اللحاظ فإنّ هؤلاء الأشخاص أخطأ قيمةً من الحيوانات التي تقتضي طبيعتها الغفلة والجهل^(١).

أنواع الغفلة

ويُمكن إيجاد مصداقين للغفلة، هما:

١. الغفلة التي يُقبل فيها عذر الإنسان الغافل، من قبيل المواطن التي لا تتمّ الحجّة فيها على الإنسان، فيكون الإنسان الضالّ قاصراً وليس مُقصرّاً.
٢. الغفلة المذمومة الناشئة من قلة الدقّة عند الإنسان وعدم اهتمامه، بحيث لا يكون لديه أيّ عذر. هذا، وأنّ المخاطب بأغلب الآيات والروايات في مورد هذه الرذيلة هم الأفراد المقصّرون والأشخاص الذين لا يريدون أن يتخلّصوا من براثنها، فالإنسان يُمكنه أن يُوقظ النائم، ولكن لا يُمكنه أن يوقظ من يتظاهر بالنوم؛ ولذا نجد القرآن يقول: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾^(٢).

وبناءً على هذا؛ يلزم من أجل تحقّق (اليقظة) الخروج عن الغفلة؛ ولهذا السبب تتّجه الأوامر الإسلاميّة نحو إيقاظ الأفراد وسوقهم نحو الهدف، وكذلك نجد أنّ الإسلام قد أوصى بعددٍ من السُّبل المؤدّية إلى ذلك، من قبيل: (الموعظة) و(التفكّر) و(الوصيّة بالمشاركة في تشييع الأموات) و(الاعتبار من الأحداث). وسوف نتعرّض - في المقام - إلى بعض أسباب تخلّص الإنسان من الغفلة:

١. الموعظة

يعود جذر كلمة الموعظة إلى (الوعظ) وهو يعني المنع المصاحب للتخويف، وفي باب الافتعال يكون معنى (الاتّعاظ) هو: تذكّر الخير والأمر التي من شأنها

(١) أنظر: مصباح اليزدي، محمّد تقي، الأخلاق في القرآن الكريم: ج ٢، ص ٨٥.

(٢) الروم: آية ٥٢.

تليين القلب؛ ولذا قيل: إنَّ التذكُّر، واليقظة، ومقاومة الغفلة، والتعامل مع القلب والعاطفة، واستعداد الذهن للاستفادة ممَّا يمتلكه من أمور، وفتح العين للرؤية، والرجوع إلى النفس، كلّها عبارة عن الموعظة ونتائجها، فالموعظة تخدم العقل بالتخلّص من الغفلة وحصول اليقظة، كما أنَّه باعتبارها عضواً في أسرة الحكمة العملية؛ لذا يجب أن تظهر في أعمال المتربّي والمتعظ وأن تمنعه من المعصية، وهذا معناه تأثير الموعظة في العقل العملي^(١).

بناءً على هذا؛ يجب على السالك إلى الله أن يصل إلى (اليقظة)، أي: أن يستيقظ من نومة الغفلة وأن يشعر بالمسؤوليّة؛ لأنّه لم يُخلق عبثاً في هذا العالم العظيم، كما أنّه يجب عليه أيضاً أن يعمل على إصلاح نفسه.

٢. الالتفات إلى العبر

إنَّ أحد السُّبُل التي يستخدمها القرآن لإيقاظ الغافلين هو لفت النظر إلى العبر، فالقرآن يلفت النظر في سبعة مواطن كمجيء الليل والنهار^(٢)، وانحدار اللبن الخالص والمفيد من بين الدماء وما تحمله الأمعاء من فضلات^(٣)، وقصص الماضين المعبرة^(٤)، ونصرته عزّ وجلّ للمجاهدين في سبيل الحقّ رغم قلة عددهم^(٥)، ثمّ يأمر بالاعتبار من هذه الظواهر، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٦).

(١) أنظر: شبي، سعيد، آئين خرد پروري [= سبيل تربية العقل]: ص ٢٦٣.

(٢) أنظر: النور: آية ٤٤. (خ).

(٣) أنظر: النحل: آية ٦٦. (خ).

(٤) أنظر: النازعات: آية ٢٦. (خ).

(٥) أنظر: آل عمران: آية ١٣. (خ).

(٦) يوسف: آية ١١١.

وفي هذا الصدد يبيّن البعض أنّ الیقظة هي نتيجة لأخذ العبرة، فيقول: إنّ جذر كلمة اعتبار يعود إلى (عبر) و(عبر) بمعنى الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، و(العبرة) التي هي مُشتَقَّة من (عبر): هي الكلام الذي يَعْبُرُ في الهواء من لسان المتكلّم إلى أذن السامع. كما أنّ أسلوب التعلّم من خلال العبرة هو أحد الأساليب التربويّة في الإيقاظ وبناء الخبرة^(١).

٣. التذكير بالموت

إنّ أحد الأساليب التي سعى القرآن من خلالها إلى إيقاظ الناس وسوقهم نحو إصلاح أمورهم المعنويّة وبناء أنفسهم من الناحية الأخلاقيّة، هو التذكير بالموت، فقد اتّبع الله عزّ وجلّ في آيات كتابه العزيز سبيل بيان حقيقة الموت كأحد العوامل التربويّة، وهذا الأمر مشهودٌ في أنحاء كثيرة منه، فقد ورد فيه قرابة (١٤٠٠) آية حول الموت والجنّة والنار والقيامة، وبالتالي فإذا كان الهدف من ذلك هو بيان أحد الأصول الاعتقاديّة وحسب لم يكن هناك من حاجة لهذا العدد من الآيات في باب المعاد.

وقد شبه القرآن حشر الناس في يوم القيامة بإعادة إحياء النباتات، ومن خلال هذا التشبيه أراد أن يُثبت لهم قدرة الله على إعادتهم في يوم القيامة، كما استعان به كوسيلة لتذكير البشر وإيقاظهم وسوقهم نحو الصالحات، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا نَّبَأَ لَأَسُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

٤. التفكّر

إنّ أحد السُّبل التي يؤدّي سلوكها إلى فتح آفاقٍ جديدة للإنسان هي التفكّر؛ ومن هنا نجد تأكيداً كبيراً في الآيات والروايات الإسلاميّة على التفكّر، فقد ورد

(١) أنظر: المصدر السابق: ص ٢٧٥.

(٢) الأعراف: آية ٥٧.

ذلك في القرآن ما يقرب من عشرين مورداً وبعبارات مختلفة. وأحد ثمار التفكير هو رفع حجاب الغفلة والنظر إلى العالم من نافذة اليقظة، وهناك العديد من الآيات التي تُقر بأهمية التفكير وتُبين دوره في إيجاد الطريق الصحيح وسلوكه، ومن ضمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١).

ففي الآية الأولى يقول عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثم يبين في الآية الثانية الأفراد الذين يمتلكون القدرة الكافية من الإدراك، فيقول: هؤلاء الذين اهتموا هم الأشخاص ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، وهم أيضاً الذين ﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبالتالي فهم يصلون من خلال تفكيرهم إلى نتائج مهمة، ومن ضمنها ما يلي:

أ) ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾؛ أي: إن أحد الأمور التي يتنبه لها الإنسان عند (التفكير) هو أن الله عز وجل لم يخلق هذا الكون العظيم (باطلاً وبلا سبب)؛ وبناءً على هذا فهو لم يكن قد وصل إلى هذه النتيجة قبل (التفكير)، وإنما حصلت له هذه المعرفة بعد التفكير، وحصل له ذلك في زمان (اليقظة والانتباه).

ب) ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ أي: إنه حينما يعتقد الإنسان بأن العالم لم يُخلق باطلاً وعبثاً، يجب عليه أن يقبل بعدها بأن القيامة هي من أجل محاسبة الناس على أعمالهم وتصرفاتهم، والارتباط بين هذين الأمرين يُفهم بسهولة من هذه الآية الشريفة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

(١) آل عمران: آية ١٩٠-١٩١.

(٢) المؤمنون: آية ١١٥.

(ج) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(١)، حيث يُشير هذا المقطع من الآية إلى أنّ أحد ثمار تفكّر الإنسان هو أن يقول: إلهي! ليس المهمّ بالنسبة لي أمرُ العذاب، وأنّ سبب طلبي منك بالأّ تدخلي إلى النار، فهو خجلي الذي هو أسوأ عندي من العذاب بعدّة مراتب، فحينما أذهب إلى جهنّم تكون قد أخزيتني.

وأما جملة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ التي هي عبارة عن خطاب الإنسان لله، فإنّه يُشير فيها إلى نقطتين، هما: الأولى: إلهي! إذا لم تستجب لي، فعندها ليس هناك مَنْ يستجيب لندائي، وذلك كما جاء في آيةٍ أخرى، يقول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ﴾^(٢). وأما النقطة الثانية: فهي أنّك - يا إلهي - لا تظلم أحداً، بل ظلّمنا لأنفسنا هو الذي أدّى بنا إلى النار، وهذا الأمر يُستفاد من كلمة (الظالمين).

(د) ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٣)، وبناءً على هذه الآية؛ فإنّ التفكّر الذي يُصاحبه ذكرُ الله، يجعل الإنسان يسمع نداء الحقّ ويستجيب له، بينما إذا لا يصل الإنسان إلى مرحلة اليقظة، فلن يسمع هذا النداء، وبالتالي لن يتّخذ القرار الصحيح، فيقول تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ﴾^(٤).

والنقطة الأخرى في الآيات أعلاه هي أنّه قد استعمل مراراً ضمير المتكلمين، ولم يُستعمل ضمير المتكلم المفرد (أنا)، في حين أنّ التفكّر يحصل بنحوٍ فرديّ، وبالتالي كان ينبغي أن ينحلّ ضمير الجمع في (يتفكّرون) إلى المفرد، وكان ينبغي أن

(١) آل عمران: آية ١٩٢.

(٢) الطارق: آية ١٠.

(٣) آل عمران: آية ١٩٣.

(٤) النمل: آية ٨٠.

يتكلم الداعي مع الله بنحوٍ فردّي، لكنّ استعمال هذا الأسلوب الأدبي في الآية معناه أنّه يريد أن يقول: أنا وكلّ شخصٍ آخر يستمرّ بالتفكّر ويصحب تفكّره ذكر الله سوف نصل إلى هذه الأمور والحاجات؛ ومن هنا نجد أنّه في الآيات (١٩٠ إلى ١٩٤) [من سورة آل عمران] استخدم ضمير جماعة المتكلّمين سبعة عشر مرّة، ولم يُستخدم ضمير المتكلّم المفرد (أنا).

وأما النقطة الثالثة في الآية مورد البحث فهي طلب ثلاث حاجات من الله عزّ وجلّ، هي:

١- غفران الذنوب.

٢- ستر القبائح.

٣- الموت مع الصالحين.

وهنا يأتي التساؤل التالي: لماذا طُلب غفران المعاصي وتكفيرها (سترها) معاً؟!

هناك أقوال متعدّدة في تفسير ذلك:

١. إنّ جملة ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ودعاءٌ حسنٌ.

٢. إنّ المراد من الطلب الأوّل هو غفران المعاصي الماضية، وأمّا المقصود من

الثاني فهو المعاصي التي تحصل من الآن فصاعداً.

٣. إنّ المراد من (الغفران) هو تلك المعاصي التي تُغفر من خلال التوبة، وأمّا

المراد من (التكفير) فهو المعاصي التي تزول من خلال أداء الطاعات.

٤. إنّ الجملة الأولى تشمل المعاصي التي تحصل من الإنسان وهو عالمٌ بأنّها

معاصي، وأمّا الثانية فهي تشمل المعاصي التي تحصل مع الجهل بكونها معاصي.

هـ) ﴿رَبَّنَا وَعَاقِلُنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾^(١)،

القسم الآخر من دعاء أصحاب البصيرة هو أنّهم يقولون: إلهنا! أعطنا ممّا وعدت أنبياءك. وما ينبغي أن يُقال فيما يتعلّق بوعد الله لأتبيائه: إنّه عزّ وجلّ وعد بدخول الجنة لكلّ من يؤمن به وبرسله، ويثبت على ذلك؛ لذا نجد أنّهم يطلبون هذا الطلب بعد الإقرار بالإيمان الذي جاء في الآية السابقة: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، فهم طلبوا في الآيات السابقة من الله ألا يُخزيهم بإدخالهم جهنّم، وأمّا هنا فهم يطلبون بأنّه طالما غفرت لنا ذنوبنا ولطفت بنا؛ إذاً فأمتنا مع الصالحين، ولا تُظهر سيئاتنا وقبائحنا في عرصة يوم القيامة بمرأى من الآخرين.

إنّ جميع هذه المعارف التي ذُكرت إنّما تحصل للإنسان في ظلّ التفكّر، فهو الذي يُؤدّي إلى الصحوة واليقظة ورفع الغفلة وتهيئة الأرضيّة لكسب هذه المعارف، وأساساً بدون التخلص من الغفلة لا يُمكن اكتساب المعارف ولا السير في المراحل اللاحقة للسلوك.

ويقول السيّد الخميني رضوان الله عليه - الذي كان من أساتذة الأخلاق المرموقين من الناحية العلميّة والعملية - حول كون (الخطوة الأولى في السلوك هي اليقظة) ما يلي: إنكم لم تُفقهوا بعد، ولم تخطوا الخطوة الأولى. إنّ (اليقظة) تمثّل الخطوة الأولى في السلوك، ولكنكم تغطّون في نوم عميق، فلو لم تكن الأفئدة ملوثة بنوم الغفلة، ولو لم تكن القلوب قد اسودّت وصدّت نتيجةً للذنوب، لما كنتم هكذا غير مباليين وغير مهتمّين، تُواصلون الأعمال والأقوال المشينة^(١).

٥. الامتحان أداة للإيقاظ

إنّ أحد عوامل التفات الإنسان إلى أعماق نفسه هو الابتلاءات والامتحانات التي يُبتلى بها، بحيث يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا

(١) أنظر: الخميني، روح الله، الجهاد الأكبر أو جهاد النفس: ص ٦٠.

أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿١٠﴾. فهذا التضرع متفرع عن الصحو واليقظة، فقد ذكر في العديد من قصص القرآن بأن المصاعب والامتحانات التي ابتلي الناس بها، كانت سبباً لتوبتهم إلى الله والتضرع إلى الساحة الربوبية، وفي المقابل إن الانغماس في النعم كان سبباً في العديد من المواطن للغفلة عن المسؤولية والمستقبل الخطير.

٦. العلم والمعرفة سبب للوعي

إن أحد العوامل المؤثرة في يقظة الإنسان هو العلم والمعرفة والاطلاع، وكلما زاد الإنسان من اطلاعه زاد اهتمامه بالحقائق التي ينبغي عليه أن يسعى نحوها؛ ولذلك يوصي القرآن بأن لا نتبع الأشخاص الذين لا يسعون إلى المعرفة الصحيحة؛ لأنهم سيسوقوننا إلى الغفلة، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَكِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقد جاء في الرواية عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «نوم مع العلم خير من الصلاة مع الجهل»^(٢)، فحتى نوم الإنسان العالم له هدف ويحصل عن تدبير سابق، وأما العابد الجاهل فرغم أنه يعبد الله، إلا أنه قد يكون غير مطلع على مفهوم عبادته أو على قيمتها أو على الهدف منها.

إن هذه العوامل الستة المذكورة، والتي تؤثر في يقظة الإنسان من الغفلة، توضع في ظل اختيار الإنسان وإرادته، ويمكن للإنسان من خلال استفادته من هذه العوامل أن يخطو الخطوة الأولى في مسير إصلاح نفسه.

(١) الأعراف: آية ٩٤.

(٢) يونس: آية ٨٩.

(٣) محمد الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج ٦، ص ٤٥٩.

آثار اليقظة

تظهر على الإنسان السالك والمُهتدي في مسير تكامله آثارٌ إيجابيةٌ كلّها وصل إلى مرحلةٍ من المراحل، ورغم أنّ بعض هذه الآثار تُمثّل عوارض طبعية لهذا النوع من السلوك، إلّا أنّه مع ذلك فإنّ هذه النتائج إنّما حصلت له على أثر الأسباب التي كانت مصاحبةً لاختيار الإنسان وحرّيته، وسوف نعرض هنا آثار (اليقظة) من خلال الاقتباس والاستفادة من إحدى المقالات الأخلاقية^(١):

١. الالتفات إلى النعم

إنّ الإنسان الذي يغرق في الغفلة لا يكون ملتفتاً إلى النعم الإلهية، سواءً أكانت هذه النعم موجودة في وجوده هو أم النعم التي من حوله، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾^(٢).

وهناك آية أخرى تُبيّن النعم المادية لله عزّ وجل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ومن خلال الالتفات إلى هذه الآيات، نجد أنّ القرآن يتوقّع من الإنسان أن يتّجه نحو المسير الصحيح للهداية كنتيجة لاطّلاعه والتفاته إلى النعم.

٢. الالتفات إلى حقيقة المعصية وخطرها

إنّ الأفراد الغافلين غيرُ مطلّعين على عمق الفاجعة التي وراء مخالفة أوامر الله، فإنّ المعصية تمنع تكامل الإنسان ورُقّيه المعنوي في كلّ مرحلةٍ من مراحل تكامله

(١) أنظر: شجاع، محمّد، مقالات: ج ٢، ص ٣٩.

(٢) الأنعام: آية ١١٢.

(٣) البقرة: آية ٢٢.

التي يكون فيها، يقول تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ﴾^(١).

٣. تعظيم الحق

لقد عدَّ القرآن في سورة الحج الغفلة والجهل عاملين لعدم معرفة قدر الله وعظمته، قال تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢).

٤. معرفة النفس الأمارة

كيف يُمكن للشخص الذي يكون تحت وطأة النفس الأمارة ويتلذذ باتباعها أن يلتفت إلى قبحها؟! فالإنسان إنما يلتفت أصلاً إلى النفس الأمارة وأوامرها حينما يخرج من لباس المعصية، وليس هناك من سبيل للخروج من عدم المعرفة هذا إلاّ الفرار من المعصية، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا^(٤).

٥. الاهتمام بالوعيد الإلهي

إنّ الشخص الغارق في المعصية والغارق في الجهل، لا يُبرز أيّ عناية أو اهتمام في قبال تهديدات القرآن فيما يتعلّق بجَهَنَّمَ والعذاب، ومثله كمثّل الشخص النائم الذي إذا استقرت البعوضة على صدره، فإنّه لا يقوم بأيّ ردّة فعلٍ إلاّ إذا استيقظ؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن يصف المصلّين المؤمنين بما يلي: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ^(٥) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ^(٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ^(٧)﴾. فإذا لم يُصدّق الإنسان بيوم القيامة، ولم يكن له إيمانٌ به ولا اطلاعٌ عليه، ففي هذه الحالة سيّرى أنّه في أمانٍ من العذاب الإلهي.

(١) الأعراف: آية ٣٠.

(٢) الحج: آية ٧٤.

(٣) الكهف: الآية ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) المعارج: آية ٢٦ - ٢٨.

٦. معرفة قيمة الوقت

إنّ الشخص الذي يقضي وقته في الغفلة دائماً ليس له أيّ اهتمام بقيمة الوقت والخسارة التي لحقته بسبب تضييعه له، أمّا الإنسان اليقظ فلا يُسوّف في تنفيذ تكاليفه الأخلاقية والدينية، بل يستغلّ كلّ لحظة في سبيل كمال نفسه؛ ومن هنا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يُبيّن طلب أصحاب القلوب اليقظة في دعاء كميل بالنحو التالي: «يا ربّ يا ربّ يا ربّ، أسألك بحقّك وقُدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك مَعْمُورَةً، وبخدمتك مَوْصُولَةً حتّى تكون أعمالي وأورادي كلّها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً»^(١).

التوبة من ثمار المعرفة وأصل الاختيار

حينما يصل الإنسان في مسيره الأخلاقي إلى المرحلة الأولى، يعني: (اليقظة) والصحوّة، ويلتفت إلى وضعه الحساس، فإنّه يُبادر إلى الخطوة الثانية من خطوات مسيره، ألا وهي (التوبة) من الغفلة والمعاصي، ومن الجدير بالذكر أنّ الاختيار في جميع هذه المباحث هو أساس التصرفات والعمل، سواءً أكان بصورة جزئية أم عامّة، وإلّا فالعمل مع الإجبار والإكراه لا قيمة له من الناحية الأخلاقية. ومن هنا؛ فالعاصي بما أنّه يرى نفسه مختاراً في المعصية التي قام بها، يعزم على تداركها، وبالتالي فعزم العاصي على التوبة هو فرعٌ عن إرادته السابقة.

مفهوم التوبة

يعتقد اللغويون فيها يتعلّق بالتوبة، بأنّها تُقال للعودة عن المعصية^(٢)؛ فقد قالوا

(١) القمّي، عبّاس، كليّات مفاتيح الجنان: ص ٦٦.

(٢) أنظر: دهمخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ١١، ص ١٠٧٩.

في تعريفها: «التوبة في اللغة: الرجوع، وفي الشرع: الندم على المعصية من حيث هي معصية، مع عزم ألا يعود إليها إذا قدر عليها»^(١).

حقيقة التوبة

يقوم الإنسان في المرحلة الثانية من تكامله بالتوبة، كما أنه يصمم في المقام بشكل قطعي - مضافاً إلى حياته ممّا فعل - بعدم العودة إلى الذنوب مرةً أخرى، وهو يُثبت بذلك خروجه من الغفلة وجدّة الحركة في مسير هدايته، وبالتالي فإنّ التدقيق في المعنى الاصطلاحي أعلاه يجعلنا نستنتج أنّ التوبة في الواقع تتكوّن من عدّة أمور، هي: (العلم، الحالة، العمل)، وهي ترتّب بهذا الشكل الواحدة تلو الأخرى؛ ولذا قيل: إنّ حقيقة التوبة مجموعة مركّبة من ثلاثة أمورٍ مترتبة؛ بمعنى أنّ كلّ واحدةٍ تتحقّق تلو الأخرى، واللاحق يحصل بنحوٍ مترتبٍ بعد السابق، وهذه الأمور الثلاثة عبارة عن: (العلم) و(الحالة) و(العمل)، يعني في البداية يجب على العاصي أن يكتسب المعرفة ويصبح لديه (علم) ويقين قطعي بأنّ المعاصي مثل السموم المهلكة، ومن الطبيعي أنّه بعد أن يعلم بذلك فسوف يحصل لديه (حالة) من الخجل والندم في قلبه، وطبعاً بعد هذه الحالة من الاستيحاش، سيعقد العزم على معالجة ما حصل ودفع هذا البلاء، وسيقوم باهتمامٍ شديدٍ لأن يعمل، وفي مقام (العمل) سوف يلتفت إلى ثلاثة أزمنة: (الحاضر) و(الماضي) و(المستقبل)، فيمتنع بالنسبة للزمان الحاضر عن القيام بالمعاصي، وسيعزم بالنسبة للمستقبل عزمًا قاطعاً [على الطاعة وعدم المعصية]، كما أنّه سيتوب ويتدارك ما فاتته في الماضي^(٢).

(١) التهانوي، محمّد علي بن علي، كشّاف اصطلاحات الفنون: ج ١، ص ٢١٩.

(٢) أنظر: ضياء آبادي، محمّد، توبه يا شرح دعاى ٣١ صحيفه سجاديّه [= التوبة أو شرح الدعاء ٣١ من الصحيفة السجادية]: ص ١٢٧.

شروط التوبة

١. الندم على فعل المعاصي

لا معنى لمفهوم التوبة بدون الندم على الماضي، فالشخص الذي لا ينزعج من عمله كيف يُريد أن يتراجع عن الماضي، وأن يُغيّر مسيره؟! فيقول أمير المؤمنين عليه السلام: «التوبة على أربعة دعائم: ندم بالقلب [أي: وليس باللسان فقط] و...»^(١).

٢. الامتناع عن المعصية بسبب قبحها

إذا تاب شخصٌ ولكنّه لم يمتنع عن ارتكاب المعصية أو المعاصي التي قام بها سابقاً، فسوف لن يحصل من خلال هذه التوبة عودةٌ ورجوع؛ يعني في الحقيقة لم يقع منه مفهوم التوبة؛ ولذا يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «أما علامة التائب، فأربعة: النصيحة لله في عمله، وترك الباطل، ولزوم الحق والحرص على الخير»^(٢). ومن هنا؛ فإنّ (ترك المعصية) من علامات التوبة الواقعيّة، والشخص الذي ليس لديه هذه العلامة، لا يصدق عليه مفهوم (التائب).

٣. العزم على عدم العودة

إنّ العاصي الذي عقد العزم بعد التوبة على أن يُعاود القيام بالمعصية مرّة أخرى، لم يتب في الواقع؛ لأنّ (التوبة) تعني الرجوع، في حين أنّه عازمٌ على البقاء في نفس المكان الذي كان فيه؛ ومن هنا فإنّ أحد شروط (التوبة) وأركانها، هو العزم على عدم الرجوع إلى الحالة السابقة.

لكن بالطبع إذا قام بعد التوبة في بعض المواطن بارتكاب معصيةٍ أو خطأٍ فإنّه

(١) محمّدي الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج ١، ص ٥٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٤٢.

يُسارع للتوبة مرةً أخرى، وهذا الأمر يختلف عن حالة عزمه على العودة إلى المعصية والاستمرار بالأخطاء السابقة؛ وهذا هو سبب تفسير روايات المعصومين عليهم السلام (التوبة النصوح) الواردة في سورة التحريم، بمعنى: (العزم على عدم العودة إلى المعصية)، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾^(١). وقد ورد في الرواية أنه سُئل الإمام علي عليه السلام: ما هي التوبة النصوح؟ فأجاب عليه السلام: «ندمٌ بالقلب، واستغفارٌ باللسان، والقصد على أن لا يعود»^(٢).

٤. تدارك الأعمال عند الإمكان

إنَّ باب التوبة مفتوحٌ لجميع عباد الله، ولكن لا يعني ذلك أن يتجاوز الإنسان على أعراض الناس وأموالهم وأرواحهم، ثمَّ تُغفر له تلك المعاصي بتوبةٍ واحدةٍ، وإنما السبيل الواقعي للعودة بالنسبة لشخصٍ كهذا يكون عبر تدارك المقدار الذي يُمكن تداركه من الأخطاء الماضية. ومن هنا؛ فإذا كان قد أخذ مال شخصٍ آخر بدون إجازةٍ شرعيةٍ منه، فعليه أن يُعيده، وإذا كان قد ترك عبادةً واجبةً، فعليه أن يقضيها، وما إلى ذلك من التدارك، قال الله عزَّ وجل: ﴿فَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾^(٣). وقد بيّن القرآن مسألة إصلاح الماضي وتداركه بعد التوبة في عددٍ من الآيات، وكذلك تمت الإشارة إلى هذا الأمر في الروايات أيضاً.

فعن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله: «التائب إذا لم يستبِ عليه أثرُ التوبةِ فليس بتائبٍ: يُرضي الخُصماءَ، ويُعيدُ الصَّلواتِ، ويتَواضعُ بينَ الخَلقِ، ويتَّقِي نَفْسَهُ عن الشَّهواتِ، ويُهزِلُ

(١) التحريم: آية ٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٥٣.

(٣) المائدة: آية ٣٩.

رَقَبَتُهُ بِصِيَامِ النَّهَارِ»^(١).

مراحل العودة في التوبة

كما أشير سابقاً فإنّ التوبة تعني (العودة)، ومراحل هذه العودة وكيفية تَعُدُّ من المسائل المهمّة في مجال الأخلاق، وقد ذكر العلامة الطباطبائي في ذيل البحث عن آيات التوبة ما يلي: هناك ثلاثة رجوعات في التوبة الواحدة، يرتبط بعضها مع البعض الآخر إلى أن تحصل تلك التوبة^(٢)، وهذه المراحل الثلاثة من الرجوع هي كالتالي:

١. لطف الله

الرجوع الأوّل هو نزول رحمة الله من خلال غفران الذنوب وإزالة ظلمة المعصية عن قلب العاصي؛ ومن هنا فنفس رسالة الله هذه التي في القرآن مبنية على دعوة العصاة إلى المغفرة والعفو، وهي رجوعٌ من الله إلى عباده، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾^(٣).

٢. عودة العبد إلى الله

المرحلة الثانية لتحقيق (التوبة) هي عودة العبد نحو الله، فالعبد الذي فرّ من عبوديّة الله، وذهب باتجاه الشيطان، يرجع - في هذه المرحلة - إلى الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

(١) المصدر السابق: ص ٥٤٨.

(٢) أنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٤، ص ٢٤٦. [تجدر الإشارة إلى أنّنا لم نجد نصّ العبارة المذكورة في المصدر المذكور، وإن كان بالإمكان تصيّد هذا المعنى ممّا ذكره العلامة ^{عليه السلام} (م)].

(٣) المؤمن: آية ٣.

(٤) الأعراف: آية ١٤٣.

٣. عودة الله إلى عبده ليقبله

في البداية وعد الله عز وجل العبد العاصي بالمغفرة والعفو، ودعاه إليه، وفي المرتبة الثانية تاب العبد الخاطيء بموجب دعوة الله له ورجع إليه، وفي المرحلة الثالثة يقبل الله عز وجل - بحسب وعده الذي أعطاه - توبة عبده، فيلطف به، فيقول تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

الاستقامة في التوبة

يتوب المسلمون في الحالات المختلفة عن تصرفاتهم الخاطئة وعن معاصيهم، ولكن التوبة ليست بنفس المستوى عند الجميع، فهم مختلفون من ناحية رتبة توبتهم وطبقتها، وقد قسّم الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين الناس إلى أربعة طبقات من حيث توبتهم^(٢):

١. الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي، ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يُحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه، واسم هذه التوبة (التوبة النصوح)، واسم هذه النفس (النفس المطمئنة).

٢. الطبقة الثانية: التائبون الذين هم في طبقة أقل من الطبقة الأولى، وهم من سلك طريق الاستقامة في أمّهات الطاعات، وترك كبار الفواحش كلّها، ولكن ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمدٍ وتجريدٍ قصيدٍ، ولكن يُبتلى بها من غير أن يُقدّم عزمًا على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف، وجدّد عزمه على أن يحترز عن أسبابها التي تُعرّضه لها، ونفس هؤلاء الأفراد في

(١) النساء: آية ١٧.

(٢) أنظر: الغزالي، محمد، إحياء علوم الدين: ج ٤، ص ٤٣.

مرتبة (النفس اللوامة).

٣. الطبقة الثالثة: التّوّابون الذين يتوب أحدهم ويستمرّ على الاستقامة مدّة، ثمّ تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيُقدّم عليها عن صدقٍ وقصد شهوةٍ، لعجزه عن قهر الشهوة، إلّا أنّه مع ذلك مواظبٌ على الطاعات، وتاركٌ جملةً من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنّما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يودّ لو أقدره الله تعالى على قمعها، وكفاه شرّها، هذه أمنيته في حال قضاء الشهوة، وعند الفراغ يندم ويقول: ليتني لم أفعله، وسأتوب عنه، وأجاهد نفسي في قهرها. لكنّه تُسوّل له نفسه، ويسوّف توبته مرّةً بعد أخرى، ويوماً بعد يومٍ، فهذه النفس هي التي تسمّى (النفس المسوّلة).

وقد بيّن القرآن حالة هذه المجموعة بالنحو التالي: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾^(١).

٤. الطبقة الرابعة: وهم التائبون الذين يتوب أحدهم ويجري مدّة على الاستقامة، ثمّ يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يُحدّث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسّف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتّباع شهواته، فهذا من جملة المصرّين، وهذه النفس هي (النفس الأمّارة)، ويُخاف على هذا سوء الخاتمة.

الذكر ودوره الحيوي والمهمّ

إنّ الإنسان الذي تاب بعد مرحلة الخروج من الغفلة، يحتاج بصورة شديدة إلى (ذكر) الله، سواءً من أجل ماضيه أم من أجل مستقبله؛ فأما بالنسبة لماضيه فلن يتمكّن من الحفاظ على يقظته وتوبته إلّا بذكر الله، وأما بالنسبة للمستقبل فهو لازمٌ كي لا يسقط في بوتقة الظلمة من جديدٍ، فعليه أن يستعيد الله من ذلك.

(١) التوبة: آية ١٠٢.

إنَّ ما يُواجهه الإنسان في سلوكه سبيل التكامل الصعب والحساس، لا يتيسر إلا من خلال الاستعانة بذكر الله عزَّ وجلَّ؛ ولذا يجب على الإنسان أن يكون متذكراً لله عزَّ وجلَّ، وأن لا ينسى في أيِّ وقتٍ من الأوقات مسؤوليته وعبوديته قبال الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ أيَّ شخصٍ ينسى الله، فإنَّما يكون قد نسي نفسه. وبناءً على هذا؛ فالخطوة الثالثة للتكامل هي (الذكر).

يُطلق الذكر في اللغة العربيَّة على معانٍ مختلفة، ولكن يُمكن القول: إنَّ جذر جميع هذه المعاني يُعادل كلمة (ياد) في الفارسية، التي تعني (التذكُّر)؛ فتذكُّر الشخص أو الشيء لا يمكن أن يحصل إلا في القلب، وأحياناً يسري من القلب إلى اللسان أيضاً، وقد أطلق القرآن الكريم كلمة (الذكر) على الكتب السماوية وعلى شخص الأنبياء أيضاً؛ لأنَّ الناس عندما تقرأ هذه الكتب، وترى الأنبياء تتذكَّر الله (وكما يقول أهل الأدب لعلاقة السببية بينهما)^(١).

إنَّ الذكر يُقابل (النسيان)، وأحياناً يُقابل (الغفلة)، وحينما ترتفع الغفلة وتصل التوبة إلى مرحلة اليقظة - ويُهَيَّئُ الإنسان الأرضية من خلال التوبة - يجب عليه أن يُحافظ على هذه المكتسبات المهمة جدًّا، وأن يترقَّى أكثر من ذلك. وإنَّما يتيسَّر الحفظ والترقي من خلال (الذكر) الذي هو ذكر الله؛ ولذا نجد العديد من الآيات توصي بالذكر، فيقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢).

ويُستفاد من هذه الآية بوضوح أنَّه ينبغي على الإنسان دائماً في مسير تكامله أن يكون ذاكرةً لله تعالى في كلِّ حالٍ، ولو أنَّه ترك هذا (الذكر) فإنَّ (الغفلة) سوف

(١) انظر: مصباح يزدي، محمد تقي، بر درگاه دوست [= على عتبة الحبيب]: ص ٢٠٩.

(٢) الأعراف: آية ٢٠٥.

تسارع بالعودة إليه، وتُعيده إلى ما قبل المرحلة الأولى (أي: اليقظة)، والقرآن الكريم يُحذّر من خطورة الغفلة عن ذكر الله بالنحو التالي: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

وبناءً على هذا؛ فإن أرضية الهداية تزول تماماً من خلال نسيان ذكر الله؛ وذلك لأنّه - وكما تُبيّن الآية أعلاه - سوف ينسى الإنسان في هذه الحالة نفسه، والشخص الذي ينسى نفسه لن يلتفت إليها بعد ذلك، فما بالك بالعمل على إصلاحها وتكاملها.

مراتب الذكر

إنّ الذكر مفهومٌ (مُشَكِّكٌ)^(٢)، وله مراتب مختلفة، تتسم بالضعف والشدة، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة حيث قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَّتُمْ مِّنْكَ كُفُّوا أَلَّهُ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^(٣). فنجد في هذه الآية أنّ لفظة الشدة - التي هي من خصوصيات المعنى وليس اللفظ - تُبيّن أنّ (الذكر) الحقيقي أحياناً يكون شديداً وأحياناً أخرى يكون ضعيفاً، والذكر هو حضور المعنى في الذهن؛ ولذا قيل: «إنّ حقيقة الذكر عبارة عن التوجّه القلبي للإنسان تجاه ساحة القدس لله عزّ وجلّ، وإذا أطلق على الذكر (اللفظي) عنوان الذكر أيضاً؛ فذلك لأنّ الذكر اللفظي من آثار الذكر القلبي؛ يعني: الحديث حول أمرٍ ينشأ عن ذكر ذلك الأمر في القلب، وإلا فالذكر الحقيقي هو الذكر القلبي وتوجّه القلب نحو الله عزّ وجلّ»^(٤).

(١) الحشر: آية ١٩.

(٢) [مصطلح المفهوم مُشَكِّكٌ هو مصطلحٌ منطقيٌّ، ومعناه أنّ هذا المفهوم ينطبق على مصاديق مختلفة الدرجات والمراتب، كما في مفهوم النور والبياض، فهناك درجات من النور والبياض]. (م)

(٣) البقرة: آية ٢٠٠.

(٤) ديلمى، أحمد، وآذربايجاني، مسعود، اخلاق اسلامي [= الأخلاق الإسلامية]: ص ٤٧.

كما أشرنا سابقاً، فإنّ للذكر درجاتٍ ومراتبٍ، وقد عدّ بعض علماء الأخلاق للذكر أربعةً مراتب ودرجات، وهي:

١. الذكر باللسان بحيث يكون القلب غافلاً عنه، وأثر هذا الذكر سيكون قليلاً في التكامل المعنوي للإنسان.

٢. الذكر الذي يكون في القلب، ولكن لا يكون ثابتاً ومستقراً، بحيث ينبغي العمل للحفاظ على القلب وجعله يعيش حالة الذكر.

٣. ذكر الله يكون ثابتاً في القلب، بحيث يصعب أن يُشغَل عنه بشيءٍ آخر.

٤. ألا يكون في قلب الإنسان شيءٌ غير الله، فلا يجد الإنسان فيه غير ذكر الله، وهذا هو (الفناء في الله) ^(١).

التوكل

وفي ظلّ الذكر والمداومة على ذكر الله، يصل الإنسان إلى مرتبةٍ ينبغي له أن يتّخذ الله وكيلاً من أجل صونه عن خواطر النفس والشيطان، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ^(٢).

مفهوم التوكل

لقد عرّف اللغويون التوكل بما يلي: «التوكل: إظهار العجز والاعتماد على غيرك» ^(٣). و«الاتكاء والاعتماد على شخصٍ والاعتراف بالعجز» ^(٤).

ويُعتبر التوكل من المفاهيم الأساسية في علمي الأخلاق والعرفان؛ ومن هنا

(١) أنظر: الغزالي، محمد، كيمياء سعادته [= كيمياء السعادة]: ج ١، ص ٢٥٤.

(٢) المزمل: آية ٩.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١١، ص ٧٣٦.

(٤) دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ١١، ص ١١٣٥. نقلاً عن (منتهى الأرب).

قيل: إن هذا المصطلح أخلاقيّ وعرفانيّ، وهو أن لا يحيل الإنسان الأعمال إلى القدرة والكفاية البشريّة، وأن لا يجعل لرأي الخلق ورؤيتهم مجالاً للتصرّف فيها، وأن لا يطلب الزيادة والنقصان ولا التعجيل والتأخير، وأن لا يرغب بخلاف ما هو موجود. وهو برأي العرفاء عبارة عن زيادة تعلّق القلب بتلك الذات المتفرّدة^(١).

فلسفة التوكّل

يجلبُ التوكّل على الله - الذي هو مصدر القوّة والقدرة التي لا تفنى - العديد من الثمار في حياة الإنسان، وأحد هذه الثمار هو زيادة مقاومة الإنسان للمشاكل الداخليّة والخارجيّة، حيث يُستفاد من آيات القرآن الواردة في باب التوكّل أنّ المراد منه هو عدم الشعور بالحقارة والضعف قبال عظمة المشاكل والمصائب؛ لأنّ الاعتماد على القدرة الّلا متناهية لله عزّ وجلّ سوف تؤدّي إلى النجاح والفتح في الميادين المختلفة؛ ومن هنا فالتوكّل يؤدّي إلى حصول الأمل، ويمنح الطاقة، ويُقوّي الإنسان، ويؤدّي إلى زيادة الثبات والمقاومة. ويمكن اعتبار إشارة القرآن إلى قصّة معركة أحد شهادة على ثمار التوكّل على الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢).

إنّ الأثر الثاني للتوكّل هو تخلص الإنسان من التعلّقات التي تكون منشأً للذلّة والعبوديّة، فالتوكّل عبارة عن الاحتماء بالمظلة الحامية للقدرة المطلقة لله، والتحرّر من سلطة القوى المادّيّة الفانية؛ ولذا فالشخص المتوكّل يعتمد على نفسه، ويتمسك بذكر الله من أجل استمرار سلوكه في طريق الهداية، فإنّ الاعتماد على الله يُنمي روح التوحيد في وجود الإنسان ويُضاعف اليقين به.

(١) المصدر نفسه.

(٢) آل عمران: آية ١٧٣.

ويُعدّ التوكّل من المفاهيم الواسعة جدّاً في الأدب الروائي، فهناك العديد من الروايات عن الأئمة عليهم السلام في باب التوكّل، قد تعرّضت لمفهومه وتعريفه وإطاره والهدف منه ونتائجه، ومن بينها أنّ النبي صلى الله عليه وآله سأل جبرائيل: «مَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يُعْطَى وَلَا يَمْنَعُ، وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ لَمْ يَعْمَلْ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ، وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللَّهِ»^(١).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧١، ص ١٣٨.

الفصل الخامس

القبول بالحسن والقبح العقليين

ومراعاة الحسن الفعلي والفاعلي

الحسن والقبح العقليان

إنّ الحسن والقبح العقليّين من المباحث المهمّة والأساسيّة في العلوم الإسلاميّة بما في ذلك علم الأخلاق، ولذلك لا بدّ لنا في بداية هذا الفصل من البحث حول منزلة القبول أو عدم القبول بهذه القاعدة الكلاميّة في مجال الأخلاق، وكذلك البحث في نتائج القبول بهذه القاعدة في الأخلاق العمليّة.

تنقسم أعمال الناس بتقسيمٍ كلٍّ إلى قسمين: حسنة وقيحة، ويجري هذا التقسيم على أساس الملاكات التي لوحظت في الحسن والقبح العقليّين. وليّان مفهوم كلّ واحدة من هاتين المفردتين، سنذكر أربعة ملاكات [الحسن العمل وقبحه] استخدمت في المواطن المختلفة:

١. موافقة الطبع: من ملاكات الحسن والقبح موافقة الفعل للطبع وعدمها؛ ولذلك نرى أنّ جميع الأفراد يرغبون في العدل وحفظ الأمانة والعمل بالميثاق وشكر النعمة، ويفرّون من ضدها.

٢. ملاك المصلحة والمفسدة: بناءً على هذا الملاك فكلّ فعل يُؤمّن المصلحة فهو

حسنٌ، وما ليس كذلك فهو قبيح عقلاً، وينبغي الحكم على الأفعال ووصفها بالحسن والقبح العقليين من خلال المصالح النوعية لا المصالح الشخصية.

٣. موافقة الكمال النفسي: فصفت الإنسان تنقسم إلى قسمين: أحدها صفات كمالٍ يُرغب إليها، والأخرى صفات نقصٍ يُنفر عنها؛ فالشجاعة مثلاً كمالٌ نفساني مطلوب للإنسان كما أنَّ الجبن هو نقصٌ نفساني مبعوض له، والفعل إذا كان محصلاً للكمال فهو موصوف بالحسن، وإلا فهو قبيحٌ.

٤. موافقة العادات والتقاليد ومخالفتها: إنَّ لكلِّ قومٍ عادات وتقاليد تخصَّهم، والحسن والقبح - في المقام - ينبغي أن يُفسَّرا بناءً على هذا الملاك، فيُقال: الحسن هو ما وافق من الأفعال للعادات والتقاليد ويقابله القبيح الذي يُخالفها^(١).

ومن الجدير بالذكر أن القسم الرابع المتعلِّق بالأفعال الاختيارية وحتى الأحكام التكليفية يرتبط بنحوٍ من الأنحاء بمجال الأخلاق، على الرغم من أنَّ مدى الأفعال الأخلاقية أوسع من نطاق الأحكام التكليفية، أو على الأقل تُعدّ الأحكام دعامةً ثابتةً للأداب الأخلاقية.

منشأ الأحكام الأخلاقية وكيفيةها

لقد تشكَّلت في العالم الإسلامي ثلاثة مذاهب كلامية كبيرة، هي: الأشاعرة والمعتزلة والعدلية^(٢)، وكلٌّ واحدٍ من هذه المذاهب له رؤيةٌ خاصَّةٌ تتعلَّق بالحسن والقبح العقليين، فالأشاعرة يعتقدون في هذا الخصوص بأنَّ منشأ الأحكام الأخلاقية ينبغي أن يكون موجوداً رفيعاً وأعلى من الإنسان؛ حتَّى يكون بيده صلاحية الأمر

(١) أنظر: السبحاني، جعفر، رسالة في التحسين والتقبيح العقليين: ص ٢٧.

(٢) [هكذا ورد في أصل الكتاب، ولعلَّه من سهو القلم، ولعلَّه أراد فقط الأشاعرة والعدلية (الذين هم المعتزلة والشيعة)، أو أراد الأشاعرة والمعتزلة والشيعة]. (م)

والنهي بنحوٍ مناسبٍ، وهذا الموجود الرفيع هو الله تبارك وتعالى، ولا يُمكن أن نجد أيّ واقعيّة خارجيّة [لحسن الأفعال وقبحها] وراء حكم الله وإرادته.

وقد وُضّحت نظريّة الأشاعرة في كتاب فلسفة الأخلاق بما يلي: إنّ السبب وراء كون بعض الأفعال ممدوحةً وبعضها الآخر مذمومةً ليس سوى أنّ الله أمر بالفئة الأولى ونهى عن الفئة الثانية. وبعبارةٍ أخرى: إنّ ملاك الحُسن والقُبْح ليس إلّا أمر الله تعالى ونهيه، ومع غُصّ النظر عن أمره ونهيه فلا وجود للحُسن والقُبْح؛ ولذلك قيل: إنّ الأشاعرة يُنكرون الحُسن والقُبْح الذاتيّين للأشياء؛ لأنّ الأشياء ليس لها في ذاتها جهاتٌ حسنٍ وقبحٍ، بحيث تُثبت الحُسن أو القُبْح لعملٍ من الأعمال، كذلك لا يُمكن الاستناد إلى الواقعيّات العينيّة، فمثلاً: لا يُمكن من أجل إثبات قبح الكذب أن نعتمد على واقعيّة أنّ الكذب يُضعف ثقة الناس ببعضهم البعض، وعدم ثقة الناس ببعضهم البعض يؤدي إلى اختلال نظام المجتمع واضطرابه... بل يكفي هذا الطريق، وهو الطريق الوحيد لإثبات قبح الكذب. ومن هنا فمع غُصّ النظر عن أمر الله ونهيه، لا يُمكن للعقل أن يفهم حُسن الأشياء وقُبْحها؛ ولذا قيل: الأشاعرة يُنكرون الحُسن والقُبْح العقليّين للأشياء^(١).

ونحن بدورنا سوف نتعرّض هنا إلى دراسة نظريّة الأشاعرة حول الحُسن والقُبْح العقليّين ونقدّها.

إنّ أفعال الإنسان على نوعين:

١. غير الاختياريّة؛ من قبيل أفعال الفرد الغافل والساهي.

٢. الاختياريّة.

والأفعال الاختياريّة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، هي:

(١) أنظر: عابدي، أحمد، فلسفه اخلاق [= فلسفة الأخلاق]: ص ٤٩.

القسم الأول: الأفعال المأمور بها والتي ينبغي القيام بها، ويستحق فاعلها الثناء، وتُسمّى الأفعال من هذا النوع التي يُستحسن القيام بها مع جواز تركها بالمستحبات، وأمّا إذا كان تركها غير جائز؛ فتُعَدّ من الواجبات.

القسم الثاني: الأفعال المنهي عنها والتي لا ينبغي القيام بها، ويُذمّ فاعلها على فعلها، والقسم الثاني على نحوين أيضاً:

١. المكروهات، وهي الأفعال التي يُفَضَّل اجتنابها، وفي نفس الوقت يجوز القيام بها.

٢. المحرّمات، وهي الأفعال التي لا يجوز القيام بها.

القسم الثالث: ما يتساوى فيه الفعل والترك، وفي هذه الحالة يُسمّى المباح، ويظهر من أدلّة الأشاعرة أنّهم يُنكرون الحسن والقبح العقليّين مطلقاً، لا سيّما لو لاحظنا كلام القوشجي في شرح التجريد، حيث يقول: «الحسن ما حسنه الشارع والقبيح ما قبحه الشارع»، ولكن باعتقادنا - وخلافاً للرأي المشهور ولرأي القوشجي - أنّ الأشاعرة لا يُنكرون الحسن والقبح العقليّين مطلقاً، فبعض المصادر - من قبيل شرح الخوانساري على شرح تجريد الاعتقاد للطوسي - تعتقد بأنّه إذا قسّمنا الأفعال إلى أربعة أقسام، فيمكن إطلاق الحُسن والقُبْح على أحد الأقسام الأربعة:

١. ما يُطابق الطبع (حُسْنٌ)، وما يُنافر الطبع (قُبْحٌ)، مثل: الطَّعم والرائحة والأمور التي تعجب الأفراد أو يتنفّرون منها.

٢. الموافقة مع كمال النفس والمخالفة لكمال الإنسان، مثل: العلم والجهل.

٣. الموافقة والمخالفة مع الآداب والعادات والرسوم.

٤. الموافقة والمخالفة مع المصالح والمفاسد نفس الأُمريّة التي يترتّب عليها ثواب الله وعقابه.

والظاهر أنّه لا خلاف بين الأشاعرة والعدليّة في الأقسام الثلاثة الأوّل، وإنّما

حلّ النزاع والاختلاف بينهم في القسم الرابع، حيث إنّ الأشاعرة يقولون: بأنّه لا يعرف أحد المصلحة والمفسدة الواقعيّة ونفس الأمريّة إلّا الله، وبناءً على ذلك فالحسن والقبح التابعان للمصالح والمفاسد نفس الأمريّة، إنّما تتبع أمر الشارع ونهيه، وليس هناك مدح أو ذمّ ذاتيّ للأشياء، بل يتعلّقان بأمر زائد، أي: بنفس أمر الشارع ونهيه، وإذا كان الأمر كذلك، يصبح النزاع بين الأشاعرة والعدليّة لفظيّاً، وما يقوله الأشاعرة حين يقولون: «الحسن ما حسنه الشارع والقبح ما قبحه الشارع» في نهاية الإلتقان، ولا شكّ في أنّ الثواب والعقاب والمدح والذمّ والجنة والنار إنّما تتعلّق بعبوديّة العباد وإطاعة الناس، وبالنسبة لله فالحقيقة هي أنّه (لا مؤثّر في الوجود إلّا الله)^(١).

[وقد ورد في الشعر الفارسي ما مضمونه: إنّ هدفنا من الصلاة هو التحدّث في سرّنا مع الله عن ألم فراقه. وإلّا فأيّ صلاة هي هذه الصلاة بحيث يجلس الإنسان مع الله في المحراب، ولكن يكون قلبه في السوق]^(٢).

وأما المعتزلة والإماميّة فقد وقفا في الموقف المقابل للأشاعرة فيما يتعلّق

(١) يُلاحظ على ما ذكر أنّه يجب التفريق بين كون الثواب والعقاب تابعين للأمر والنهي الشرعيين، وبين كون الأفعال حسنة أو قبيحة، فما يقوله الأشاعرة هو أنّ وصف الأفعال بالحسن والقبح يدور مدار الأمر والنهي الشرعيين، بغض النظر عن امتثالها، أما استحقاق العقاب والثواب والجنة والنار، فهو مترتب على امتثال الأوامر والنواهي الإلهيّة، ولا يختلف كلّ من الأشاعرة والعدليّة على استحقاق الثواب والعقاب للمطيع والعاصي، بل هم متفقون على أنّ الله لا يأمر إلاّ بالحسن، ولا ينهى إلاّ عن القبيح، لكن خلافتهم في هل أنّ المأمور به حسن قبل الأمر به، أم وصف بالحسن لأجل الأمر به؟. (خ).

(٢) مرا غرض زنهاز اين بود كه پنهانی حديث درد فراق تو با تو بگذارم
وگر نه اين چه نماز است كه من با تو نشستہ روی به محراب ودل به بازارم

بموضوع الحُسن والقُبْح العقليّين، وبناءً لاعتقاد هذه المجموعة، فالحُسن والقُبْح لا يُقيّمان بناءً على الأوامر والنواهي الصادرة من الله عزّ وجلّ، بل يعتقد هؤلاء بأنّ أوامر الله ونواهيه إنّما تحكي عن واقعيّة في الخارج اسمها الحُسن والقُبْح، فلم يتردد الفلاسفة المسلمون أبداً في أنّ هناك واقعيّة للخير والشرّ، وأنّه يُمكن الاستدلال والبرهنة على ذلك؛ ومن هنا نقول في نقد نظريّة الأشاعرة ما يلي: ما الدليل على أنّ طاعة الله أمرٌ حسنٌ؟ فإذا قالوا: دليله هو أمرٌ آخر لله، عندها فسوف يُؤدّي ذلك إلى التسلسل. والإشكال الثاني هو أنّ الموضوع يجب أن يكون موجوداً دائماً قبل الحكم، وبناءً على نظريّة الأشاعرة الموضوع غير موجود، ولا ضرورة له.

ولكن بناءً على الآيات الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(١)، و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾^(٢)، و﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾^(٣)، فيجب في البداية أن يكون هناك حُسنٌ وقُبْحٌ مع قطع النظر عن أمر الشرع ونهيه.

قد يكون بالإمكان القول: بأنّ المصلحة والمفسدة الواقعيّتين هما عبارةٌ عن إطاعة العبد لمولاه، ولا تعود إلى ذات الأشياء، فعلى سبيل المثال: ينقل القرآن بأنّ اليهود أمروا ألا يصطادوا السمك يوم السبت، لكنّهم كانوا يضعون الشباك يوم السبت، ويأتون يوم الأحد فيأخذون الصيد، في حين أنّه في الواقع ونفس الأمر لا يختلف البحر والسمك في يومي السبت والأحد. على أن من ينكر الحُسن والقُبْح الذاتيين والعقليّين لا يُمكنه أن يُثبت حُسن الدين وقول الشارع، كما لا شكّ في أنّه إذا ثبت أنّ الله خيرٌ، فسيثبت أنّه لا يأمرُ بأمرٍ فيه مفسدة، كما أنّه لا ينهى عن أمرٍ فيه

(١) الأعراف: آية ٢٨.

(٢) النحل: آية ٩٠.

(٣) الأعراف: آية ١٥٧.

مصلحة.

الأدلة الشرعية على ضرورة إثبات الحُسن والقُبْح العقليّين

الدليل الأوّل: إنّ إنكار التحسين والتقييح العقليّين ملازمٌ لإنكار التحسين والتقييح الشرعيّين، فإذا كان الحُسن والقُبْح لا يثبتان إلّا بالحكم الشرعي، فسوف ينتفيان بنحوٍ مُطلق، فحينما يُخبر نبيٌّ من الأنبياء بأنّ الكذب قبيحٌ، والصدق حسنٌ، فإذا احتملنا بأنّه هو نفسه يكذب الآن، عندها لن نستطيع أن نعتمد على كلامه، وبالتالي لا بدّ للعقل أن يفهم قُبْح الكذب أولاً كي يحكم بأنّ النبي لا يكذب؛ ولا يُمكن لنا أن نحكم بحُسن شيءٍ ولا قُبْحه بناءً على ما قيل لنا من أنّ الله أخبر بصدق الأنبياء، فمن أين لنا أن نعلم بأنهم لم يكذبوا في هذا الخبر؟! كما أنّه في حال أنّنا أنكرنا الحُسن والقُبْح العقليّين فبناءً على الدليل السابق سيبقى احتمال كذب الله [تعالى عن ذلك علواً كبيراً] قائماً أيضاً.

وباعتقادنا فإنّ هذا الدليل من صالح الأشاعرة، وذلك بالالتفات إلى أنّ العوام أمروا بالرجوع إلى الفقهاء الجامعين للشرائط، ولا شكّ في أنّ الفقهاء لا يحكمون بالواقع، وقد يكون من المحال لغير الشارع أن يحكم بنفس الأمر والواقع؛ ومن هنا فإذا انكشف لفقهاء خلاف الحكم الذي كان يحكم به في أحد الأزمنة، والذي كان يعتقد بأنّ متعلّقه حسنٌ، وأنّ فاعله ممدوحٌ ومُثابٌّ، فالآن بعد أن انكشف له خلافه وتراجع عن حكمه، فإذا كان ذلك الفعل ما زال حسناً، فلماذا تراجع المرجع عن حكمه؟ وأمّا إذا لم يكن حسناً فمن المعلوم بأنّ الأشياء ليس لها حُسنٌ وقُبْحٌ ذاتيّين، بل هي تتوقّف في ذلك على أمر الله ونهيه، وبما أنّ الله أمر الناس باتباع الفقهاء؛ إذاً فبالنسبة للعوام حكم الفقيه وأمره ونهيه هو أمر الله ونهيه؛ ولذا فالأمور التي من قبيل: الثواب والعقاب والحُسن والقُبْح والمدح والذمّ، كلّها

منوطة بأمر الله ونهيه. ولهذا السبب؛ يُقال للشيعة: بأنهم مخطئة وليسوا مصوبة؛ لأنّ المصوبة يقولون: بأنّ الأثر يعود إلى الفعل، وبالتالي فكلّ حكم يحكم به المجتهد على موضوع، فلا شكّ بأنّ أثر الحكم وخاصيته ستُصبح في نفس ذلك الموضوع.

الدليل الثاني: مع إنكار الحُسن والقبح العقليّين، يستحيل إثبات الشرائع، فدعوى الأنبياء هي دعوى كبيرة، ولا يُمكن القبول بها بلا دليل؛ لذا فالأنبياء قرنوا دعواهم بالمعجز، وإذا لم نقبل بالحُسن والقبح العقليّين سنواجه مشكلة؛ لأنّه في هذه الحالة ليس من القبيح أن يمنح الله القدرة على الإعجاز إلى أفرادٍ كاذبين، وبالتالي فيمكن أن يكون النبيّ الذي قام بالمعجزة كاذباً؛ ولذا يُصبح من المستحيل إثبات النبوة.

الدليل الثالث: هذا الدليل من داخل الدين، وبناءً عليه إذا أنكرنا الحُسن والقبح العقليّين فيستلزم ذلك أن نقول بالتصويب لا التخطئة؛ لأنّ الله قال: بأنّ اتّباع الفقيه الجامع للشرائط أمرٌ حسنٌ، وإذا غيّر فقيهٌ من الفقهاء رأيه، فإنّ الفعل الجديد سيُصبح حسناً، مع أنّ الفعل القديم كان حسناً أيضاً، وبالتالي فإنّ الله يُغيّر الواقع بسبب أفعالنا نحن العباد، وهذا مُحالٌ.

الإلزامات الأخلاقية على أساس الملاكات الواقعية

مع الالتفات إلى القبول بمبدأ الاختيار في الأخلاق، وكذلك وجود العلاقة الضرورية بين أفعال الإنسان وبين نتائجها وآثارها، يتّضح أنّ الإلزامات والأوامر الأخلاقية يُمكنها أيضاً أن تُنشأ على أساس ملاكاتٍ واقعيةٍ؛ ولذا قيل: «إنّ الجُمْل الأخلاقية الآمرة [الإنشائية] مثلها مثل الجُمْل الإخبارية يُمكنها أن تكون مدعومة بدعامةٍ واقعيةٍ؛ ولذا يُمكن البحث والتحقيق حول صحّة الأوامر الأخلاقية أو عدم صحّتها، وإذا أصدر شخصٌ أمراً أو ألزَمَ بالزامٍ أخلاقياً بدون أيّ معيارٍ أو ملاكٍ

واقعي، فيمكن اعتبار ذلك الأمر أمراً غير مُبرّر وفاقداً للاعتبار، والنتيجة المترتبة على هذا البحث، هي أنّ الجُمْل الأخلاقية سواءً أكانت على شكل خبرٍ أم كانت إنشائيةً بحسب الظاهر، فإنّها تستبطن في باطنها حقيقةً إخباريةً؛ يعني: منشؤها ليس مجرد الأمر والإلزام المصاحب للميول الداخلية أو التعاقد والاعتبار، بل يُمكن للأحكام الأخلاقية أن تبني على أمورٍ عينيةٍ وواقعيةٍ، وينهار - بناءً على ذلك - الجدارُ الوهميُّ الذي لا يُمكن اختراقه بين القيم والواقعيّات، فالأمور القيّمية - كسائر العلوم الحقيقية - لها القابلية لأن تُحقّق وتُدقّق من الناحية العلمية والعقلية، وأن تكون قابلةً للأخذ والردّ والإثبات النظري^(١).

هذا، ويعتقد الفلاسفة المسلمون بأنّ للخير والشرّ واقعيةً تقبل الاستدلال والبرهنة عليها؛ وفي المقابل يرى الوضعيون بأنّ الخير والشرّ يشبهان الآداب والرسوم ويتبعان سليقة الناس، كما أنّهم يُعرّفون الأخلاق في نطاق العلوم الاجتماعية؛ لذا فهم يعتقدون بأنّه لا يُمكن البرهنة والاستدلال على الأخلاق ولا اختبارها أو تجربتها.

آثار نفي (الحسن والقبح العقليين) في الأخلاق

كما ذكر سابقاً، فإنّ الأخلاق - بناءً على مبنى الأشاعرة وكذلك المعتزلة والإمامية - تبني على الحسن والقبح العقليين، وأنّ الحسن والقبح الشرعيين من لوازمهما التي لا تنفك عنهما. كما أنّ نفي الحسن والقبح العقليين في الأخلاق له تبعات ونتائج مهمّة ومؤثّرة، وأحد تلك النتائج والآثار هو (النسبية في الأخلاق)، والتي يُطلَق عليها في الغرب عناوين مختلفة: كالأخلاق الماكافيلية والوضعية

(١) عابدي، أحمد، فلسفه اخلاق [= فلسفه الأخلاق]: ص ٣٥.

والماركسيّة ...

وأساساً حينما دخلت ظاهرة النسبيّة في الأخلاق، تزلزلت مباحث الأخلاق، وزالت الضمانة الإجرائيّة للأخلاق، حيث إنّه وبناءً على هذه النظريّة فإنّ المبادئ الأخلاقيّة هي عبارة عن أمور نسبيّة لكل فرد؛ لأنّه لم يُعدّ يوجد في الأخلاق أصول ومبادئ ثابتة تبثني على واقعيّات ثابتة بعنوان الفضائل أو الرذائل؛ ومن هنا قيل: إنّ الشخص الذي يعتبر الأخلاق نسبيّة، يجب أن يرى كلّ عملٍ جائزاً، فقد يكون هناك شيءٌ في أحد الأزمنة والأمكنة يُعدّ من (العفّة) أو من المراعاة لحقوق الآخرين، ويُعتبر من ضمن الفضائل الأخلاقيّة؛ ولكن نفس ذلك الشيء يُصبح في زمانٍ آخر ضمن الرذائل، فالوضعيّون والتجريبيّون يرون بأنّ الأخلاق تتبع سليقة الناس؛ وبالتالي فهي نسبيّة، وكلّ ما يراه الناس حسناً يُصبح حسناً، وكلّ ما يعدّونه قبيحاً يُصبح قبيحاً، والماركسيّة هي الأخرى ترى أنّ الأخلاق تتبع الأدوار المختلفة للتاريخ، فالأمانة تُعدّ في حقبة الرأسماليّة أمراً حسناً، ولكنّها ليست حسنة في الحقبة الاشتراكيّة، وكذلك الأمر بالنسبة للعبوديّة أو قوانين الملكيّة. فـ(اسبنسر) كان يعتقد بالنسبيّة أيضاً، ويقول: نحن لا نستطيع أن نختار عملاً بحيث لا يقبل الخطأ أبداً ويكون مقبولاً بنحوٍ مطلق، بل يجب أن نُقارن بين خيره وشرّه، ولكن ليس هناك عملٌ هو العمل الأفضل بنحوٍ مطلق^(١).

على أن من بين الفلاسفة من يعتقد بكون الأخلاق مطلقة، ومن بينهم أفلاطون، فهو من مؤيدي نظريّة الإطلاق، وكان يقول: لا علاقة بين (الخير) وبين رغبات الناس وميوهم، وكذلك (كانت) الفيلسوف الألماني الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي، هو الآخر من المؤيدين لإطلاق الأخلاق، وكان يقول:

(١) أنظر: كوبلستون، تاريخ فلسفة الغرب [الترجمة الفارسيّة]: ج ٨، ص ١٥٦.

المبادئ الأخلاقية ثابتة ولا تتغير في أي ظرف من الظروف، ويجب أن نستبدل سلوكنا الأخلاقي بقانون كلي، وأن يكون قابلاً للإجراء على جميع الناس، فكلية الأخلاق لا تقبل التناقض؛ ولهذا السبب الكذب غير جائز في أي ظرف كان؛ لأنه إذا أخذ الكذب - حتى ما يكون لأجل المصلحة - شكل القاعدة العامة، فسوف يؤدي ذلك إلى سلب الاعتقاد العام [بقبح الكذب ومنعه]، وسيُنقض هذا القانون نفسه بنفسه؛ لأن الكاذب يسعى لاكتساب ثقة الناس، في حين أننا نحتمل في كل كلام نسمعه أن يكون كذباً من أجل المصلحة، وفي هذه الحالة لن تبقى أي ثقة.

وعليه؛ فإن المعيار في المقام يعود إلى كلية الأخلاق وواقعيتها، ولا يمكن أن نحده بحدود خاصة، أو نضع له استثناءات، بل ينبغي أن تُرجح المعايير الأخلاقية على كل شيء دائماً، بحيث يكون للأخلاق الدور الأهم عند التعارض بين المعايير الأخلاقية والمعايير التي هي لباقي المجالات، فالأخلاق إذا كانت مطلقة فسوف تؤمن المنافع النوعية، وإذا كانت نسبية فسوف تؤمن المنافع الشخصية فقط.

الدليل على كون الأخلاق مطلقة

إن علم الأخلاق - كسائر العلوم - ينبغي أن يُراعى فيه مجموعة من الأمور للوصول إلى الهدف الذي يرمي إليه، وهذه الأمور التي هي عبارة عن مجموعة من الواجبات والمنهيات هي التي تُبين أن المواضيع الأخلاقية مطلقة وكلية؛ ولذا قيل: «... إن جميع القضايا الأخلاقية تُصاحبها كلمة (يجب)، وهذه الكلمة تحكي عن الضرورة، وينبغي أن تكون ضرورة كلية».

وثانياً: إذا قلتُ: (أنا لي الحق بالقيام بالعمل الفلاني، وأما أنت فليس لديك الحق بذلك)، فيمكن لك أن تعترض وتقول: هذا الكلام متناقض؛ لأنه يُناقض مبدأ عمومية الأخلاق، فالتعميم يعني أن تقوم بعمل، بحيث إذا كان عملك قانوناً كلياً، لم

يكن متناقضاً، وقد أجيبُ أنا وأقول: إنَّ مقامي وموقعي يختلفان عن مقامك وموقعك، ولكن على كلِّ حالٍ لو لم تكن المقامات والمواقع مختلفةً، لكان هناك تناقض في هذه الجملة: (أنت عليك أن تفي بقولك، ولكن أنا لا ينبغي أن أفي بقولي)، فإنَّ جميع الأفراد لهم حقوق متساوية في الظروف المتساوية، ونحن نتعهد بحفظ حقوق الآخرين ولا يُمكن أن نُحقِّق غاياتنا فقط ولا نعتني بمنافع الآخرين، فيلزم أن يكون الأفراد الآخرون مجازين بالقيام بها في الظروف المتساوية.

ثالثاً: إذا كانت الأخلاق كَلِيَّةً ومطلقةً، فسوف تكون قابلةً للاستدلال والبرهنة، ولكن إذا كانت شخصيةً وجزئيةً، فلن تكون قابلةً لذلك. فالصدق في الدين الإسلامي المقدَّس ممدوحٌ، والكذب مذمومٌ، وقد ذُكرت بعض المواطن التي تُستثنى من هذه القاعدة، ولكن ذلك ليس بمعنى النسبية؛ لأنَّه لا يُبحث في الأخلاق عن قتل النفس مثلاً، وهل هو عملٌ حسنٌ أو قبيحٌ؟ أو أنَّ التكلُّم حسنٌ أو قبيحٌ؛ لأنَّ نفس الموضوعات الخارجيّة ليست موضعاً للبحث الأخلاقي، بل الظلم مثلاً هو موضع البحث الأخلاقي وهو قبيح، وإذا رأينا أنَّ هذا القتل للنفس مصداقاً للظلم فحينها سيكون قبيحاً، وأمّا إذا كان مصداقاً للعدل فهو حسنٌ؛ فنفس قتل النفس هذا، قد يكون في أحد الأزمنة مصداقاً للظلم، وفي زمانٍ آخر مصداق للعدل؛ إذا فالظلم والعدل من العناوين الانتزاعية، وكلٌّ واحد منهما هو الموضوع الأخلاقي. أمّا نفس المواضيع الخارجيّة، فيُمكن أن تكون متغيرةً، مثلاً: بالأمس لم يكن هذا الشخص جانياً، ولكنّه اليوم أصبح جانياً. وبناءً على هذا؛ فيما أنَّ الملاك هو العناوين وليس نفس الأشياء، لذا نحن نعتقد بقبح الظلم دائماً، ونرى أنَّ العدل حسنٌ دائماً، وكذلك في الصدق الملاك هو العدل والظلم؛ إذا فالنسبية غير صحيحة، ولدينا العديد من الروايات التي تقول: إذا كذب الشخص من أجل الإصلاح بين شخصين، فإنَّ الله

يكتبه صادقاً، ومن هنا نعلم أنّ الملاك لا يعود إلى نفس الصدق والكذب، بل المهم هو العنوان المنتزع منهما^(١).

ومن الجدير بالذكر أنّه في خصوص موضوع الكذب، فإنّ الكذب الذي يُقال بهدف حفظ أرواح الأبرياء يُعدّ مصداقاً للعدل، وفي المقابل إنّ الصدق الذي يؤدي إلى الضرر والجرح أو القتل هو مصداقٌ للظلم حتّى لو طابق الكلام الواقع.

الحسن الفعلي والحسن الفاعلي

إنّ التأمل في آيات القرآن الأخلاقية يُبيّن لنا أنّه مضافاً إلى حسن الفعل ينبغي يكون الفاعل قد أقدم على هذا العمل الأخلاقي بدافعٍ خالصٍ وصحيحٍ أيضاً، فإنّ التعاليم الاعتقادية والعملية والأخلاقية في الإسلام تهدف بأجمعها إلى إرشاد الإنسان نحو الكمال والترقي؛ ولذا لا يُمكن الوصول من خلال اعتقادٍ غير صحيحٍ أو حكمٍ غير شرعيٍّ أو خلقٍ منحرفٍ إلى نتيجةٍ قيّمةٍ، والمراد من العمل الأخلاقي هنا هو العمل الحسن؛ أي: العمل الذي يكون له ثوابٌ في الآخرة حتماً، سواءً أكان له ثوابٌ في الدنيا أم لا؛ ومن هنا قيل: «في تصنيفٍ كليٍّ ومن أجل أن يكون العمل حسناً وقيماً من الناحية الأخلاقية، يُمكن لنا أن نُقسّم العناصر الضرورية إلى فئتين: العناصر الفاعلية والعناصر الفعلية أو العينية، والمراد من العناصر الفاعلية هو تلك الشروط التي تعود إلى الفاعل بنحوٍ من الأنحاء، وأمّا العناصر الفعلية والعينية، فهي الشروط والأوضاع التي ينبغي أن تكون في أحد الأفعال بما هو أمرٌ واقعيٌّ وعينيٌّ ومستقلٌّ عن إرادة الفاعل ووضعه، ومجموع هاتين الفئتين من العناصر يُشكّل القاعدة الأساسية للفضيلة الأخلاقية التي ينبغي تحصيلها»^(٢).

(١) عابدي، أحمد، فلسفه اخلاق [= فلسفه الأخلاق]: ص ٤٣.

(٢) ديلمبي، أحمد، وآذربايجاني، مسعود، اخلاق اسلامي [= الأخلاق الإسلامية]: ص ٤٠.

وهنا سوف نذكر الآيات التي تُبين الحسن الفعلي لوحده، والحسن الفاعلي لوحده، وكذلك الآيات التي تُبين نوعي الحُسن معاً:

١. الحسن الفعلي

تتعرّض بعض آيات القرآن الكريم لعمل الإنسان فقط، ولا تتعرّض أصلاً إلى المنشأ الفاعلي لتلك الأفعال، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١). ففي هذه الآية لم يجر الحديث عن الإيمان، وإنما اقتصر على الإشارة إلى العمل وحُسنه، وقد فسّرت بعض التفاسير (الحُسنى) بالجنة و(الزيادة) بالنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ، وهو الأمر الأهم والأعلى من نفس الجنة، وقد نسبوا ذلك إلى أكثر المفسرين^(٢).

٢. الحسن الفاعلي

نجد أنّ بعض آيات القرآن تُبين بأنّ الأجر الإلهي ليس إلا ثمرة للإيمان، ولا تتعرّض - في المقام - إلى كيفية العمل أصلاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣). ففي هذه الآية يعد الله تعالى الرجال والنساء من المؤمنين بثلاثة نعمٍ عظيمةٍ كجزاءٍ على إيمانهم، وهي كالتالي: الحياة الأبدية في الجنان الجميلة، والمسكن الطيبة والمرغوبة في الجنة، والرضا الإلهي.

(١) يونس: آية ٢٦.

(٢) انظر: الأندلسي، عبد الحق بن عطية، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ج ٣، ص ١١٥.

(٣) التوبة: آية ٧٢.

٣. الحسن الفعلي والفاعلي معاً

تذكر العشرات من الآيات في القرآن الحُسن الفعلي والفاعلي جنباً إلى جنب، ومن بينها سورة (العصر)، وتعبير العلامة الطباطبائي: تُلخص السورة جميع المعارف القرآنية وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان^(١): ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾. فالإيمان هو علامة (الحسن الفاعلي)، والعمل الصالح هو إشارة إلى (الحسن الفعلي)، و(التواصي بالحق) و(التواصي بالصبر) مصداقان للأعمال الصالحة، فهذان العملان هما من باب ذكر الخاص بعد العام (أي: العمل الصالح)، وعلة ذلك التأكيد على هذين العملين (التواصي بالحق والصبر) هو أهميتهما. وفي المجموع، فقد كرّر القرآن ذكر هذا الأصل المسلم خمسين مرة.

وقد ذكر العلامة الطباطبائي في تفسير سورة العصر ما يلي: «إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ يُبَيِّنُ أَنَّ لِلْإِنْسَانِ حَيَاةً خَالِدَةً مُؤَبَّدَةً لَا تَنْقُطُ بِالموت، وَإِنَّمَا الموت انْتِقَالٌ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ... وَبَيَّنَّ أَنَّ شَطْرًا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَهِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، حَيَاةً امْتِحَانِيَّةً تَتَّعِنُ بِهَا صِفَةُ الشَّطْرِ الْآخِرِ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ الْمُؤَبَّدَةُ مِنْ سَعَادَةٍ وَشَقَاءٍ ... وَبَيَّنَّ أَنَّ مُقَدِّمَةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ لَتِلْكَ الْحَيَاةِ إِنَّمَا هِيَ بِمَظَاهِرِهَا مِنَ الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ، فَالْإِعْتِقَادُ الْحَقُّ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَلَكَ السَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ وَالْكَفْرُ وَالْفُسُوقُ مَلَكَ الشَّقَاءِ فِيهَا ... وَبَيَّنَّ بِذَلِكَ كُلَّهُ أَنَّ الْحَيَاةَ رَأْسَ مَالٍ لِلْإِنْسَانِ يَكْسِبُ بِهِ مَا يَعْيشُ بِهِ فِي حَيَاتِهِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ فِي الْعَقْدِ وَالْعَمَلِ فَقَدْ رَبَحَتْ تِجَارَتُهُ وَبُورِكَ فِي مَكْسَبِهِ وَأَمِنَ الشَّرَّ»^(٢).

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠، ص ٣٥٥.

(٢) العصر: آية ١-٣.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠، ص ٣٥٦.

إذاً فالأصل الأساسي في المباحث الأخلاقية هو حفظ الحُسن الفاعلي ضمن الحُسن الفعلي. كما أنَّ الإيمان هو منشأ للدافع الصحيح، وأنَّ العمل الصالح - الذي يطرحه القرآن - يحكي عن ضرورة حُسن نفس العمل.

نظرة أخرى إلى الآيات الثلاثة

يمكن أن يقال - في مقام الجمع بين الفئات الثلاثة من الآيات السابقة التي تتحدث حول الحُسن الفعلي والفاعلي -: بأنَّ الآية الأولى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى...﴾ تُؤكِّد على حُسن العمل فقط، في حين أنَّ ثقافة القرآن تركّز على أنّه إذا لم يُنجز العمل مع نيّة صالحة، فإنّه لا يُعدّ حينئذٍ أخلاقياً؛ لأنَّ العمل الذي لا يُصاحبه هدفٌ ودافعٌ صحيحٌ، لا يُصاحبه تكاملٌ معنويٌّ وأخلاقيٌّ؛ ومن هنا يجب أن تُؤوّل الآية بهذا النحو: إنَّ - المراد في المقام - هو العمل الصالح المُصاحب للإيمان.

وأما ما يتعلّق بالآية الثانية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ...﴾، فقد قال سماحة الأستاذ الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي: إن هذه الآية تستند إلى محض الإيمان وتذكر النعم الإلهية العظيمة حتّى رضوان الله كأجر، والظاهر أنّها مطلقة وأعمُّ من القيام بعملٍ صالحٍ أو عدمه^(١).

هذا، ويعتقد سماحته كذلك بأنَّ هذه الآيات تختصّ ببعض المواطن التي يكون الفرد قد آمن فيها ولكن حصلت له بعض الظروف التي لم تدع له فرصة القيام بالعمل، أو كان مجبوراً على التقيّة، أو أنّه آمن قبل الظهر ثمّ مات قبل حلول وقت الصلاة، ومع أنّه لم يُوفّق للصلاة والصيام والحجّ وباقي العبادات، إلّا أنّه سيكون من أهل الجنة.

(١) أنظر: مصباح اليزدي، محمّد تقي، الأخلاق في القرآن: ج ١، ص ١٢٢.

وقطعاً هذا الأمر صحيحٌ ومطابقٌ للمعايير القرآنية والدينية، لكنّ تمسك سماحته بالآية المذكورة لبيان الحسن الفاعلي، برأينا هو غير صائب، فهذه الآية استمرازا للآية السابقة التي تذكر خمسة صفات للمؤمنين والمؤمنات، وفي نهاية الآية تُشير إشارة صغيرة إلى لطف الله بهم، ثم تُفصل الآية التي هي مورد البحث ما تم إجماله، في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

ومن هنا فالآيتان اللتان نبحت حولهما في المقام - والواردتان في سورة التوبة آية (٧١ و ٧٢) - تُوضّحان مبدأين أساسيين ومهمّين في الأخلاق (أي: الحسن الفعلي والحسن الفاعلي) بنحوٍ موسّع.

الحسن الفعلي والحسن الفاعلي يُكمّلان بعضهما البعض

إنّ التأمل في آيات القرآن يُوضّح أنّ مبدأي الحسن الفعلي والفاعلي في القرآن لا يُمكن فصلهما عن بعضهما البعض واعتبارهما مستقلّين، سواءً في الآيات التي بيّنتهما مع بعضهما البعض أم في الآيات التي ورد كلّ منهما على حدة فيها، وهنا سوف نأتي بالآيات التي تأمر بالأفعال الحسنة أو تنهى عن الأعمال القبيحة وحسب، أو التي تُشير إلى مبدأي الإيمان والعمل الصالح معاً:

١. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

من الناحية الأخلاقية هناك أمرٌ بالعمل الحسن ونهيٌ عن الفعل القبيح، وفي

(١) التوبة: آية ٧١.

(٢) النحل: آية ٩٠.

هذه الآية يذكر الله ضمن بيانه لهذه الحقيقة عدداً من مصاديق ذلك أيضاً، وقد جاء في تفسير الآية أعلاه ما يلي: الآية الأولى يأمر الله فيها عباده بالعدل والإنصاف بصفة مطلقة في كل شيء، في التعامل، والقضاء والحكم، وشؤون الدين والدنيا، وسلوك الإنسان مع نفسه ومع غيره (وأفضل الإحسان وأعلاه الإحسان إلى المسيء)، ويأمر الله في هذه الآية أيضاً بإيتاء ذي القربى؛ أي: بصلة الأرحام والأقارب، بالزيارة والمودة والعطاء والتصدق عليهم. وبعد أن أمر تعالى بثلاثة، نهى عن ثلاثة: ١. الفحشاء: وهو الشيء المحرم: كالزنى والسرقه وشرب المسكر وأخذ أموال الناس بالباطل. ٢. المنكر: وهو ما قبحه الشرع والعقل. ٣. البغي: ظلم الناس والاعتداء عليهم^(١).

٢. ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢). فقد بين الله تعالى في هذه الآية بالصراحة وبنحو ظاهرٍ وواضحٍ الملاك والمعيار، وهو أن أمر الله لا يمكن أن يتعلق بالأمر القبيح؛ لذا نقول: إذا كان هناك فعل لم يكن فيه (حسنٌ فعليٌّ)، فلن يتعلق أمر الله به، وبالتالي فلن يكون فعلاً أخلاقياً.

٣. ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣).
٤. ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤).

(١) أنظر: الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: ج ١٤، ص ٢١٧.

(٢) الأعراف: آية ٢٨.

(٣) الأعراف: آية ١٥٧.

(٤) الأعراف: آية ١٩٩.

كما تمّ التأكيد في بعض الآيات - التي أشارت إلى ما سبق أيضاً - على منشأ العمل، علاوة على الوصية بحسن العمل، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

ففي هذه الآية تمّ تقديم العمل الصالح على الإيمان؛ وذلك للإشارة إلى أنّ العمل هو النتيجة النهائية للإيمان. وهناك موارد عديدة تمّ تقديم الإيمان فيها على العمل؛ وذلك لكي نفهم بأنّ الإيمان عمل القلب، وهو في الواقع مُقدّم على العمل الخارجي. هذا، وقد ورد في أحد التفاسير في ذيل هذه الآية الشريفة ما يلي: «إذا فالإيمان وعمل الصالحات جناحان اثنان للطائر القدسيّ الإنسانيّ إلى بغيته من خلقه، كلُّ يؤيد الآخر ويزيده رقيّاً وكمالاً»^(٢).

البيان العقلائي للموضوع

إنّ العمل الأخلاقي يُطلق على العمل الذي يترتب عليه ثوابٌ أخرويٌّ، والتعاليم الدينية تؤكّد أيضاً على هذا الارتباط، وبدون هذا الانسجام فحتّى من الناحية العقلية كذلك لن تحصل أيّ نتيجة؛ ولذا قيل: «يُمكن أن يُقال في مقام التبيين العقلائي لضرورة الحُسن الفعلي للعمل الأخلاقي: إنّ الدافع للعمل الإرادي وحرّية الإنسان تنبع من نفسه، وهي تتبع من الناحية الكميّة والكيفيّة ومن ناحية الشكل والخصائص الزمانيّة والمكانيّة وغيره لدافع الفاعل؛ يعني في الواقع دافع الفاعل هو الذي يمنح العمل شكله وروحه، وبالتالي فلا يُمكن القيام بأيّ عملٍ بأيّ دافع، فكلّ دافع يتناسب ويُسانخ نوعاً خاصّاً من الأعمال، فلا يُمكن كسب التوفيق في الامتحان

(١) النحل: آية ٩٧.

(٢) الصادقي الطهراني، محمّد، الفرقان في تفسير القرآن: ج [١٦]، ص ٤٧٦.

العلمي من خلال النوم، ولا زيارة الكعبة بالجلوس في المنزل، ولا استجلاب رضا الله من خلال التعدي على حرمة الآخرين وأموالهم. ومن هنا؛ فقد تمّ الاهتمام في فلسفة الأخلاق الإسلامية بالوضع النفسي للفاعل ودوافعه، وكذلك بالماهية العينية والآثار الواقعية للعمل^(١).

وبناءً على هذا؛ لا يصحّ اتباع المطلق لمدارس (أصالة الفاعل) التي ملاكها البُعد النفساني للفاعل فقط، كما لا يُمكن القبول بـ(أصالة العين) التي ملاكها نفس العمل الخارجي، لأنّه في هذه الحالة ستراجع الأخلاق - التي تسعى نحو تكامل الفاعل في ظلّ العمل الصالح - وتتقهقر، وبدلاً من التقرب من الله سيؤدّي ذلك إلى البُعد عنه.

(١) ديلمى، أحمد، وأذربايجاني، مسعود، اخلاق اسلامى [=الأخلاق الإسلامية]: ص ٢.

الفصل السادس

ضرورة كون الدوافع إلهية

تمهيد

إنَّ أحدَ الأُسُسِ الرَّئِيسِيَّةِ والمهمَّةِ في الأخلاقِ القرآنيَّةِ هو «إلهيَّةُ الدوافعِ»، حيث أوصى القرآنُ بهذه الحقيقة بتعابير مختلفة، من قبيل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) و﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾^(٢) و﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(٣) ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾^(٤). وجميع آيات القرآن تتَّجه بنحوٍ من الأنحاء إلى تحريك الإنسان نحو الله وإبعاده عن غيره تعالى، وقد أوصى القرآن الكريم بالاتِّجاه نحو الله، كما أكَّد تأكيداً كبيراً على ذلك في أربعة مواطن، وهذه الأعمال والمواضيع الأربعة هي كالتالي:

١. الهجرة

لقد ذُكر في القرآن قيد (في سبيل الله) في الآيات التي تطرح بحث الهجرة - على الأقلّ - في تسع آيات، من قبيل قول تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ

(١) النساء: آية ١٠٠.

(٢) البقرة: آية ١٣٨.

(٣) الأنعام: آية ٥٢.

(٤) المائدة: آية ١٦.

مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(١).

فقد ذكرت (الهجرة) في هذه الآية مرتين، كما جاء فيها قيد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و﴿إِلَى اللَّهِ﴾ في كلتا المراتين، وهذا أفضل دليل مؤكّد على مراعاة الأخلاق في موضوع الهجرة.

وقد جاء في تفسير الآية المذكورة ما يلي: «كل هجرة لغرض ديني من: طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة وزهداً في الدنيا، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلى الله ورسوله؛ وإن أدركه الموت فأجره واقع على الله تعالى»^(٢).

٢. الجهاد

إنّ أحد المواضيع التي أكّد فيها القرآن على لزوم كون الدافع فيها (دافعاً إلهياً) مسألة الجهاد والقتال ضدّ أعداء الإسلام، فقد ورد قيد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الآيات المتعلقة بالجهاد، سواءً جاءت ضمن مادة (جهاد) أو (قتل) ما يقرب من ٣٥ مرة، من قبيل قول تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

وقد عدّت هذه الآية كلاً من الإيمان، وترك المعصية، والحصول على الوسيلة، والجهاد الخالص، شروطاً للفلاح، كذلك قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ

(١) النساء: آية ١٠٠.

(٢) الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير: ج ٤، ص ٤٥.

(٣) المائدة: آية ٣٥.

يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا^(١). والآفة للنظر في هذه الآية أنها ذكرت بحث (الجهاد) مرتين، وفي كلتا المراتين اشترطت أن يكون ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣. الإنفاق

إنَّ أحدَ المواضيع التي أكَّدها القرآن بنحوٍ استثنائي هو الإنفاق بشرط الإخلاص، سواءً الإنفاق المستحب أم الواجب، وكما هو معلوم فإنَّ أحدَ الفضائل الأخلاقية هو الجود والسخاء، ويقابله البخل وهو أحد الرذائل الأخلاقية، ومع الإنفاق تتقوى الشجرة الطيبة للسخاء، وفي المقابل يُضعفها البخل بنفس النسبة، وهذه الآثار سوف تظهر فقط في حال كان الدافع للقيام بهذا العمل دافعاً إلهياً. ومن هنا؛ نجد أنه كلما طُرِحَ هذا المفهوم في أي آية من القرآن، فإنَّ قيد (الله) يأتي إلى جانبه، من قبيل: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) و﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾^(٣) و﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾^(٤) و﴿قُرْبَتِ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٥) و﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(٦)، وهذه التأكيدات من قبل القرآن الكريم تُبرز أهمية رعاية الإخلاص في الإنفاق، فيقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْزُّهْمِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) النساء: آية ٧٤.

(٢) البقرة: آية ٢٦١.

(٣) البقرة: آية ٢٧٢.

(٤) التغابن: آية ١٧.

(٥) التوبة: آية ٩٩.

(٦) البقرة: آية ٢٦٥.

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾.

٤ . العبادة

إنَّ ابتعاد العبادة عن الشرك والرياء وإخلاصها هو من الوصايا التي تمَّ الاهتمام بها والإصرار عليها في القرآن، من قبيل قول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(١). وأيضاً قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(٢).

وقد أظهر القرآن اهتماماً شديداً بالعبادة وأدائها بشرط أن يكون الدافع لها إلهياً محضاً وبدون أيّ شائبة شرك، ونفس هذا التأكيد الكبير من قبل القرآن أدّى ببعض الفرق الإسلامية إلى الفهم الخاطيء لبعض الأعمال الدينية لسائر الفرق وكيفيتها، فاتهموهم بالشرك. وسبب أهميّة الإخلاص في العبادة واضح، فالعبادة والعبودية ليسا إلا من أجل القرب من الله وإرساء العلاقة معه، فإذا أُدِّيت العبادة مع الرياء، فلا يقتصر الأمر عن أنّها لن تُقَرَّبنا إلى الله وحسب، بل ستفصلنا عن الله وتُقرِّبنا إلى الشيطان، وهذا نقض للغرض من تشريع العبادات.

توجيه القرآن للدوافع

إنَّ إمعان النظر في آيات القرآن يُبيِّن بأنَّ أحد أهمِّ الأصول الأخلاقية في القرآن، هو جذب الإنسان نحو الله، حيث نجد أنَّ سعي القرآن في هذا الصدد مُنصَّبٌ على إبعاد الإنسان عن الدوافع غير الإلهية وإثبات عدم قيمة تلك الدوافع،

(١) البقرة: آية ٢٦٢.

(٢) الزمر: آية ٢.

(٣) البينة: آية ٥.

وذلك من خلال العديد من الآيات التي تُشير إلى دور الدوافع الإلهية في أعمال الإنسان، والتي يُمكن لها أن تندرج تحت ثلاثة عناوين:

١. اتباع الرضا الإلهي

إنَّ أحد القيم التي لا بديل لها في القرآن الكريم هو معيار اتباع رضا الله، حيث نجد مديحاً في بعض الآيات لاتباع رضا الله، ونحن بدورنا سنذكر هنا آيتين فقط:

١. ﴿فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(١). وقد قال محي الدين بن عربي في تفسيره الوارد في ذيل هذه الآية: «وهم اتبعوا رضوان الله الذي هو جنة الصفات...»^(٢).

[٢]. ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

يمنح الله تعالى في هذه الآية الله ثلاثة امتيازات لوجود الدافع الإلهي والتحرُّك بناءً على هذا الدافع، وهي:

١. الهداية إلى سُبُل الأمن والعافية.

٢. الخروج من الظلمات والوصول إلى النور.

٣. الهداية إلى طريق الصواب.

ومن الجدير بالذكر أنَّ هذه الامتيازات الثلاثة، تتلازم نوعاً ما مع بعضها البعض، وترتبط فيما بينها.

(١) آل عمران: آية ١٧٤.

(٢) ابن عربي، محي الدين، تفسير القرآن الكريم: ج ١، ص ٢٣٦.

(٣) المائدة: آية ١٦.

٢. الاصطباغ بالصبغة الإلهية

يعتبر القرآن الكريم بأن الشخص الذي يصطبغ بالصبغة الإلهية هو الشخص الذي يتحرك في إطار الإسلام ويدافع صحيح فقط، قال تعالى: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾^(١).

وقد ذكر بعض المفسرين في تفسير هذه الآية ما يلي: بعد الدعوة التي وجهتها الآيات السابقة لاتباع الأديان بشأن انتهاج طريق جميع الأنبياء، أول آية في بحثنا تأمرهم جميعاً بترك كل صبغة - أي: دين - غير «صبغة الله»، وهي صبغة التوحيد والإيمان الخالص، وبهذا أمر القرآن بالتخلي عن الصبغات العنصرية والطائفية والذاتية وعن كل الصبغات المفرقة، والاتجاه نحو صبغة الله، ثم تضيف الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً﴾^(٢).

إن القرآن ينتقد أفراد باقي المناهج والمدارس بسبب عدم امتلاكهم للدوافع الإسلامية الطاهرة، ويوصيهم بأن يصلحوا أنفسهم على أساس هذه الدوافع.

٣. قبول العمل مع النية الخالصة

إن الإنسان الذي لا يقع تحت سيطرة الشيطان وأهواء النفس، يُسمى في ثقافة القرآن بالمتقي، فالشخص الذي لا يقبع تحت نفوذ قوى الباطل - سواءً الباطنية أم الخارجية - يتمتع بالدافع الإلهي؛ ولذا يقول القرآن: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣). ومن الجدير بالذكر أنه في هذه الآية تم استعمال كلمة (إنما) التي تُفيد الحصر،

(١) البقرة: آية ١٣٨.

(٢) أنظر: مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١، ص ٣٩٧.

(٣) المائدة: آية ٢٧.

وذلك يدلّ على أنّ الله لا يقبل العمل الطاهر إلّا من الأشخاص الطاهرين والمتّقين، والذين يتمتّعون بالدافع الصحيح، وبالتالي فالآيات التي تُقَرَّب الإنسان إلى أيّ نوع من التقوى وتُبعده عن الفسق والمعاصي، تُمثّل أحد توجيهات القرآن المهمّة.

٤. إبراز المحبة في التعبير بـ(إرادة وجه الله)

إنّ العديد من الآيات التي نزلت بهدف جعل الدوافع (إلهية) قد عبّرت بلفظ (الوجه)، وقطعاً لا معنى (للوجه) بالنسبة إلى الله تعالى إذا كان بمعنى الصورة المادّية؛ وعليه فإنّ هذه العبارات من الموارد التي ينبغي تأويلها، وإحدى الآيات التي تُشير إلى هذا الهدف، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(١). فإنّه بعد بعثة الأنبياء ﷺ وميل عددٍ من الفقراء والمظلومين إليهم، يُريد الأغنياء والظلمة أن يُبعد الأنبياء هذه الطبقة المُستضعفة من الناس من حولهم؛ ولذا نجد أنّ القرآن يُحذّر رسول الإسلام الأكرم ﷺ بأنّه: إِيَّاكَ أَنْ تَقَعَ تَحْتَ تَأْثِيرِ كَلَامِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ، وإلّا ستُعتبر أنت ضمن الظالمين أيضاً. وقد استعمل في هذه الآية تعبيرٌ لطيفٌ جداً يدخل إلى القلب لإصلاح الدوافع، وهو قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٢)، و﴿لَوْجَهُ اللَّهِ﴾^(٣)، و﴿أَبْغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾^(٤)، و﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾^(٥) وغيرها من التعابير المشابهة.

(١) الأنعام: آية ٥٢.

(٢) الروم: آية ٣٨.

(٣) الإنسان: آية ٩.

(٤) الليل: آية ٢٠.

(٥) البقرة: آية ١١٢.

ما هو المراد من ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؟

لقد ذكر المفسرون في ذيل آية ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ عدداً من الأمور التي تتعلق أغلب الأحيان بتمجيد المجموعة التي بقيت ثابتة وهي تُقاوم إلى جانب النبي وكانت تتحلّى بدوافع إلهية طاهرة، وقد أعطى أحد المفسرين احتمالين في مقام توضيح قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وكلُّ من الاحتمالين يُمكن أن يكون صحيحاً، فقال: فثبت [بعد بطلان عدّة نظريات في تفسير الآية] أنّه لا بدّ من التأويل، وهو من وجهين: الأول: قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، والمعنى: يريدونه، إلّا أنّهم يذكرون لفظ الوجه للتعظيم، كما يُقال: هذا وجه الرأي، وهذا وجه الدليل.

والثاني: إنّ من أحبّ ذاتاً أحبّ أن يرى وجهه، فرؤية الوجه من لوازم المحبة، فلهذا السبب جعل الوجه كنايةً عن المحبة وطلب الرضا^(١).

سبيلان قرآنيان لجعل الدافع إلهياً

لقد اهتم القرآن بأمرين مهمّين من أجل جعل الدوافع إلهية، وهما:

(أ) إيجاد التوحيد الخالص

بعد الإيمان بأنّ كلاً من العزّة والقدرة والملّك وغيرها هي بيد الله، ومع الالتفات إلى الآيات التي بحثناها والعمل بها سوف تزول أرضية الشرك والرياء والسُّمعة والرذائل التي من هذا القبيل، وسيحصل للإنسان الاستعداد لقبول التوحيد الخالص وقبول أنواع الفضائل والقيم الإنسانية الأصيلة.

يذكر العلامة الطباطبائي^(٢) ثلاثة أساليب لتهديب الأخلاق، ففي البداية يُبين طريقة الفلاسفة اليونانيين (الاهتمام بالفوائد الدنيوية لفضائل الأخلاق)، وبعد ذلك

(١) أنظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ١٢، ص ٥٤٢.

يذكر الأسلوب الذي ينقله القرآن عن الأنبياء السابقين؛ وهو: (الاهتمام بالآثار الأخروية لتهديب الأخلاق)، ثم في المرحلة الثالثة يتعرّض إلى تهذيب الأخلاق بالأسلوب الخاصّ بالقرآن، حيث يرى أنّ القرآن بنى أساس أخلاقه على التوحيد الخالص، فهو يعمل - من البداية - على أن لا تتلوّث روح الإنسان بالردائل، فلا تبقى حاجة للعمل على التخلص منها، وعليه فأساس الأخلاق في القرآن يعتمد على الرفع لا الدفع، وتعبير آخر: يعمل القرآن على جعل الدوافع إلهية بشكلٍ أساسي وجذري لا تزلزله رياح العواصف. يقول ﷻ: قد تكرر في كلامه تعالى: أنّ الملك لله، وأنّ له ملك السماوات والأرض، وأنّ له ما في السماوات والأرض، وقد مرّ بيانه مراراً، وحقيقة هذا الملك - كما هو ظاهر - لا تُبقي لشيءٍ من الموجودات استقلالاً دونّه واستغناءً عنه بوجهٍ من الوجوه، فلا شيء إلاّ وهو سبحانه المالك لذاته ولكلّ ما لذاته، وإيمان الإنسان بهذا الملك وتحققه به يُوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عنده عن درجة الاستقلال، فهذا الإنسان لا يُمكنه أن يريد غير وجهه تعالى، ولا أن يخضع لشيء، أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذّ أو يبتهج بشيء، أو يركن إلى شيء، أو يتوكّل على شيء، أو يسلم لشيء، أو يفوض إلى شيء، غير وجهه تعالى...^(١).

لذلك؛ فأحد الأمرين الذين يقوم القرآن بعملهما لجعل الدوافع إلهية هو: (إيجاد التوحيد الخالص)، وأمّا الثاني: فيُعرّف القرآن الدنيا والأمور الجذابة فيها بأنّها قصيرة الأمد وبأنّها لعبٌ وخيالٌ وأمثال ذلك (لهوٌ، وعَرَضٌ، وغرورٌ، وزينةٌ)، ويرى بأنّ الحياة الحقيقية هي الحياة في الآخرة. وسوف نتعرّض هنا إلى بعض الآيات التي سعت وراء هذا الهدف.

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٣٥٩.

(ب) تقييم القرآن لدنيا من أجل الدنيا

١. تزيين ما على الأرض، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١). فإن أحد الألفاظ التي استعملها القرآن مراراً لوصف الحياة الدنيا لفظُ (الزينة)، وقد جاء في التعريف اللغوي للزينة كما يلي: «زان الشيء: حسّنه وزخرفه»^(٢)؛ ومن هنا فالحياة بنظر القرآن هي عبارة عن زخرفة وزينة، وخصوصية زينتها أنها تجذب الإنسان، ولكن النقطة الجديرة بالدقة، هي أن ما ينجذب إليه الإنسان فيها ليس له واقعية في الخارج، بل هو نوعٌ من الزينة التي ليست إلا مجرد وهمٍ وخيالٍ، ولكن الإنسان يعدّها حقيقةً ويُخدع بها، فالله عز وجل زَيّن الأشياء التي على الأرض للإنسان، وجعل فيها ما يجذبه إليها، وذلك لكي يمتحنه، فلو لم تنطو الأمور الدنيوية على الجمال وقوة الجذب - لا سيما في بعض المفاصل المهمة في الحياة الدنيا - لما أمكن امتحان إيمان الإنسان واختباره، فعلى سبيل المثال: لا يمكن للمرأة العجوز القبيحة الشمطاء أن تكون وسيلةً للامتحان الأخلاقي للرجل!

٢. الحياة الدنيا سريعة الانقضاء: لقد عرّف القرآن حقيقة الحياة في الدنيا بأنها (عَرَضٌ) في أربعة مواطن على الأقل، و(العَرَض) عبارة عن الواقعية التي تُبدي نفسها وتزول بسرعة، وقد أُطلقت كلمة (العَرَض) في معاجم اللغة على الأمور التي لا تبقى، فقول: «عَرَضَ [هذا الأمر]؛ بدا ولم يَدُم»^(٣)، ونُشير هنا إلى إحدى هذه الآيات، قال تعالى: ﴿...تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾^(٤).

(١) الكهف: آية ٧.

(٢) [البستاني، فؤاد أفرام]، منجد الطلاب: ص ٢٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٨٦.

(٤) النساء: آية ٩٤.

وبالالتفات إلى المعنى اللغوي للعرض، يُصبح معنى الآية السابقة كالتالي: أنتم في الدنيا تذهبون نحو الشيء الذي يُبدي نفسه ويزول بسرعة ولا يدوم.

٣. الحياة الدنيا مصدر الخداع: إنّ أحد التحذيرات التي أطلقها القرآن عدّة مرّات، هو خداع الدنيا، وبالطبع فإنّ الأفراد سيتعرّضون لهذا الخداع عند أدنى غفلة، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الْغُرُورِ﴾^(١).

يقول اللغويون في مقام تعريف (الغور) ما يلي: «فَالْغُرُورُ: كُلُّ مَا يَغُرُّ الْإِنْسَانَ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ وَشَهْوَةٍ وَشَيْطَانٍ، وَقَدْ فُسِّرَ بِالشَّيْطَانِ؛ إِذْ هُوَ أَخْبَثُ الْغَارِّينَ، وَبِالدُّنْيَا؛ لِمَا قِيلَ: الدُّنْيَا تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ»^(٢). وإنّ الأمور الجذّابة في الدنيا متنوّعة جدّاً، بحيث إذا يتمتّع الإنسان بإيمانٍ متجدّد وبمعرفة عميقة، قد يُصاب بالغفلة، وهو ما سيستج عنه الانخداع بالدنيا.

٤ و ٥. اللهو واللعب صفتان من صفات الدنيا: لقد استعمل وصف (اللهو) و(اللعب) بجانب بعضهما البعض أربعة مرّات لتوصيف الدنيا في القرآن، وقد قدّم وصف (اللعب) على (اللهو) في ثلاثة آيات، وفي المقابل قدّم وصف (اللهو) على (اللعب) مرّة واحدة، يقول الله عزّ وجلّ حول خاصيّة الدنيا هذه: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَآلِئٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

وقد فسّر الراغب الأصفهاني (اللعب) بالنحو التالي: «لَعِبَ فلان: إذا كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً»^(٤).

(١) آل عمران: آية ١٨٥.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٠٤.

(٣) الأنعام: آية ٣٢.

(٤) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٧٤١.

وبناءً على هذا؛ فالشخص الذي يجعل الدنيا هدفه ومقصده، فهو لم يختَر هدفاً صحيحاً، ومثله كمثل الطفل الذي يتسلّى بالألعاب الطفولية، فلا خبر لديه عن الواقعيّات التي حوله. ومن هنا؛ فالإنسان إذا لم يُفكّر في حياته الدنيويّة إلاّ بالأعمال اليوميّة الاعتياديّة، فسوف يكون كمن انشغل باللعب.

وأما اللهو فقد جاء في تعريفه ما يلي: «اللَّهُوُ: ما يشغل الإنسان عَمَّا يعنيه وبيمّه»^(١)، وإذا جعل إنسان الدنيا هدفاً له في حياته الدنيا، ولم يسع إلاّ من أجلها، ففي الواقع يكون قد تخلف عن الهدف المهمّ والمصيري (الترقّي والتكامل المعنوي)، ويُسمّى القرآن هذا النوع من الجهد (لهواً)؛ لأنّ الدنيا التي ينبغي أن نستخدمها كوسيلة للوصول إلى المقامات العالية والكمالات الإنسانيّة، صارت هي بنفسها غايةً وهدفاً، وهذا التوجّه نحو الدنيا يجعل الإنسان بلا قيمةٍ وبتعبير القرآن: ﴿كَأَلَا نَعْمٌ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أنّ العلامة الطباطبائي أورد هذا البحث مرّتين أيضاً في كتابه الميزان في تفسير القرآن؛ إحداها بنحوٍ مفصّل، والأخرى بنحوٍ مختصرٍ.

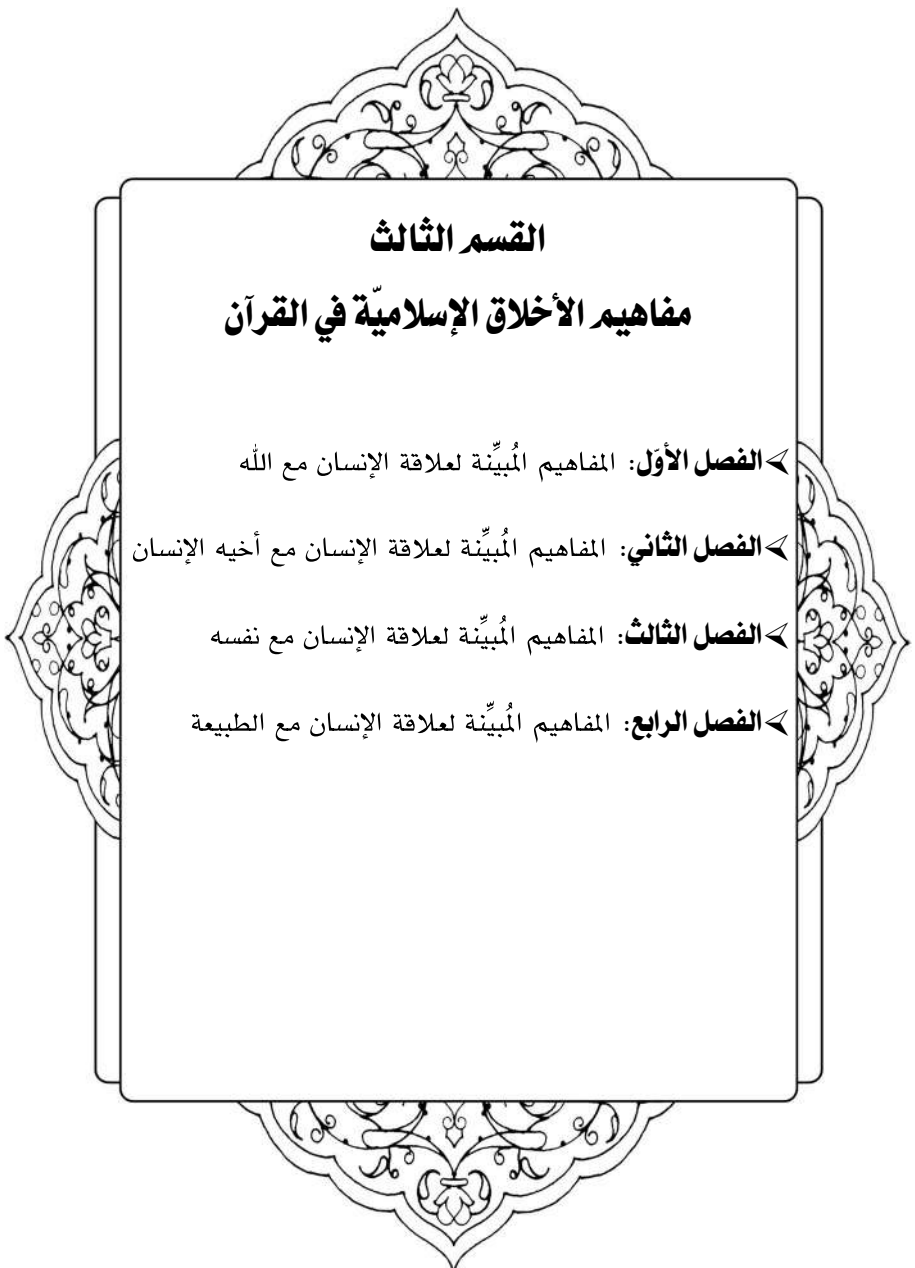
الخلاصة

لقد عمل القرآن - من أجل إيجاد الدافع الإلهي وتقويته - على توفير البُنيان القويّ (التوحيد الخالص)، كما عمل بالإضافة إلى ذلك على ازدراء الدوافع الأخرى، كما بيّن ضمن هذه الرؤية بأنّ الحياة الدنيا هي حياةٌ مجازيّة، وأنّ الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقيّة، وعرف كذلك هذه الحياة الماديّة على أنّها (زينة)، وأنّ

(١) المصدر نفسه: ص ٧٤٨.

(٢) الفرقان: آية ٤٤.

أمورها الجذّابة ليست واقعيّة، وعلى أنّها (عَرَضٌ) سريعة الزوال وسلعة خدّاعة، وأنّ السعي نحوها ليس إلّا لهواً ولعباً؛ وفي المقابل إذا كان الإنسان يمتلك «دافعاً إلهياً» في هذه الحياة الدنيا، فسوف يصبح لجميع النّعم والإمكانات التي في الدنيا معنىً ومفهوماً راقياً.



القسم الثالث

مفاهيم الأخلاق الإسلامية في القرآن

◀ **الفصل الأول:** المفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع الله

◀ **الفصل الثاني:** المفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان

◀ **الفصل الثالث:** المفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع نفسه

◀ **الفصل الرابع:** المفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع الطبيعة

الفصل الأول

المفاهيم المبينة لعلاقة الإنسان مع الله

تمهيد

تختص أغلب الكتب الأخلاقية ببيان المفاهيم؛ أمّا هذا الكتاب فاتّجاهه هو بيان المفاهيم الأخلاقية التي يؤكّد القرآن عليها تأكيداً كبيراً، وقد وردت هذه المفاهيم أيضاً في الحديث الشريف المشهور بحديث (جنود العقل والجهل) الوارد في كتاب أصول الكافي، وبسبب ضيق المقام هنا سنكتفي ببيان أمّهات المفاهيم الأخلاقية والأصول العامة لها، ونترك للقراء المحترمين فهم المفاهيم الجزئية والفرعية بناءً على هذه الكليات.

والنقطة التي تجدر الإشارة إليها في بداية الحديث عن هذا القسم هي أنّ كلّ إنسانٍ لديه في حياته الدنيوية أربعة أنواع من العلاقات:

١ - العلاقة مع الله تعالى.

٢ - العلاقة مع الناس الآخرين.

٣ - العلاقة مع نفسه.

٤ - العلاقة مع الطبيعة.

وكلّ واحدةٍ من هذه العلاقات لا تخرج عن إحدى حالتين، هما: الحالة الإيجابية، والحالة السلبية، فيكون مجموع هذه العلاقات ثمانية أنواع.

وسيتعرّض القسم الثالث من هذا الكتاب إلى بيان هذه الأنواع الثمانية من العلاقات، وسيختصّ الفصل الأول من هذا القسم ببيان المفاهيم المتعلقة بعلاقة العبد برّبه.

والمفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع الله والواردة ضمن (الأخلاق القرآنية) على قسمين، بعضها مفاهيم إيجابية وقيّمية، والمجموعة الأخرى عبارة عن المفاهيم السلبية والمضادة للقيم، فالمفاهيم التي تُبيّن العلاقة الحسنة بين الإنسان والله عزّ وجلّ هي المفاهيم الإيجابية، والمفاهيم التي تدلّ على ضعف هذه العلاقة هي المفاهيم السلبية.

المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم

١. الإخلاص

إنّ أحد المفاهيم الأساسية في الأخلاق والمرتبطة بعلاقة بين الإنسان مع الله عزّ وجلّ هو مفهوم (الإخلاص)، فالإخلاص يتمتّع بأهميّة عظيمة في المباحث الأخلاقية والقرآنية.

مفهوم الإخلاص

لقد فسّر الراغب الأصفهاني في كتابه مفردات ألفاظ القرآن (الخالص والإخلاص) بهذا النحو: «الخالص كالصافي، إلّا أنّ الخالص هو: ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، فحقيقة الإخلاص: التّبرّي عن كلّ ما دون الله تعالى»^(١).

وقد عرّفوا (الإخلاص) كذلك في الأدبيات العرفانية والأخلاقية بهذا النحو: «الإخلاص يعني الخلوّص وتصفية العمل عن كلّ الشوائب: كالرياء والعُجب

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ١٥٥.

والكِبَر، وعن كلّ ما يحجب الحقيقة، وعن كلّ مصدرٍ لفساد العمل من الحظوظ النفسانيّة بما هو أعمّ من أن يكون ذات العمل أو أن يؤدّي إلى إعدام روح الأعمال وحقيقتها»^(١).

ومن الجدير بالذكر أنّ كلمة (نيّة) تُستعمل كثيراً في الكتب الأخلاقيّة بدلاً من كلمة (الإخلاص)، مع أنّه لم تُستعمل كلمة النيّة في القرآن الكريم، وكذلك استخدامها في الروايات قليلٌ جدّاً، ومع الالتفات إلى سعة نطاق استعمال كلمة (النيّة) في الآثار الأخلاقيّة فلا بدّ لنا من توضيح مفهومها أيضاً: «النيّة: عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرضٍ ما، من جلبِ نفعٍ أو دفعِ ضررٍ حالاً أو مآلاً، والشرع خصّصها بالإرادة المتوجّهة نحو الفعل ابتغاءً لوجه الله أو امتثالاً لحكمه، فمن فعل نائماً أو غافلاً ففعله معطلٌ مُهمّلٌ، يُثاقل أفعال الجهاد، ومن أتى طاعةً رياءً أو طمعاً في عطاءٍ دنيويٍّ أو توقّعاً لثناءٍ عاجلاً أو تخلصاً عن تعنيفِ الناس فهو مزورٌ»^(٢).

هذا، وأنّ قيمة العمل الأخلاقي يتوقّف على عاملين، هما: الأوّل: صلاحية نفس الفعل، والثاني: النيّة والدافع عند الفاعل. وهذان العاملان هما في الواقع بمنزلة جسم العمل الأخلاقي وروحه، وبالتالي سوف تُواجه النيّة في جميع الأفعال شئنا أم أبينا.

والنيّة تُشكّل من جهةٍ روح العمل وأساس القيمة الأخلاقيّة في الواقع، ومن جهةٍ أخرى فهي أحد أخفى الأعمال الباطنيّة التي تتحقّق في قلب الإنسان. ومن وجهة نظر الإسلام يُمكن أن نلاحظ في النيّة شكلاً من أشكال العلاقة مع الله، ويُمكن أن تُعدّ أحد مراتب التقرب إلى الله^(٣).

(١) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ١، ص ١٠٧.

(٢) التهانوي، محمّد علي بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون: ج ٤، ص ٢٧٢.

(٣) أنظر: مصباح اليزدي، محمّد تقي، الأخلاق في القرآن: ج ١، ص ١١٧.

ولهذا السبب؛ نجد أن الثواب المترتب على العمل تؤام مع القصد والقربة، ومضافاً إلى ذلك فهناك مجموعة مهمة من الواجبات والتكاليف التي تقع على عاتق المسلم، شرعت بنحو لا تتقبل من فاعلها إلا إذا صحبها الإخلاص.

الواجبات ولزوم مراعاة الإخلاص

نجد في علم (أصول الفقه) بأن الأعمال الواجبة قد قُسمت إلى قسمين: (التعبدية) و(التوصلية)، والمطلوب في الواجبات التوصلية هو القيام بالفعل الواجب فقط، وليس شيئاً آخر^(١)، وبالتالي فمراعاة الإخلاص فيها ليس شرطاً في قبولها، رغم أن المكلف يستحق الثواب فيها مع قصده التقرب ومراعاة الإخلاص، من قبيل: القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإنفاق على العيال.

وأما الواجبات التعبدية، فهي عبارة عن الإلزامات التي يُشترط فيها (قصد القربة) عند القيام بها أيضاً، وأن تُنجز مع كامل الإخلاص، فالعبادة تعني التعبّد والعبودية والطاعة لأمر الله تعالى، ولا بدّ في ظلّ هذه العبادة أن نصل إلى الترقّي والتكامل المعنوي، ولكن هذه الغاية لا تتحقّق إلا في حال كان هناك انسجام بين العمل والقصد، وكذلك في حال قمنا بالعمل بدافع القرب إلى الله، كما في الوضوء والغسل والصلاة والصيام والحجّ والزكاة والخمس. وقد عرّف الإمام الصادق عليه السلام العمل الخالص بقوله: «والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمّدك أحد غير الله»^(٢).

والنقطة المهمة والجديرة بالذكر هي أن كلّ عمل يقوم به الإنسان بنحو مستمرّ

(١) أنظر: المظفر، محمّد رضا، أصول الفقه: ج ١، ص ٦٩.

(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ٢، ص ١٦. وأيضاً: الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، رسائل الشهيد الثاني: ص ١٠٨. [وتجدر الإشارة إلى أننا حين رجعنا إلى النسخة التي بين أيدينا من كتاب أصول الكافي، في نفس التخريج السابق، كانت عبارة الرواية بالنحو التالي: «وَالْعَمَلُ الْخَالِصُ الَّذِي لَا تُرِيدُ أَنْ يَحْمَدَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». (م)].

وبكثرة، فله أثران، هما: الأول: هو أنّه سينجزه بسرعة، والثاني: هو أنّه كلّما قام بتكراره كلّما قلّ توجّهه أثناء تأدية العمل؛ ومن هنا لا بدّ في العبادات اليومية التي تُكرّر كلّ يوم، أن نكون ملتفتين وأن لا نقع في الغفلة، وإلا فسيقُلّ التأثير المعنوي للعبادة، وكلّما كان الهدف والدافع والنية والإخلاص في العبادة أكبر، كلّما كان التقرب إلى الله في ظلّ ذلك العمل أكثر.

والنقطة الثانية التي ينبغي ذكرها في مقام تقسيم الواجب إلى (توصلي) و(تعبدية) هي أنّ الواجبات التوصلية هي الأخرى إذا كانت تتمتع بالإخلاص وبقصد تنفيذ أوامر الله، فإنّها تكون منشأً لاستحقاق الثواب، ولكن إذا أُدّيت بهذا العنوان العبادي بينما كان واقعها هو الرياء، فسوف تُعدّ معصية؛ ولذا قيل: «إنّ النية ضرورية في العبادات، ولكن لم يرد أمرٌ في وجوب العمل لله في المسائل غير العبادية (التوصليات)، بيد أنّ الإنسان إذا اتّخذ في هذه المسائل التوصلية طابعاً عبادياً وراعى فيها فقد أوقع نفسه في الهاوية. فعلى سبيل المثال: لا يتحتّم غسل اليد الملوّثة بقصد القربة، بل يكفي للتطهير مجرد الغسل، ولكن إذا قام المرء بهذا العمل إظهاراً للناس بأنّه ابتغاء لوجه الله فهو شركٌ ومعصية؛ إذ كان بإمكانه القيام بهذا العمل كسائر الأعمال التوصلية، ولكنه إن أراد الحصول على الثواب فعليه بقصد القربة. إذا فالشرك أمرٌ محرّم؛ إذ لو اتّخذ العبد في جانبٍ من أعماله شريكاً غير الله فهو في ذلك الجانب ليس عبداً لله، وبالتالي لا يُقبل عمله من قبل الله سبحانه لنقصانه، ولا يكون عبداً لله»^(١).

الإخلاص وقيمة العمل

إنّ قيمة العمل في التعاليم الدينية بإخلاص النية؛ ولهذا السبب جاء في الروايات بأنّ النية أفضل وأقدس من نفس العمل، فالنية هي الأمانة التي يؤدّيها

(١) جواد آمل، عبد الله، حكمة العبادات: ص ٦٨.

الإنسان المؤمن، كما أنها في الواقع كالقائد والعمل بمنزلة الجندي الصالح، حيث تأمر النية بما ينفع حياة الإنسان والمجتمع بأكمله؛ ومن هنا نجد أن رسول الله ﷺ يقول: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ الْكَافِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ»^(١).

ولتوضيح هذه الرواية النبوية، قد يكون المثال التالي مفيداً في ذلك: النية مثل نبع الماء، والعمل مثل كأس الماء، وحينما نشرب كأس الماء فإنه ينتهي، وفي المقابل كلما غرنا من النبع الصافي سوف ينبع أكثر ولن ينتهي، وإذا كانت طينة الأفراد ونياتهم الداخلية خيراً، فسوف تأمر الإنسان دائماً بالصلاح، ولكن حينما تكون ذوات الأفراد كالكفار هي ذوات شريرة وسيئة، فسوف تُفكر بالسوء دائماً وتقوم به؛ ومن هنا فنيته أسوء من عمله.

وتنقسم الأعمال - بالالتفات إلى النية - إلى ثلاثة أقسام:

١. العمل مع النية الحسنة والخالصة، مثل: العبادات التي تُؤدى بداعي العبودية لله وإطاعة أوامره، فهذا العمل سيكون له ثوابٌ كامل.
٢. العمل مع النية السيئة، مثل: العبادات التي تُؤدى بقصد خداع الآخرين وسوء استغلالها، فهذا العمل لن يُجازى بغير العقوبة.
٣. العمل بدون أي نية، وذلك في حال كان أداؤه بدون نية سيئة ولا بدافع القرب الإلهي؛ مثلاً: العمل من أجل تضييع الوقت ورفع التعب، فلن يترتب على هذا العمل يوم القيامة ثواب أو عقاب.

منزلة الإخلاص في القرآن

لقد استعملت في القرآن كلمة (خالص) ومشتقاتها (٣١) مرة، فمن وجهة نظر

(١) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١، ص ٥٠.

القرآن العمل غير الخالص لا يُعتبر ذا قيمة أخلاقية وهو عمل غير مقبول، وبالالتفات إلى الآيات المتعلقة بالإخلاص، يُمكن تقسيم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام:

١. مراتب الإخلاص.

٢. امتيازات المخلصين.

٣. نتائج الإخلاص وآثاره.

١. مراتب الإخلاص

يُمكن أن نجد في القرآن عنواين (المخلص) و(المخلص) للأشخاص الذين أخلصوا في عملهم.

(أ) المخلص: تُطلق هذه الكلمة على الأفراد الذين يُجاهدون أهواءهم ويُؤدّون أعمالهم بإخلاص، ولكن يُمكن أن يقوم بعمل غير خالص في حال الغفلة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(١).

وقد أُشير في القرآن إلى هذا المقام (وهو مقام الأشخاص الذين يذكرون الله ويعبدونه بإخلاص وبنية صافية) أكثر من عشر مرّات.

(ب) المخلص: وهي مرتبة أعلى، وتُعدّ نهاية الإخلاص، حيث يصل فيها الإنسان إلى مقدار كبير من التكامل المعنوي، بحيث يُصبح وجوده طاهراً بالكامل، ولا يعود للشيطان أي أمل في إضلاله، والله يحفظ هذا الفرد من الشيطان بسبب سعيه الكبير في تزكية نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رءَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢).

(١) الأعراف: آية ٢٩.

(٢) يوسف: آية ٢٤.

إنَّ الأشخاص الذين يصلون إلى مرتبة المُخْلِصين على مجموعتين:
المجموعة الأولى: هم الأفراد الذين لم يرتكبوا أيَّ معصية منذ البداية بسبب
تربيتهم الصحيحة وتكاملهم أنا بعد أن كالمعصومين ﷺ.
المجموعة الثانية: فهي التي وصلت إلى هذه المرحلة بالتدريج فكانوا يُخطئون
قبل وصولهم إلى هذه المرحلة.

إنَّ مقام المُخْلِصين هو أعلى درجة للتكامل المعنوي بالنسبة للإنسان قبال الله
تعالى، وفي هذه المرحلة يُبرز الشيطان فقدانه للأمل بأن ينجح في إغواء الشخص
المُخْلِص، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ^(١).

٢. الامتيازات الخاصة بالمُخْلِصين

يُبيِّن القرآن ثلاث ميزاتٍ لـ (المُخْلِصين) قد حُرِّم منها الآخرون، وقد ذكر
العلامة السيّد محمد مهدي بحر العلوم في بيان هذه الامتيازات التي للمُخْلِصين
ما يلي:

«الأولى: أَنَّهُ يُعْفَى مِنْ حِسَابِ الْحَشْرِ الْآفَاقِيِّ، وَمِنْ الْحُضُورِ فِي تِلْكَ الْعَرِصَةِ:
﴿فَأَنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ ۝٣٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ^(٢)؛ لِأَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ بَعْبُورُهَا مِنَ الْقِيَامَةِ
العظمى الْأَنْفُسِيَّةِ قَدْ أَدَّتْ حِسَابَهَا، فَلَا حَاجَةَ لِمَحَاسِبَتِهَا مِنْ جَدِيدٍ.

الثانية: إِنَّ كُلَّ فَرْدٍ إِنَّمَا يَنَالُ مَا يَنَالُ مِنَ الثَّوَابِ وَالسَّعَادَةِ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ، إِلَّا هَذَا
الصَّنْفَ مِنَ الْعِبَادِ الَّذِينَ يَنَالُونَ مِنَ الْإِكْرَامِ وَاللِّطْفِ مَا لَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ، وَفَوْقَ جَزَاءِ
أَعْمَالِهِمْ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ^(٣).

(١) الحجر: آية ٣٩-٤٠.

(٢) [الصافات: آية ١٢٧-١٢٨]. (م)

(٣) [الصافات: آية ٣٩-٤٠]. (م)

الثالثة: إنّ هذه مرتبة عظيمة ومقام كريم، وفيه إشارة إلى مقامات رفيعة ومناصب منيعة، وهي أنّه سينني على الله بما هو أهله من الشناء: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) إلّا عباد الله المخلصين ﴿١﴾؛ أي: إنّهُ يتمكن من الشناء على الله تعالى بما يليق بساحته، ويعرف صفات كبريائه، وهذه هي غاية مرتبة المخلوق، ونهاية منصب الممكن، وما لم تظهر ينابيع الحكمة بأمر الله الكريم في القلب، فإنّ العبد لن يتمكن من تناول هذه الجرعة^(٢).

٣- نتائج الإخلاص وآثاره

للمعارف والتعاليم الإسلامية العديد من الآثار والتائج في المجالات المختلفة من حياة الإنسان، سواءً التعاليم الاعتقادية منها أم العملية أم الأخلاقية، والإخلاص كأحد المفاهيم الأساسية في الأخلاق الإسلامية والقرآنية له دور محوري، كما أنّ له العديد من الآثار الإيجابية في حياة الإنسان وفي علاقاته المختلفة مع محيطه؛ ولذا سوف نعمل هنا على دراسة ثمار الإخلاص من وجهة نظر القرآن، والتي هي:

أ) التوفيق في العمل

إنّ الشخص الذي يعمل من أجل الله، يجد أنّ أيّ نتيجة يصل إليها تُمثل نجاحاً؛ لأنّه قام بتكليفه وواجبه، فعلى سبيل المثال: إنّ الثورة الدامية التي قام بها سيّد الشهداء عليه السلام، رغم الهزيمة التي حصلت في الظاهر، إلّا أنّها تُعدّ في أقصى قلل النجاح، وأفضل دليل على موفقيّتها، هو بقاؤها رغم انقضاء ألف وعدّة مئات من السنوات، وفي المقابل نجد أنّ العدو الذي أحسّ بالانتصار بكلّ وجوده، كان قد هُزم في الواقع، فكان ذليلاً ومنكسراً، ولا نجد له اليوم أيّ اسم أو ذكر، قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ

(١) [الصافات: آية ١٥٩-١٦٠]. (م)

(٢) بحر العلوم، محمد مهدي، رسالة في السير والسلوك: ص ٥٠.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾.

إنَّ الخوف يتعلّق بالمستقبل، وأمّا (الحزن) فيتعلّق بالأُمور الماضية، والشخص الذي يقوم بتكليفه قبال الله، ليس لديه أيّ خوفٍ أو حزنٍ، من قبيل الشهداء الذين قدّموا أغلى رأس مالٍ لديهم (أرواحهم) في سبيل الله، ولكنهم ليس لديهم حزنٌ على الماضي ولا يخافون من المستقبل. يُبيّن القرآن لنا هذه الحقيقة بقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ وَعَذَابٌ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٢﴾﴾.

ومن هنا؛ إذا قام الإنسان بعملٍ صائبٍ مع الإخلاص، فلا معنى للهزيمة فيه، بل على العكس، لو قام به بدون إخلاص، فما يظهر منه النجاح والموفقية في الظاهر، سيكون باطنه الانكسار والهزيمة.

ب) خلود العمل

بما أنّ الله خالدٌ وأبديٌّ ولا معنى للعدم في ذاته التي لا تزال؛ إذاً فكلّ عملٍ كذلك يتلوّن بصبغة الله ويكون مخلصاً لوجهه، سوف يتمتّع بالأبدية والخلود أيضاً، مثل قطرة الماء التي تتصل بالبحر، فهي لم تعد قطرةً بل أصبحت بحراً، وفي المقابل يُشبه القرآن العمل غير الخالص بالرّبد على وجه الماء الذي لا يدوم ويزول سريعاً، ففي قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُ هَذَا كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٣﴾﴾. رغم

(١) آل عمران: آية ١٧٠.

(٢) التوبة: آية ٥٢.

(٣) الرعد: آية ١٧.

أنّه لم يُستعمل في هذه الآية كلمة (خالص) أو (إخلاص) واشتقاقاتها، ولكن مُحْتَوَى الآية يتضمّن معنى الإخلاص، وهو يُبيّن أنّ الحقّ يبقى في قبال الباطل الذي يزول.

ج) عدم تأثير اللوم عليهم

يذكر القرآن بأنّ أحد صفات المجاهدين (في سبيل الله) هو عدم تأثرهم بالدعايات المعادية، فيقول تعالى: ﴿يُحْذَرُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١). وبالالتفات إلى أنّ المجاهدين يتحمّلون لوم الآخرين وسخريتهم في سبيل رضا الله، نجد أنّ هذا الكلام القبيح رغم أنّه سيكون عذاباً على قائله، إلّا أنّه سيكون ثواباً لهؤلاء المجاهدين.

د) عدم توقّع الجزاء من الناس

ينقل لنا القرآن قصّة الإنفاق (الخالص) لوجه الله من قبل عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام، فيذكر لنا كيف أنّهم تصدّقوا بإفطارهم ثلاثة أيام متتالية على المسكين واليتيم والأسير، وقد مدح الله تعالى في الآية التالية ضمن عرضه لقصّة إنفاق أهل البيت عليه السلام العمل الخالص لوجهه، كما بيّن لنا كيف يكون ذلك، فيقول تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٢) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا^(٣). فقد أشار القرآن في هذه الآيات إلى ثلاثة نقاط مهمّة وهي:

- (١) أنّهم أنفقوا رغم حاجتهم وحبّهم للطعام.
 - (٢) أنّهم قالوا: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لوجه الله فقط.
 - (٣) أنّهم لم يكونوا ينتظرون جزاءً أو شكوراً على فعلهم.
- ورغم أنّ الأدب يقتضي أن يشكر الآخذ المعطي، ولكنّ المنفق لا ينبغي له أن

(١) المائدة: آية ٥٤.

(٢) الإنسان: آية ٨ و ٩.

ينتظر ذلك منه، وإلا لخسر إخلاصه؛ ومن هنا فالمخلص هو الشخص الذي ليس لديه غاية سوى الوصول إلى القرب الإلهي، والحصول على الجزاء الأخروي وعلى رضا الله، وذلك: بأن يريد المرء بهذا العمل التقرب إلى الله تعالى، والفوز برضا الله تعالى عليه، ودخول الجنة بإذن الله تعالى ومنه وفضله^(١).

هـ) صيرورة المخلص محبوباً

بما أن الإنسان المخلص يخدم الناس بدون منّة عليهم، وفي نفس الوقت يرى الناس فيه النقاء والطهر؛ لذا فإن سلوكه هذا يجعله محبوباً عندهم، وقد وعد الله عز وجل في القرآن أيضاً بأن المؤمنين المخلصين سيكونون محبوبين للناس؛ إذن فهذه المحبة هي سبب طبيعي وكذلك هي من أطراف الله وعناياته الغيبية على القلوب؛ ولذا قيل: إن البشر بطبعهم الإنساني يستحسنون الصفاء والإحسان، ويُقدّرون الأعمال الصالحة، وينظرون إلى الصالحاء نظرة احترام؛ وحتى الأفراد الملوّثين وغير الصافين يحترمون الأشخاص الطاهرين والمخلصين، ويتحسّرون على وضعهم المزري، وقد ضمن الله عز وجل في القرآن أن تحصل محبة الناس في ظلّ الإيمان والعمل الصالح (والعمل ما لم يكن خالصاً لم يكن صالحاً) وذلك لمن يعمل الصالحات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

ولقد كان أبو منصور - وزير السلطان طغرل - رجلاً عالماً ويخاف الله، وكان يجلس بعد كلّ فريضة على السجادة، ويشغل بالتسبيح والدعاء حتى طلوع الشمس، ثمّ كان يذهب إلى السلطان طغرل. وفي أحد الأيام صادفت السلطان حادثة مهمّة قبل طلوع الشمس، فطلب الوزير، وأرسل المأمورين إلى منزله

(١) [أنظر: الطيّار، عبد الله بن محمّد بن أحمد]، الإخلاص وأثره في قبول الأعمال: ص ٢٣.

فشاهدوه جالساً على السجّادة ومشغولاً بالذكر، فابلغوه أمر السلطان العاجل بالحضور بين يديه، فلم يستجب لهم، فكّرّروا له الأمر مرّتين وثلاث، فلم يعتن لهم، فعادوا وقالوا للسلطان: بأنّه رجل مغرور ومتمرّد، ولم يراع مقام السلطان وعصى أمره، وبهذا الكلام اشتعلت نيران الغضب عند السلطان. وعندما طلعت الشمس، كان الوزير قد فرغ من قراءة الأدعية، فركب وذهب إلى السلطان، فصرخ السلطان في وجهه، وقال: لماذا أتيت متأخراً؟ فأجاب الوزير: أيّها السلطان! أنا عبد الله وخادم السلطان طغرل، يجب عليّ أولاً أن أودّي وظيفة العبوديّة لله، ثم آتي لخدمتك، لقد خرج هذا الكلام من أعماق قلب الوزير وبنية خالصة، وقد أثر بشكل عميق في قلب السلطان وضميره، ودمعت عيناه، فأثنى على الوزير، وقال: العبوديّة لله مقدّمة على خدمتنا كي تنتظم أعمالنا، وتستنير الدولة من أشعة فائدة تلك الأعمال^(١).

ويمكن استشفاف هذه المحبوبيّة كذلك من الآيات التي من قيل: ﴿...إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

السبيل للوصول إلى الإخلاص

لقد بيّنت التعاليم الدينيّة أساليب وسُبلًا مختلفة ومتعدّدة للوصول إلى الإخلاص، وسنشير هنا إلى أربعة سُبُل:

١. اليقين بالمبدأ والمعاد، قال الإمام عليّ عليه السلام: «سببُ الإخلاص اليقين».
٢. اليأس من الناس، والمراد من ذلك، هو أن يلتفت الإنسان دائماً إلى أنّه إذا حصلت له مشكلة جدّية، فلا يُمكن لأحد أن يُخلّصه منها؛ ومن هنا قيل: «أول الإخلاص اليأس ممّا في أيدي الناس».

(١) أنظر: الفلسفي، محمد تقي، الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانيّة: ج ٢، ص ٨٩.

٣. الابتعاد عن أهواء النفس ومطالبها: «فعلاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع من الدنيا».

٤. استعمال العقل، وكما روي في مضمون الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: مَنْ يَأْتِي بِالْعِبَادَةِ لِأَجْلِ الْآخَرِينَ وَبَنِيَّةٍ غَيْرِ إِهْيَةِ، فَهُوَ نَاقِصٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَقْلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَامَ بِنَفْسِ هَذَا الْعَمَلِ لِلَّهِ، لَأَسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ بِنَحْوِ أَسْرَعٍ وَأَفْضَلٍ^(١).

أهمية الإخلاص في الروايات

هناك اهتمامٌ شديدٌ بالإخلاص في الروايات، وهي تدعو المؤمنين إلى الإخلاص في العمل والنية، وسنذكر هنا بعض الروايات التي تتعرض لهذا الأمر:

١. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «على قدر النية تكون من الله العطيّة»^(٢).
٢. وقد نُقل في الرواية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «ضَرْبَةُ عَلِيٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ»^(٣).

إنَّ النِّيَّةَ الْخَالِصَةَ وَالسَّامِيَةَ لِعَلِيِّ عليه السلام، هِيَ الَّتِي مَنْحَتْ عَمَلَهُ هَذَا الْمَقْدَارَ مِنَ الْقِيَمَةِ، لَا أَنَّ قَتْلَ عَمْرُو بْنِ عَبْدِ وَدَّ كَانَ لَهُ كُلُّ ذَلِكَ الثَّوَابِ، فَاسَّاسُ الثَّوَابِ إِنَّمَا يُعْطَى عَلَى مَقْدَارِ الْمَعْرِفَةِ وَالنِّيَّةِ؛ وَمِنْ هُنَا نَجِدُ أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيَّ عليه السلام يُخَاطَبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِلَهِي مَا عِبَدْتُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ، وَلَا طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعِبَدْتُكَ»^(٤)؛ فَاَلْمَلَاكُ وَالْمَعْيَارُ هُوَ (الْخُلُوصُ).

(١) أنظر: رضوان طلب، محمد رضا، پرستش آگاهانه [=العبادة عن وعي]، ص ١١٣. [وتجدر الإشارة إلى أننا لم نجد أصل الرواية في المجامع الحديثية التي بين أيدينا، والظاهر أن المؤلف نقلها بالمعنى، والله العالم. (م)].

(٢) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج ١٠، ص ٢٨١.

(٣) الحلي، الحسن بن يوسف، مجمع الفائدة: ج ٣، ص ٢١٦.

(٤) [الحلي، الحسن بن يوسف، نهج الحق وكشف الصدق: ص ٢٤٩]. (م)

٣. وقد ورد في إحدى الروايات أيضاً: «لا يكمل صالحٌ إلّا بصالح النية»^(١).
٤. ورُوي أيضاً: «إنّ الله يُدخل بحسن النية وصالح السريرة مَنْ يشاء من عباده الجنة»^(٢).

٥. كما روي عن رسول الله ﷺ: «لا يُقبل قولٌ إلّا بالعمل، ولا يُقبل قولٌ وعملٌ إلّا بالنية، ولا يُقبل قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلّا بإصابة السُنّة»^(٣).

على الإنسان أن يكون لديه حالة القبول التام والتسليم في قبال الدين وأحكامه وتوصياته، فإنّه إذا كان لديه هذه الحالة فلن تُصادفه أيّة مشكلة، وفي المقابل إذا لم يتمتّع بهذه الحالة الباطنية فلا قيمة لعمله؛ إذاً فلا يكفي القول: بأنّ الصلاة واجبة، بل يجب أن يعتقد بالإضافة إلى ذلك بأنّه يجب عليه أن يصلي، ويجب أن يُصاحب هذا الاعتقاد والعمل القصد والنية أيضاً، والنية إنّما تُصبح ذات قيمة إذا كانت منطبقة على سنّة النبي ﷺ، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله يحشر الناس على نيّاتهم يوم القيامة»^(٤).

وبناءً على هذا؛ ليست القيامة من أجل الاطلاع على أعمال كلّ شخص، بل القيامة لكي تتضح نيّة كلّ شخصٍ ما هي، وقد يكون لأحد الأشخاص قصداً حسناً وخيراً، ولكنّه قد يُحدث ضرراً في العمل، مثل الشخص الذي عقد العزم على أن ينقل شخصاً عاجزاً من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، لكنّه وهو يحملُه وينقلُه أسقطه أرضاً من دون قصدٍ، فهذا الشخص سيكون له ثوابٌ عند الله، وبالعكس إنّ الشخص الذي يقوم بعملٍ حسنٍ ولكنّه يقصد منه الخداع والخيانة فسوف يُسجّل

(١) الليثي الواسطي، علي بن محمّد، عيون الحُكم والمواعظ: ص ٥٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٣.

(٣) الميرزا النوري، حسين، مستدرک الوسائل: ج ١، ص ٨٩.

(٤) السيوري، مقداد بن عبد الله، نضد القواعد الفقهيّة: ص ١٨٨.

عليه كمعصية.

إذا؛ فالنية هي التي تُحدّد قيمة الأعمال، كما أنّ العمل الصالح يُزيل الأعمال الطالحة، وذلك كما تفعل التوبة، فرغم أنّ التوبة عبارة عن قوّة روحية، ولكن قوتها أقوى من القوى الماديّة؛ والتوبة هي عبارة عن العزم على طاعة الله ومعاهده على ذلك. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول: يا ربّ ارزقني حتّى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير. فإذا علم الله ذلك منه بصدق نية، كتب الله من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله»^(١).

ويقول الإمام الرضا عليه السلام عن هذا الأمر أيضاً: «مَنْ رضي شيئاً كان كَمَنْ أتاه، ولو أنّ رجلاً قُتل بالمشرك ورضي بقتله رجلٌ في المغرب، لكان الرّاضي عند الله عزّ وجلّ شريك القاتل»^(٢).

ونقرأ في زيارة سيّد الشهداء عليه السلام: «لعن الله أمة قتلتك، ولعن الله أمة ظلمتك، ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به»^(٣).

ما هو الشرط في المقام... الإخلاص أو النية؟

لتوضيح المسألة سنقوم ببيان النقاط التالية:

١. العناوين على قسمين: قصديّة وغير قصديّة؛ والعناوين القصديّة هي التي طالما لم نقصدها لا تتحقّق، مثل عنوان الاحترام، فإذا دخل أحد الأشخاص ذوي المقام الكبير فقام أحد الحاضرين من مكانه بسبب شدة خوفه، فهذا القيام لا يُعدّ احتراماً، وإنّما يكتسب عنوان الاحترام حينما يقوم الشخص بإرادته وعن قصدٍ

(١) الجزائري، عبد الله، التحفة السنية: ص ٧٤.

(٢) الصدوق، محمّد بن علي، عيون أخبار الرضا: ج ٢، ص ٢٤٧.

(٣) القمي، عبّاس، كليات مفاتيح الجنان: ص ٧٨٣.

احتراماً لذلك الشخص، ولكن هناك بعض العناوين التي لا تحتاج إلى قصدٍ، مثلاً: إذا بصق شخصٌ في الشارع، فوقع البصاق بدون قصدٍ على لباس شخصٍ آخر، فعليه أن يعتذر منه؛ لأنّه قام بإهنته. وبناءً على هذا؛ فالعنوان القصدي إنّما يتحقّق حينما تكون النية موجودةً، بخلاف العنوان غير القصدي، وبالطبع فإنّ جميع الأعمال تستلزم القصد.

٢. إنّ مراعاة القصد لا بدّ منها حينما يكون هناك عملٌ مشتركٌ بين شيئين، مثلاً: قيام أحد الحاضرين في المجلس لشخصٍ آخر، فهذا العمل يُمكن أن يكون بسبب الاحترام كما يمكن أن يكون بسبب الخوف، ولكن إذا قام شخصٌ بعملٍ معيّن وغير مشتركٍ، فسوف توجد النية والقصد فيه بشكلٍ تلقائي، والمثال غير العبادي لذلك كفرش السجادة الذي ليس له عنوان قصديّ، فكلّ شخصٍ يقوم بفرشها بأيّ نحوٍ من الأنحاء فإنّها ستُفرش. ومن هنا؛ فعدم الإشارة في الآيات والروايات إلى النية فيما يتعلّق بالعبادات التي مثل الصوم والصلاة والحجّ والوضوء؛ يعود إلى أنّ هذه الأعمال ليست من الأعمال المشتركة، وحينما نقوم بعملٍ اختياريٍّ من هذا القبيل فسوف يكون القصد والنية موجودين.

٣. لم يذكر العلماء السابقون - كالشيخ الطوسي والشيخ المفيد والسيد المرتضى - عنوان النية في مقام بيانهم لواجبات الصلاة وغيرها، وإنّما الذي طرح موضوع (النية) هو العلامة الحليّ وهو من الفقهاء المتأخّرين حيث إنه من أعلام القرن الثامن، والروايات التي تذكر عنوان (النية) كرواية «إنّما الأعمال بالنيات»، إنّما دخلت إلى الآثار الشيعيّة من كتب أهل السنّة، في حين أنّ الروايات المقبولة عندنا هي الموجودة في كتب الشيعة حتّى لو كان راويها سنياً على أن يكون ثقة.

٤. الإخلاص شرطٌ للعبادة وليس جزءاً منها، ولو كانت النية جزءاً من العبادات، فذلك يعني أنّ النية تأتي في عرض بقية أجزاء العمل [ولا تكون داخلية

في تلك الأجزاء]، من قبيل الركوع والسجود في الصلاة التي هي في عرض بعضها البعض؛ فحينما يقوم المكلف بالركوع لا يكون عندئذ مشغولاً بالسجود، والنقطة الأخرى هي أنه لو كانت النية جزءاً فسوف تدخل في المأمور به، ولن تكون مثل الوضوء الذي هو أمرٌ خارجٌ عن الصلاة.

وفي المقابل إذا كانت النية شرطاً في العبادات، فسوف يكون لها الخصائص الثلاثة التالية، وهي:

(١) ستكون خارجةً عن المأمور به.

(٢) ستكون أمراً معنوياً، مثل الاستقبال والطهارة.

(٣) ستجري في كل عملٍ من الأعمال، وليس في جزءٍ خاصٍّ منها.

وبناءً على هذا، ومع الالتفات إلى هذه الخصوصيات لا بدّ أن نقول: إنّ القصد شرطٌ وليس جزءاً؛ لأنّه لو كان جزءاً مثل تكبيرة الإحرام، فإذا أدّى مرةً واحدةً، لم يعد من حاجةٍ له بعد ذلك، في حين أنّه لا بدّ من وجود الإخلاص في الصلاة من أولها إلى آخرها. وكلّ عملٍ نقوم به ففيه نيةٌ، وبشكلٍ عامٍّ لا يقوم عملٌ عاملاً بلا نيةٍ، وبالتالي إذا كانت النية موجودةً، فلا حاجة للتلفّظ بها لاستحضارها؛ لأنّه تحصيلٌ للحاصل.

وبناءً على هذا؛ فما الدليل على أنّ النية واجبةٌ؟ أليس هو توجيه التكليف بأحد الواجبات. هذا، وأنّ النية موجودة عند الجميع، ولكنّ الأمر الذي يتوفّر عند البعض ويفتقده البعض الآخر هو الإخلاص، فالإخلاص شرطٌ في كلّ عملٍ، وقد تمّ بيان هذا الموضوع في القرآن أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١).

(١) البينة: آية ٥.

٢. الإخبات

(الإخبات) هو أحد المصطلحات الأخلاقية في القرآن، والذي يحكي عن علاقة جيدة بين العبد وربّه، وقد جاء في تعريفه ما يلي: «أَخْبَتَ: خَشَعَ وَتَوَاضَعَ»^(١)، و «أَخْبَتَ إِلَى اللَّهِ: خَضَعَ وَخَشَعَ (لِلَّهِ)»^(٢)، إنّ الإخبات هو حالة تُشبه التواضع والخشوع الكامل للحقّ تعالى. ومن هنا فسّر البعض الإخبات بـ(الذكر الخفي) و(الخفاء)، وقد جاء في أدبيات العرفان والأخلاق بشأن هذه المفردة ما يلي: «الإخبات أول مراحل الطمأنينة، وهو عبارة عن دخول المسافر وصعوده إلى المقام الذي تكون نفسه مطمئنة فيه، ولا يكون في قلبه أي شكّ أو تردّد، ولا يُمكن أن يعود إليه، ويغفل عن نفسه بحيث ينسى نفسه وما سواها.

يقول صاحب مصباح الأنس: الإخبات يأتي بمعنى راحة البال، كما يأتي بمعنى انكسار القلب والخشوع والتواضع، حيث ينكسر القلب في مقام التضرّع والتخشّع للحضرة الكبريائية»^(٣).

الإخبات في القرآن

لقد أشار القرآن إلى هذه الحالة المعنوية والأخلاقية عند الإنسان في ثلاثة مواطن، جاءت فيها كلمة الإخبات بمعنى (التواضع والرقّة)، ويقول الراغب الأصفهاني في هذا المجال: «الْخَبْتُ: المَطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ... ثُمَّ اسْتَعْمَلَ الْإِخْبَاتُ اسْتِعْمَالَ اللَّيْنِ وَالتَّوَضُّعِ، الْإِخْبَاتُ هَاهُنَا [فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ] قَرِيبٌ مِنَ الْهَبُوطِ فِي

(١) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ص ١٣٩.

(٢) بندرريغي، محمّد، فرهنگ معاصر [= المعجم المعاصر]، عربي - فارسي: ص ١٥٥.

(٣) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]: ص ١٠٢.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١).

ومن هنا؛ فما يُستنتج من مجموع البحث في المعنى اللغوي والاصطلاحي، ومن خلال التوضيحات التفسيرية للراغب الأصفهاني، هو أن هذه المادة في القرآن تعني بحسب البُعد القيمي والأخلاقي: التواضع والرقّة والخشوع وإبراز التذلل في قبال الذات الإلهية الأزلية، ويُمكن عدّها كذلك في قبال (القساوة والصعوبة)، فالشخص الذي وصل قلبه إلى السكينة والطمأنينة في قبال الحق، مثل الأرض المستقرّة التي تبقى ثابتة ولا تهتزّ.

آثار الإخبات

مع تدقيق النظر في الآيات المتعلقة بـ(المخبتين) يُمكن عدّ ثلاثة امتيازات وخصائص لهذه الطبقة من الناس، والتي هي من الخصائص الذاتية لها.

أ) البصيرة

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢). فمع الالتفات إلى أنّه - خلافاً لمئات الآيات الأخرى - جاء بعد قوله: ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قوله: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، نعلم أنّ هناك نقطة مهمّة تستحق الالتفات؛ ولذا نجد أنّ العلامة الطباطبائي يقول في تفسير هذه الجملة ما يلي: «وتقييده تعالى الإيمان والعمل الصالح بالإخبات إليه، يدلّ على أنّ المراد بهم طائفة خاصّة من المؤمنين، وهم المطمئنون منهم إلى الله ممّن هم على بصيرة من ربهم، وهو الذي أشرنا إليه في صدر الآيات عند قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٢٧٢.

(٢) هود: آية ٢٣.

مَنْ رَبِّهِ ۖ ﴿إِلَخ، أَنَّ الْآيَاتِ تَقْيِسُ مَا بَيْنَ فَرِيقَيْنِ خَاصِّينَ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَمَنْ عَمِيَتْ عَيْنُ بَصِيرَتِهِ﴾^(١).

وإذا دققنا في الآية التي تلي الآية أعلاه، فسوف نجد فيها أفضل شاهدٍ على الفهم الصائب للعلامة الطباطبائي، حيث يقول عز وجل: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾^(٢). فالمراد من الفريقين: الأشخاص الذين يُبَيَّن حالتهم في الآيات السابقة.

ب) التسليم

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿فَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدُ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾^(٣). فقد جاءت جملة ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ في هذه الآية الشريفة بعد قوله عز وجل: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، وهو ما يدلّ على أنّه بسبب القبول بالمعبود الواحد والتسليم المحض لذات الله الأزليّة، فإنّه يُبَشِّرُ المخبّتين، إذاً فإحدى الخصوصيّات الحتميّة للمخبّتين هي التسليم. وحينما يكون الإنسان في قبال شخصيّة عظيمة جداً واستثنائيّة، فإن آثار تلك العظمة ستظهر على محيّي هذا الرائي، ولذا فإنّه سوف يخضع ويتواضع له في قلبه؛ ومن هنا قيل: مفهوم الجملة الثالثة [أي: جملة ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾] هو أنّ البشارة خاصّة بالذين ينشأ خضوعهم لله من شعورهم وإدراكهم للعظمة الإلهيّة بنحو يكون توجّههم إليه كاملاً، ويحفظ حواسّهم من التشتّت، ويمنع التفاتهم إلى الموجودات المحيطة ويركّزه في عظمة الله، ولازم ذلك ظهور الخضوع والتذلّل الخاصّ في الروح الإنسانية.

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٠، ص ١٩٣.

(٢) هود: آية ٢٤.

(٣) الحج: آية ٣٤.

وهذه الكلمة مأخوذة في أصلها من (أخبت البعير)، وهي تعني أن البعير حينما يشعر بحكة في بدنه لوجود برغوث أو أي عامل آخر يُسَلِّم نفسه تماماً عندما يُحك جسمه ويدلك موضع الحكة ويقف هادئاً حتى عيناه دون حراك، فهذه الحالة الانقيادية التي تطرأ على البعير تدعى (الإخبات)^(١).

بعد أن ذكر القرآن اسم (المخبتين) في الآية (٣٤) [من سورة الحج]، يذكر في الآية التي تليها أربع خصائص للتعريف بهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢).

قال البعض: هذه الصفات الأربعة التي جاءت في الآية تنطبق على الشخص الذي أدى أعمال الحج مع التسليم لله؛ لأن هذه الصفات المذكورة هي عبارة عن: (١) الخوف من الله. (٢) الصبر. (٣) إقامة الصلاة. (٤) الإنفاق. وهي بأجمعها موجودة في الحج.

ج) العلم بحقائق القرآن

إنّ الخصوصية الثالثة الموجودة في ذات الإخبات، هي (العلم بحقائق القرآن)، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

مع الالتفات إلى الآية السابقة، يُمكن تفسير هذه الآية بالنحو التالي: إنّ الله يُزيل إلقاءات الشيطان، ثمّ يستبدلها بآياته ويضعها في القلوب، وهذا العمل امتحانٌ من أجل أن يتميّز الأفراد عن بعضهم البعض، فحينما يتعلّمون آيات الحق ويعرفونها، فأولاً: سيؤمنون. وثانياً: سيُسلّمون لأولئك الأنبياء، وستُصبح قلوبهم مرنةً أمامهم.

(١) أنظر: مصباح اليزدي، محمد تقي، الأخلاق في القرآن الكريم: ج ١، ص ١٩.

(٢) الحج: آية ٣٥.

(٣) الحج: آية ٥٤.

وبتوضيح أكثر للآية يُمكن القول: على الأشخاص الذين لديهم علمٌ أن يعلموا بأنّ هذا القرآن جاء من طرف الله وبأنّه حقٌّ، وحينما يحصل لديهم هذا العلم، فإنّهم سيؤمنون، وعندما يؤمنون، سوف تحصل في قلوبهم حالة (الإخبات). و(الفاء) في عبارة ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ وكذلك في عبارة ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ﴾ هي فاء التفرّيع بحسب الاصطلاح النحوي، وهي تُبيّن أنّ الإيمان والإخبات من آثار العلم بحقانيّة القرآن الذي جاء في الجملة السابقة.

بناءً على هذا؛ إذا تحققت حقيقة الإخبات في قلب شخصٍ من الأشخاص، فسوف يثبت له - بحسب رأي القرآن - ثلاثة خصائص: البصيرة، والتسليم، والعلم الذي مآله إلى الإيمان والإخبات.

٣. التقوى

تعدّ التقوى واحدةً من المفاهيم الأخلاقية في القرآن، فالتقوى أعمّ مفهوم أخلاقيّ؛ لأنّه يُمكن لجميع مفاهيم القرآن الأخلاقية أن تكون مرتبطة بها، وسوف نتعرّض هنا في البداية إلى بيان مفهوم التقوى:

مفهوم التقوى

قال الراغب الأصفهاني في بيان المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتقوى ما حاصله: **الْوَقَايَةُ**: حفظُ الشيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه. يقال: وَقَيْتُ الشيءَ [يعني حفظته، مثلما ورد في القرآن الكريم]، والتَّقَوَى جعل النفس في وقايةٍ ممّا يُخاف. وصار مفهوم التَّقَوَى في تعارف الشرع حفظ النفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات^(١).

ومع إمعان النظر في معنى التقوى في نطاق الشرع، يظهر لنا أنّ ذات التقوى

(١) أنظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٨١.

تتألف من عدة عناصر:

١. الحفظ من المعصية، وهو ما يحصل عندما يوجد عنوان (التقوى) عن حرّية واختيار، ومن ثمّ إذا كان هناك عاملٌ خارجيٌّ هو الذي أدّى إلى حفظ الإنسان من المعصية، فلن يكون لذلك قيمةً معنويّةً، ولن يُعدّ ذلك من التقوى. وبناءً على هذا جعلنا الاختيار من المباني المهمّة في بحث (أسس الأخلاق).

٢. إنّ الخطر الذي يُهدّد الإنسان، لا يتعلّق بالأمور المادّيّة والدينيّة، وإنّما يتوجّه ذلك الضرر إلى سعادته وفلاحه، فيُعرّض قيمه المعنويّة للخطر.

٣. إنّ أحد المبادئ والمفاهيم المهمّة في الأخلاق هو مبدأ (الإخلاص)، وكما أنّ لهذا المبدأ دوراً مهمّاً في الجوانب الإيجابيّة من المسائل الأخلاقيّة، كذلك له تأثيرٌ كبيرٌ في ترك المعاصي أيضاً.

والتقوى تكون ذات قيمةً واقعيّةً، وتكون أيضاً ذات تأثيرٍ في التكامل المعنوي حينما تنبع من التوجّه إلى التوحيد والإخلاص. وعلى هذا الأساس؛ إذا ترك شخصٌ معصيةً ما خوفاً من أن يشاهده الناس أو خوفاً من أن يُكشف أمره، فلا يُقال لشخصٍ كهذا بأنّه مُتّقٍ.

التقوى.. خوفٌ من الله أم من الذنب؟

نُفسّر التقوى في الثقافة العامّة وفي الحوارات التي تجري بين الناس بأنّها الخوف من الله، في حين أنّ هذا الفهم والبيان ليس بدقيقٍ، فذات الله هي منشأ الرحمة والعطف، وما أوصينا به هو الخوف من (العذاب والعقوبة) للذنب، وإذا تمّ التدقيق في المعنى اللغوي والاصطلاحي للتقوى الذي ذُكر سابقاً، فلن نجد أنّه قد تضمّن مفهوم الخوف، ولكنّه من أجل أن نراعي التقوى، يُوصى بأن نخاف من الله الذي يُعذّب العاصي؛ ومن هنا قيل: «دلالة (التقوى) على الخوف دلالة التزاميّة؛ لأنّ أصل (التقوى) هو حفظ النفس، ولكن من البديهي أنّ الإنسان ما دام لا يخاف شيئاً

فإنّه لا ينبعث لدفع الخطر وحفظ النفس؛ إذ إنّ الخوف هو الذي يدفع الإنسان ليُجنّب نفسه من الخطر؛ وعليه فإنّ استعمال (التقوى) في الخوف استعمالٌ في معنى التزامي. ويمكن القول أيضاً: إنّ مفهوم الخوف أُشرب في (التقوى)، ويعني أنّ حفظ النفس يكون مقروناً بالخوف»^(١).

أهميّة التقوى في القرآن

يقول الله عزّ وجلّ في القرآن حول أهميّة التقوى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَیْكَو لِبَاسًا یُؤَرِّی سَوَءَ تَکُم وَرِیثًا وَلِبَاسُ النُّقْوَى ذَٰلِکَ خَیْرٌ ذَٰلِکَ مِنْ ءَايَتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ﴾^(٢). فیُشیر تعالیٰ فی هذه الآية إلى نعمة اللباس، والذي یُمثّل غطاءً وزینةً معاً، فکلمة (ریش) تعني الثياب التي هي مصدرٌ للزينة والجمال^(٣).

وتوضیح ذلك: إنّ مفردة (ریش) فی أصلها اللغوي تعني ریش الطيور المعروف، وبما أنّ ریش الطائر یُمثّل زینةً بالنسبة له؛ لذا فقد استُعیر لغير الطائر لیُفید معنى الزينة.

وهذه الآية تقول: إنّ اللباس یُغطّي الأمور القبيحة التي لديکم؛ أي: إنّ أمرٌ لازمٌ بالنسبة لکم، ثمّ یُعرّج القرآن بعد التعرّض للباس الظاهري والزينة الظاهرية إلى الموضوع الباطني والمعنوي، فيقول: كما أنّ اللباس ضروريٌّ ولازمٌ من جهاتٍ متعدّدةٍ بالنسبة للناس، فالتقوى كذلك ضروريةٌ بنفس النسبة، بل هي أكثر ضرورةً، وقد ذکر العلامة الطباطبائي فی ذیل الآية أعلاه ما يلي: «وذلك أنّ الذي

(١) مصباح اليزدي، محمد تقی، الأخلاق فی القرآن الكريم: ج ١، ص ١٩.

(٢) الأعراف: آية ٢٦.

(٣) أنظر: الراغب الأصفهاني، المصدر السابق: ص ٣٧٢. [تجدد الإشارة إلى أنّنا لم نجد هذا المعنى حينما رجعنا إلى المصدر المذكور، رغم أنّه أُشير إليه فی كتبٍ لغويةٍ أخرى، مثل کتاب قاموس (عربي / فارسي)، ج ٤، ص ١٥٢. (م)].

يُصيب الإنسان من ألم المساء وذلة الهوان من ظهور سوائه رُوحِيٍّ من سنخٍ واحدٍ في السوائين إلا أن ألم ظهور السوائِ الباطنية أشدُّ وأمرُّ وأبقى، فالمحاسب هو الله [وليس الناس]، والتبعة شقوةٌ لازمةٌ، ونازٌ تطَّلَعُ على الأئدة؛ ولذلك كان لباس التقوى خيراً من لباس الظاهر. وللإشارة إلى هذا المعنى وتتميم الفائدة عقب الكلام بقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^(١).

إنَّ التقوى من المفاهيم التي تُعتبر ذات أهميةٍ شديدةٍ في القرآن، إلى درجة أنَّها استعملت فيه (٢٢٠) مرةً، ورغم أنَّ متعلِّق التقوى لم يُذكر في بعض الآيات، إلا أنَّ عدداً كبيراً منها ذكر متعلِّقاً لها، قال تعالى: ﴿... تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾^(٢)، وقال أيضاً: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾^(٣).

آثار التقوى في القرآن

للتقوى دورٌ متميِّزٌ في الحياة الفردية والاجتماعية وفي التكامل المعنوي للإنسان، ويمكن بيان أهميتها من خلال بيان ثمارها وتأکید القرآن عليها، ومن خلال بيان نتائجها الدنيوية والأخروية، وبالتدقيق في الآيات يُمكن أن نعرِّض على سبعة عشر أثراً مهماً للتقوى في حياة الإنسان، وسوف نتعرَّض هنا إلى هذه الآثار والثمار:

١. التقوى ورفع الخوف والحزن

قال تعالى: ﴿... فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤).

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٨، ص ٧٠.

(٢) الرعد: آية ٣٥.

(٣) آل عمران: آية ١٩٨.

(٤) الأعراف: آية ٣٥.

كما ذكرنا سابقاً أنّ (الخوف) يرتبط بالأمور المستقبلية، وأنّ (الحزن) فهو يرتبط بالأمور الماضية، والشخص الذي يقوم بوظيفته وتكليفه مراعيّاً التقوى، لن يصيبه حزنٌ على أعماله الماضية ولا ندمٌ، وكذلك لن يكون لديه خوفٌ أو قلقٌ من المستقبل.

٢. مراعاة التقوى وأفضل الجزاء

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

٣. زيادة بركات الأرض والسماء

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

وبناءً على هذا؛ كما أنّ الإيمان والتقوى الراسخين يُمثّلان سبباً لعناية الله ولطفه بعباده في الدنيا، كذلك فإنّ تكذيب الناس ومعاداتهم للأنبياء ﷺ وللحقّ يوجب غضب الله والبُعد عن رحمته؛ وبالتالي هناك علاقةٌ مباشرةٌ بين أعمال الناس وبركات الله، وهناك العديد من الآيات التي تدلّ على هذا الأمر.

٤. التقوى مانعةٌ عن المعصية

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٣).

إنّ الشيطان يُغوي الأفراد الذين هم من أهل الغفلة، وأمّا الأشخاص المؤمنون والبعيدون عن المعصية فهم لا يُصابون بالغفلة، فكيف يسقطون في حبال الشيطان إذا؟!

(١) البقرة: آية ١٠٣.

(٢) الأعراف: آية ٩٦.

(٣) الأعراف: آية ٢٠١.

٥. البصيرة نتيجة التقوى

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...﴾^(١). ويقول العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية: «الفرقان ما يُفَرِّقُ به بين الشيء والشيء، وهو في الآية - بقرينة السياق وتفريعه على التقوى - الفرقان بين الحق والباطل، سواء كان ذلك في الاعتقاد بالترقية بين الإيمان والكفر وكل هدى وضلال، أو في العمل بالتمييز بين الطاعة والمعصية وكل ما يُرضي الله أو يُسخطه، أو في الرأي والنظر بالفصل بين الصواب والخطأ، فإن ذلك كله مما تثمره شجرة التقوى، وقد أطلق الفرقان في الآية ولم يقيده، وقد عدّ جمل الخير والشر في الآيات السابقة، والجميع يحتاج إلى الفرقان»^(٢).

٦. تيسر الأمور في ظل التقوى

قال تعالى: ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(٣). كما أن كلمة (مخرجاً) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٤). لها هذا المعنى أيضاً. إن هذا العالم يتحرك بأجمعه على أساس إرادة الله سبحانه وتعالى، والإنسان العاصي إنما يمشي بعكس كل العالم، وهو يُخالف الله، وهذا الأمر عظيم جداً وخطير كذلك، فإن الإنسان المتقي يعيش بما يُوافق كل عالم الوجود وبما يُوافق الأوامر الإلهية، ولا يُفكر إلا في رضا الله، وهذا النوع من النظرة إلى الدنيا، يُسهّل المُشكلات من وجهة نظره.

(١) الأنفال: آية ٢٩.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٩، ص ٥٦.

(٣) الطلاق: آية ٤.

(٤) الطلاق: آية ٢.

٧. التقوى تمنح المتقي الأفضلية

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

فأكثر الناس طاعة لله هم أكثر الناس تقوى، كما أنهم يمتلكون قيمة واقعية عند الله؛ ومن هنا فإن أفضل الناس عند الله تعالى هم أتقى الناس، وفي المقابل كلما كانت معاصي الإنسان أكثر، كلما قلت قيمته عند الله.

٨. الجنة ميراث المتقين

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(٢).

٩. تعظيم الشعائر الإلهية

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٣).

إن أكبر علامة على التدبّر هي العمل بالدين، وأفضل ما يميّز الإنسان المتحلّي بالتقوى هو العمل بالواجبات الإلهية وترك المحرّمات؛ ومن هنا فالآية مورد البحث تعتبر بأن تعظيم شعائر الله لا يمكن أن يحصل إلا في ظلّ تقوى القلب.

١٠. دعم الله للمتقين

قال تعالى: ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

حينما يكون المتقون في معية الله، فإنّه سوف يُعينهم على معتركات الحياة؛ ومن هنا يقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما يلي: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: بالمعونة والنصرة والحفظ والعلم^(٥).

(١) الحجرات: آية ١٣.

(٢) مريم: آية ٦٣.

(٣) الحج: آية ٣٢.

(٤) البقرة: آية ١٩٤.

(٥) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٥، ص ١٣٥.

١١. حصر قبول الأعمال بالتقوى

قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: «يُستفاد من هذه الآية: أولاً: إنّ التقوى هي ملاك قبول الأعمال، وليس أمراً آخر. ثانياً: إنّ الفرق بين القبول والردّ هو التقوى لا التمييز. ثالثاً: إنّ إصلاح النفس وتحصيل التقوى مقدّم على كلّ عمل»^(٢).

١٢. العاقبة الحسنة

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣). وقال تعالى في الدلالة على نفس الأثر المتقدم أيضاً: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾^(٤). فقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: «وكون العاقبة مطلقاً للمتقين، من جهة أنّ السُّنة الإلهية تقضي بذلك؛ وذلك لأنّه تعالى نظّم الكون نظماً يؤدّي كلّ نوع إلى غاية وجوده وسعادته التي خلّق لأجلها، فإن جرى على صراطه الذي ركب عليه، ولم يخرج عن خطّ مسيره الذي خُطّ له، بلغ غاية سعادته لا محالة، والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع أيضاً حاله هذا الحال، فإن جرى على صراطه الذي رسمته له الفطرة، واتّقى الخروج عنه، والتّعدي منه إلى غير سبيل الله بالكفر بآياته والإفساد في أرضه، هداه الله إلى عاقبته الحسنة، وأحياه الحياة الطيبة، وأرشدته إلى كلّ خير يبتغيه»^(٥).

(١) المائدة: آية ٢٧.

(٢) قرائتي، محسن، تفسير النور: ج ٢، ص ٢٥٨.

(٣) الأعراف: آية ١٢٨.

(٤) ص: آية ٤٩.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، مختصر الميزان في تفسير القرآن، تلخيص إلياس كلانتر: ج ٢، ص ٥٥٣.

١٣. المحبة بين الإخوة في القيامة

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

من الجدير بالذكر أنّ الاختلاف إنّما يوجد حينما يكون هناك محدودية أولاً، وثانياً: حينما لا يكون الأشخاص من أهل العفو والإيثار بسبب نفسيّتهم الشيطانية، ومع الالتفات إلى أنّ الجنة ليس فيها محدودية وأفراد غير صالحين، والجو الذي سيكون حاكماً بين المتقين هناك هو المحبة، وأمّا في النار - كما أشارت الآية - فهناك عداوة بين أهل النار، قال تعالى: ﴿...كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا﴾^(٢).

وقد بيّنت سورة البقرة بأنّ سبب هذا التعامل هو ضلال البعض على يد مجموعة أخرى^(٣)، يقول الطبرسي في تفسير الآية أعلاه ما يلي: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ النَّارَ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلّت بالافتداء بها^(٤).

وقد جاء في آية أخرى فيما يتعلّق بهذا الأمر ما يلي: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾^(٥).

١٤. التكفير عن السيئات والأجر العظيم

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾^(٦).

١٥. المغفرة للعاصين في ظلّ التقوى

قال تعالى: ﴿...وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ...﴾^(٧).

(١) الزخرف: آية ٦٧.

(٢) الأعراف: آية ٣٨.

(٣) البقرة: آية ١٦٦.

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع: ج ١، ص ٤٣٥.

(٥) ص: آية ٦٤.

(٦) الطلاق: آية ٥.

(٧) نوح: الآية ٣-٤.

وبناءً على ذلك؛ فإن العمل المصاحب للتقوى له نتيجتان من النتائج المهمة: الأولى: هي أن نفس العمل في ذاته حسنٌ ويُؤدّي إلى التكامل المعنوي، والثانية: إنه يرفع أثر الأعمال السيئة التي تمّ القيام بها في الماضي، والتي كانت مانعاً عن توفيق من أتى بها.

١٦. صيرورة المتقي محبوباً لله

قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

إنّ أحد الصفات الأخلاقية التي أُشير إليها مراراً وتمّ التأكيد عليها في القرآن هو الالتزام بـ (العهد)، والآيات التي تسبق هذه الآية من سورة التوبة تتكلم حول هذا الموضوع، ورغم أنّ جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ مطلقة، إلّا أنّها نزلت في إطار هذا الدستور الأخلاقي والقرآني؛ ولهذا فإنّ بعض المفسرين يرى أن المتقين في الآية مورد الحديث هو من يُراعي العهود ويلتزم بها^(٢).

١٧. طول العمر

قال تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَقُوا وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾^(٣).

يوصي النبي نوح عليه السلام قومه في هذه الآية بثلاثة أمورٍ أساسية: (١) التوحيد وعبادة الذات الأزلية لله تعالى. (٢) المعاد. (٣) إطاعتهم للرسالة التي أُلقيت على عاتقه. ويقول لهم بعد ذلك: إذا عملتم بهذا الدستور، فأولاً: سيغفر الله لكم بعض خطاياكم، وثانياً: سيؤخر أجلكم وموتكم إلى الزمان الذي تمّ تعيين أوانه بشكل قطعي. وقد أُشير إلى موضوع الأجل وزمان الموت في عدّة مواطن من القرآن، ومنها

(١) التوبة: آية ٧.

(٢) أنظر: المدرّس، عبد الكريم محمّد، مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج ٤، ص ١٣٢.

(٣) نوح: آية ٢-٤.

هذه الآية التي يُستفاد منها بأنّ للإنسان نوعين من الموت، هما:

١. الموت المُلَقَّ والذي ليس له زمانٌ معيّنٌ.

٢. الموت الحتمي لكل فردٍ، والذي لا يقبل التقديم أو التأخير.

ووصول الإنسان إلى مرحلة الموت من النوع الأوّل يتوقّف على أعمالنا، فإنّ بعض أعمالنا تُسبب تأجيله، مثل: صلة الرحم التي تكون مؤثّرة أحياناً إلى درجة أنّها تؤدّي إلى طول العمر حتى وصول وقت الموت الحتمي.

وبالتالي يُستفاد من الآية أعلاه - وكما أشرنا إلى ذلك آنفاً - بأنّ الأشخاص المتحلّين بالتقوى، والذين لا يعصون الله، تُصبح أعمارهم طويلة إلى أن يأتي الموت الحتمي المقدّر لهم من الله، وفي نفس الوقت يُستنتج من الآية بأنّ المعصية سببٌ لقصر العمر؛ ولهذا يُحذّر النبيّ نوح عليه السلام قومه بأنّكم إذا لم تتوقّفوا عن الأعمال القبيحة التي تقومون بها، فإنّ زمان موتكم سيقترّب إلى زمانٍ أقرب من الزمان المعيّن. ونتيجة لهذا الأمر فقد نزل على قوم نوح العذاب الإلهي، وماتوا جميعاً.

٤. التوكّل

بما أنّنا بيّنا المعنى اللغوي لكلمة (التوكّل) في القسم الثاني من هذا الكتاب؛ لذا سنغضّ الطرف هنا عن بيانه مرّةً أخرى، وسنقوم ببحثه وفقاً للرؤية القرآنيّة.

نظرة القرآن إلى التوكّل

يتمتّع التوكّل في القرآن بمنزلةٍ عظيمةٍ، وذلك من خلال ارتباطه بشكل عميق بالمسائل العقائديّة والأخلاقيّة المبيّنة في آياته الشريفة. وعلى هذا الأساس؛ نجد أنّ كلاً من كلمة (وكيل) التي هي مصدرٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ، وكلمة (التوكّل) التي هي مصدرٌ من باب (تفعل) واشتقاقاتها قد وردت سبعين مرّةً في القرآن في مناسباتٍ

مختلفة؛ ومن جملتها أمر الله في القرآن بأن نتَّخذه وكيلاً، وأن نَعتمد عليه للخروج من مشاكلنا، فقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾^(١).

ويمكن لنا أن نُصنّف أكثر آيات التوكّل تحت عنوانين: (١) آثار التوكّل على الله في القرآن. (٢) أنواع التوكّل في القرآن.

آثار التوكّل على الله في القرآن

١. منح الأمل والطاقة

ليس المراد من التوكّل الشعور بالضعف في قبال المشاكل الكبيرة وبالتالي الاستسلام والكسل، وإنّما المراد منه الاعتماد على القدرة اللامتناهية لله، والإحساس بروحيّة الواصل إلى النجاح في ميادين الحياة المختلفة؛ وبناءً على هذا المعنى سيؤدّي التوكّل إلى إحياء الأمل وبثّ الطاقة، وسيكون سبباً لزيادة الوعي والمقاومة. هذا، وأنّ إشارة القرآن إلى قصّة معركة أحد تُعدّ شاهداً على أهمية التوكّل ودوره في حياة الإنسان، فيقول تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢).

٢. الانقطاع عن التعلّقات

للتوكّل جانبان: إحداها ارتباط الإنسان مع مصدر القدرة والعظمة؛ أي: الله عزّ وجلّ، والأخرى: قطع التعلّقات - التي هي منشأ الذلّة والحقارة - بالآخرين، يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣) إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ^(٤). يقول عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى

(١) المزمل: آية ٩.

(٢) آل عمران: آية ١٧٣.

(٣) الطلاق: آية ٣.

بِاللَّهِ وَكَيْلاً^(١).

٣. صيرورة الشخص محبوباً لله

قال تعالى: ﴿...فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٢). وكون الإنسان محبوباً لله لا يعني أن يكون مؤثراً في الله كما يحصل في العلاقات الإنسانية، بل يعني قبوله بالأحكام الإلهية؛ مما يؤدّي في النتيجة إلى أن يعمل الله له ما يعملهُ المحبّ لمحبوبه.

أنواع التوكّل في القرآن

رغم أنّ لكلمة التوكّل معنى واحد في القرآن، ولكن بالالتفات إلى مواطن استعمالها في الآيات، يُمكن تقسيمها إلى خمسة أنواع:

أ) التوكّل على الله لإصلاح المجتمع

قال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنِ ارِيدُ إِلَّا إِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٣). فهذه الآية تحكي لنا خطاب النبي شعيب عليه السلام لقومه وقوله لهم: ليس لي هدف من وراء إصلاحكم سوى التوفيق من الله؛ ولذا لا أعتد ولا أتوكّل في تنفيذي لرسالتي وللوصول إلى هذا الهدف الكبير إلّا عليه، ولن أعتد في حلّ المشاكل إلّا عليه، وسأنيب إليه لتحمل الشدائد التي تواجهني في هذا الطريق.

كما ذكر العلامة الطباطبائي في تفسيره للآية الشريفة أن: «لازم ذلك أنّه تعالى وكيل كلّ شيء في تدبير أموره، فهي [أي الأشياء] منسوبة إليه تعالى في تحقّقها وتحقّق

(١) النساء: آية ٨١.

(٢) آل عمران: آية ١٥٩.

(٣) هود: آية ٨٨.

الروابط التي بينها؛ لما أنه محيطٌ بها قاهرٌ عليها، ولها [أي الروابط] مع ذلك نسبةٌ إلى ذلك الشيء بإذنه تعالى. ومن الواجب للعبد العالم بمقام ربه العارف بهذه الحقيقة أن يُمثلها بإنشاء التوكّل على ربه والإنابة والرجوع إليه؛ ولذلك لما ذكر شعيب عليه السلام أن توفيقه بالله، عقبه بإنشاء التوكّل والإنابة، فقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾^(١).

ب) التوكّل على الله في المصاعب والشدائد

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢). فإنّ هذه الآية - وكما أشرنا في مقدّمة بحث التوكّل - ترتبط بمعركة أحد، وتصف حال المسلمين الذين هُزموا وجُرحوا، ولكنهم مع ذلك توكّلوا على الله مرّةً أخرى، واستعدّوا للحرب من جديد؛ وفي تاريخ صدر الإسلام يُمكن أن يُعتبر الموقف الذي واجهه المسلمين في المعركة المذكورة من أصعب المواقف التي واجهها المسلمون آنذاك، وفيما يلي بعض ما واجههم:

١. استشهاد (٧٤) شخصاً من الأصحاب الأوفياء لرسول الله صلّى الله عليه وآله، ومن بينهم بعض القادة في جيش الإسلام، مثل حمزة سيّد الشهداء.
٢. عصيان مجموعة لا تقلّ عن أربعين رجلاً، وقد أمروا أن يحرسوا مضيّقاً حسّاساً.

٣. الإغارة على أموال العديد من المسلمين ونهبها بعد الهزيمة.

٤. إصابة العديد من جنود الإسلام بالجراح.

٥. اهتزاز السطوة والعزّة التي اكتسبها المسلمون بعد معركة بدر.

ونجد أنّ القرآن مع التفاته إلى هذه المشاكل والصعوبات التي حصلت على إثر هذه

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٠، [ص ٣٧٠].

(٢) آل عمران: آية ١٧٣.

المعركة، إلا أنه يمدح المسلمين ويعدّهم بالجزاء والتعويض بسبب توكلهم على الله، وبأنّ جزاءهم سيكون بثّ الرعب في قلوب أعدائهم، وهو ما يعدّ الأرضيّة لهزيمتهم.

ج) لزوم التوكّل على الله في الأمور المستقبلية

يوصي القرآن الإنسان فيما يتعلّق بالأعمال التي يريد القيام بها في المستقبل، بأنّ عليه ألاّ يعتمد على نفسه اعتماداً تامّاً، وألاّ يرى بأنّ القيام بذلك العمل قطعيّ، بل عليه أن يعزم عليه مع التوكّل على الله، وأن يسعى لتنفيذه بنحوٍ جادٍّ، وعندها سيساعده الله على تحقيقه، قال تعالى: ﴿... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١).

هذا، وقد تمّ بيان لزوم التوكّل على الله في الأمور المستقبلية في آيةٍ أخرى

بالنحو التالي:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾^(٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذَا فَسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾^(٣).

إنّ التوكّل على الله وقول: (إن شاء الله) عن تصديق واعتقاد علامة على نفوذ التوحيد في وجود الإنسان، فالتوكّل الواقعيّ على الله آثارٌ وثمارٌ عديدةٌ على حياة الإنسان من الناحية الروحية وكذلك من النواحي الأخرى. وتجدر الإشارة إلى أنّه يُستفاد من عبارة ﴿وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذَا فَسَيْتَ﴾ أنّ عدم التوكّل على الله نوعٌ من الغفلة عنه والنسيان له.

د) التوكّل على الله في قبال الأعداء

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤). فقد جاء في شأن نزول هذه الآية ما يلي: «إنّ

(١) آل عمران: آية ١٥٩.

(٢) الكهف: آية ٢٣-٢٤.

(٣) المجادلة: آية ١٠.

الآية نزلت في اليهود والمنافقين، حيث كانوا يتناجون فيما بينهم بمعزلٍ عن المؤمنين، مع الإشارة إليهم بأعينهم غمراً، فلما رأى المؤمنون نجواهم ظنوا أن سوءاً حصل لإخوانهم في السرايا فحزنوا لذلك، وبتوا حزنهم لرسول الله ﷺ، فأمرهم الرسول ألا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فنزلت الآية أعلاه وهددتهم بشدة^(١).

إذا؛ فالآية أعلاه تُشير إلى خطط الشيطان وأتباعه من المنافقين والكفار، ويُشبه القرآن في بدايتها عملهم على إزعاج المؤمنين بعمل الشيطان، ولكنه فيما بعد يبين أنكم أيها المؤمنون إذا قمتم بتنفيذ الأوامر الإلهية فلن يستطيعوا أن يضروا الإسلام؛ لأن كل من يؤثر في عالم الوجود، إنما يؤثر فيه بإذن الله حتى إحراق النار وقطع السيف. وبناءً على هذا؛ يجب على المؤمنين أن يتوكلوا على الله، وألا يخافوا من شيء سوى الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. ويمكن للمؤمنين من خلال روح التوكل والاعتماد على الله أن يتجاوزوا وينتصروا على جميع هذه المشاكل، وأن يُفشلوا جميع خطط أتباع الشيطان، فترتد جميع مؤامراتهم عليهم؛ ومن هنا نجد أن الله يُواسي المؤمنين بهذه الآية الشريفة، ويبيّن لهم بأن هذه المؤامرات لا يمكنها أن تمسهم بسوء إلا بإذن الله؛ لأن زمام جميع الأمور بيده عز وجل، وبالتالي فعليهم - في المقام - أن يتوكلوا على الله سبحانه وتعالى. هذا، وقد تمّ التصريح بهذا المعنى في موطن آخر من القرآن، بحيث قال عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢).

هـ) التوكل على الله في الأمور المعنوية

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

(١) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٨، ص ١١٩.

(٢) الطلاق: آية ٣.

عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾.

تُبَيِّنُ الآية الأولى بأنّ الإنسان حينما يعزم على تلاوة القرآن فعليه أن تستعيز بالله من الشيطان الرجيم، وأن يقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وأمّا الآية الثانية التي تقول: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فهي في مقام تعليل الأمر الذي جاء في الآية السابقة، والذي يتعلّق بالاستعاذة، وبالتالي يُصبح معنى الآيتين الأوليين ما يلي: حينما تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان؛ لأنّ الذين يؤمنون بالله ويتوكلون عليه هم الوحيدون الآمنون من شرّ الشيطان.

ويُستفاد من مجموع الآيات الثلاثة أمران:

الأمر الأول: هو أنّ الاستعاذة بالله هي توكلّ على الله؛ لأنّه عزّ وجلّ أتى في تعليله للزوم الاستعاذة بمفردة التوكلّ بدلاً من الاستعاذة نفسها، ونفى بذلك سلطان الشيطان على المتوكلين.

الأمر الثاني: هو أنّ الإيمان والتوكلّ معياران لصدق العبوديّة التي يكون ادّعاؤها بدونها ادّعاءً كاذباً؛ ومن هنا فإنّ العلامة الطباطبائي يرى بأنّ الاعتبار العقلي ينسجم أيضاً مع هذا المعنى، فقال: «إنّ التوكلّ - وهو إلقاء زمام التصرف في أمور نفسه إلى غيره، والتسليم لما يؤثره له منها - أخصّ آثار العبوديّة. [ثمّ يقول بعد ذلك في مقام تفسير] قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(١)، ضمائر الأفراد الثلاثة للشيطان؛ أي: ينحصر سلطان الشيطان في الذين يتخذونه وليّاً لهم، يُدبّر أمورهم كما يريد، وهم يطيعونه، وفي الذين يشركون به؛ إذ يتخذونه وليّاً من دون الله وربّاً مطاعاً

(١) النحل: آية ٩٨ - ١٠٠.

(٢) النحل: آية ١٠٠.

غيره، فإن الطاعة عبادة... وبذلك يظهر: أولاً: أن ذيل الآية يُفسّر صدرها، وأن تولّي مَنْ لم يأذن الله في تولّيهِ شركٌ بالله وعبادةٌ لغيره. وثانياً: أن لا واسطة بين التوكّل على الله، وتولّي الشيطان وعبادته، فمن لم يتوكّل على الله فهو من أولياء الشيطان^(١).

ويستفاد من مجموع هذه الآيات بأن الشخص الذي يُريد أن يرتبط مع الله ارتباطاً خالصاً، وألا يكون فيه ذرّة تحت سيطرة الشيطان، فعليه أن يهتمّ بمبدأي الإيمان بالله والتوكّل عليه، والسنة الإلهيّة قائمةٌ على أن الشخص حينما يُسلم نفسه لله بنحوٍ كاملٍ، ويسعى كلّ السعي من أجل ذلك، فإن الله سيتولّى حفظه.

ويمكن القول بنحوٍ مُلخّصٍ: إنّ الإيمان والتوكّل عبارةٌ عن ملاكين ومعياريين لقياس الصدق في العبوديّة؛ ومن هنا يُمكن للشخص أن يتعالى في مسيره في الأمور المعنويّة، وأن يُحصّل التوفيق بسبب ما لديه من عشقٍ تجاه الله، وذلك إذا كان يتحلّى بالإضافة إلى الإيمان بالتوكّل التامّ على الله أيضاً. وللتوكّل من وجهة نظر القرآن ماهيّة اعتقاديّة وصبغة أخلاقيّة أيضاً، فالحصول على حالة التوكّل واستعماله في شؤون الحياة، يُمثّل منشأً للعديد من الآثار الإيجابيّة؛ ومن هنا نجد أن القرآن يأمرنا في بعض الآيات المذكورة بجعل الله وكيلاً لنا، وأنّه من المهمّ جدّاً على الإنسان الضعيف والمحدود، أن يعتمد ويتوكّل على مصدرٍ كهذا لا يتناهى في كمالاته، وأن يستمدّ العون منه.

٥ و ٦. الخوف والرجاء

إنّ تعاليم القرآن والأخلاق الإسلاميّة، تضع الإنسان في إطارٍ متوازنٍ بين الخوف والرجاء.

المراد من (الخوف والرجاء)

جاء في معاجم اللغة في تعريف الخوف والرجاء ما يلي: «الخَوْفُ: توقّع مكروهٍ

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٢، ص ٣٤٤.

عن أمانة مظنونة أو معلومة، كما أنّ الرجاء والطمع توقّع محبوبٍ عن أمانة مظنونة أو معلومة، وبضادّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية^(١).

وأما ما ذكر حول الخوف والرجاء في الكتب الأخلاقية، فهو أن: «الخوف والرجاء جناحان، بهما يطير المقرّبون إلى كلّ مقام محمود، ومطيّتان بهما يُقطع من طريق الآخرة كلّ عقبة كؤود»^(٢).

ومن الجدير بالذكر أنّ الخوف في القرآن الكريم لا يعني (الجن)، فالخوف الناشئ من الجن مذموم؛ لأنّ الإنسان لا يُدافع عن نفسه في هذه الحالة، وأما الإنسان الأخلاقي فإنّه يسعى لأن يُخرج نفسه من الخوف إلى الأمن.

مقام الخوف في القرآن

لقد تكرّرت كلمة الخوف واشتقاقاتها في القرآن حوالي (١٥٠) مرّة، وقد كان متعلّق الخوف في تسع آيات منها هو (الله) أو (مقام الربّ)، وتقريباً بنفس العدد جاء متعلّقها عذاب القيامة، أمّا الخوف في الآيات الأخرى فقد استعمل في مجالات مختلفة، وبدورنا سنذكر آية واحدة لكلّ مورد استعملت كلمة الخوف فيه: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ ^(٣) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ^(٤). وقال تعالى: ﴿... مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۚ إِنِّي أَخَافُ اللَّهََ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ ^(٥). وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ...﴾ ^(٦). وقال تعالى: ﴿...يَمْوَسَّىٰ لَا تَخَفْ ۖ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ ^(٧).

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٠٤.

(٢) فاطمة محجوب، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: ج ١٦، ص ٤٨٢.

(٣) النازعات: آية ٤٠ و ٤١.

(٤) المائدة: آية ٢٨.

(٥) هود: آية ١٠٣.

(٦) النمل: آية ١٠.

إنّ الخوف من (مقام الربّ) و(عذاب الآخرة) وأمثالهما هو أمرٌ إيجابيٌّ وممدوحٌ، وله أثرٌ كبيرٌ في إصلاح نفس الإنسان، وعدم الخوف في هذه المواطن هو الذي يُعدّ مخالفاً للقيم. وأمّا الخوف الوارد في الآية الرابعة ونحوها، فيُعتبر من الخوف المنهي عنه؛ لأنّ الإنسان لا ينبغي أن يخاف من المنحرفين والطواغيت^(١).

مراحل الخوف

إنّ مقدار الخوف من الله والسعي للوصول إلى (الأمن) في الدنيا والآخرة ليس واحداً عند جميع المؤمنين، وإتّما يتوقّف ذلك على مرتبة الإيثار ومعرفة الله ومعرفة القيامة؛ ومن هنا قيل: «كلّما اشتدّت قوة الخوف وقدرته، وأدّى إلى اجتناب الإنسان عن الشبهات فضلاً عن المحرمات، سُمّيت هذه الحالة بـ (التقوى)، أمّا الصديق في التقوى فيحصل من خلال تجنّب بعض الأمور الجائزة والمباحة؛ كي لا يُهَيّئ الأرضية لارتكاب الحرام أصلاً؛ وفي النتيجة حينما يُصبح الإنسان بسبب شدة خوفه من الله جاهزاً من جميع الجوانب لأن يكون في خدمته عزّ وجلّ، وألاّ يبيّن داراً تفوق على حاجته، وألاّ يدخّر المال أو يتعلّق به وهو يعلم أنّه سيُفارقه يوماً ما، وكذلك لا يصرف نفساً من أنفاس حياته في غير سبيل الله، عندها يكون قد وضع قدمه حقيقةً في وادي الصديق، ويُطلق على هذا المقام مقام الصديقين. ومن هنا؛ فإنّ مقام الصديق ينطوي في داخله على التقوى والورع، والتقوى تنطوي على الورع أيضاً، وطبعاً (الورع)

(١) الذي يفيد سياق الآية أنّ خوف موسى ﷺ لم يكن من الطغاة، بل كان مما شاهده من تحوّل العصى إلى ثعبان، وإن كان النهي في الآية عن مطلق الخوف. قال العلامة الطباطبائي: «وقوله: لا تَخَفْ. نهْيٌ مطلق يؤمّن عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام في حضرة القرب والمشافهة؛ سواء كان المخوف منه عصاً أو غيرها؛ ولذا علل النهي بقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾». الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ٣٤٤. (خ).

يُصاحب العفة أيضاً؛ لأنّ العفة ليست شيئاً غير اجتناب الشهوات»^(١).

الخوف والأمل

من وجهة نظر الأخلاق الإسلامية، ليس المطلوب أن يتسلّط الخوف من الله ومن عذابه على وجود الإنسان فحسب، فإنّ ذلك له آثارٌ سلبية ومضادةٌ للقيم الدينية، وفي المقابل ليس من الصحيح الاعتماد على الأمل فقط، ولا يُمكن للمسلم أن يخطو خطوةً على الصراط المستقيم وجادة الهداية والتكامل، إلّا إذا كان لديه خوف من مخالفة الله وكذلك الأمل بلطف الله ورحمته، وهذان الاثنان عبارة عن جناحين يطير بهما معنوياً.

الرجاء في الآيات

ذُكرت كلمة الرجاء واشتقاقاتها (٢٨) مرّة في القرآن، وأشارت عشرة منها إلى (رحمة الله)، وأمّا أكثر المواطن الباقية فقد تحدّثت عن (رجاء لقاء الله في القيامة). وهناك عواقب أخلاقية مضرّة على نشاط الإنسان وبُنية حياته فيما إذا لم يكن لديه رجاءٌ برحمة الله ولطفه، ولم يكن لديه رجاءٌ بقاء الله تعالى يوم القيامة، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢). وفي الحقيقة أنّ ما جعل الأنبياء وأصحابهم في مرتبة القدوة للناس هو رجاءُهم وأملهم بالعناية الإلهية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣). فإنّ الرجاء بلقاء الله يوم القيامة يُمثّل سبباً للعمل الصالح في الدنيا وللابتعاد عن الرياء؛ وذلك

(١) ديلمى، أحمد، وأذربايجاني، مسعود، اخلاق اسلامى [= الأخلاق الإسلامية]: ص ١٠٢.

(٢) الممتحنة: آية ٦.

(٣) الكهف: آية ١١٠.

كي لا ينجل الإنسان من نفسه يوم القيامة من محضر الله. وبالنظر إلى الدور المهم للرجاء في البعد الأخلاقي والروحي للإنسان؛ نجد أن القرآن يواجه اليأس وعدم رجاء لطف الله بشدة وحزم، ويعد ذلك أمراً حراماً وممنوعاً، فيقول تعالى: ﴿يَبْنَئِ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

إن السلوك إلى الله مبني من الأساس على سلوك سبيل بين الخوف والرجاء، وبالتالي إذا غلبنا أي جانب منهما، فسوف يضرب ذلك توازن السالك، وسوف يجره نحو حضيض اليأس أو الكبر والعجب والرياء.

إن الخوف من الله بمنزلة السوط بالنسبة لسلوك العبيد في وادي القرب الإلهي، كما أن ضعف هذا السوط أو فقدانه يترك السالك يمشي نحو الله بلا زاد ولا راحلة، ولكن الشدة والزيادة عن الحد تؤدي إلى إطفاء شعلة الأمل والرجاء في القلب بإمكانية الوصول إلى المنزل المقصود، وتسلبه القدرة على الحركة؛ ومن هنا فإن الإفراط في الخوف من الله يُمثل قنوطاً ويأساً من رحمة الله، وهو آفة كبيرة من آفات الخوف من الله، ويُعتبر أحد الرذائل الأخلاقية الكبيرة^(٢).

أشار الرجاء في القرآن

أ) تهوين المصائب

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾^(٣).

(١) يوسف: آية ٨٧.

(٢) أنظر: ديلمي، أحمد، وأذربايجاني، مسعود، أخلاق إسلامي [= الأخلاق الإسلامية]: ص ١٠٤.

(٣) النساء: آية ١٠٤.

في هذه الآية الشريفة يقول القرآن للمجاهدين: كما أنّكم تحمّلتم المصاعب وبذلتم الجهود في الحرب، كذلك فعل الكفار، ولكنكم - أيها المؤمنون - تمتازون عليهم بمزية، وهي أنّكم ترجون رحمة الله ولطفه عليكم، وتمتازون أيضاً بعدم حصول أعدائكم على عناية الله، وبالتالي ينبغي أن تصبح مصاعبكم أسهل.

ب) الحرص على العمل الصالح والابتعاد عن الرياء

قال تعالى: ﴿... فَتَنَ كَانِ يَرْجُو إِفْقَاءَ رَبِّهِ فَلَيعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١). أي: إنّ الإنسان إذا كان في قلبه انتظارٌ ليومٍ كهذا اليوم وهو يوم اللقاء مع الله الواحد الأحد، فسوف يؤدّي ذلك إلى أن يكون ذا عملٍ صالحٍ وعبادةٍ خالصةٍ لوجه الله عزّ وجلّ.

ج) العبادات نتيجة لرجاء الرحمة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ﴾^(٢).

ويمكننا أن نستنتج هذه النتيجة في نهاية بحث الخوف والرجاء، وهي أنّ مفهومي الخوف والرجاء من المفاهيم التي تمّ التأكيد عليها في تعاليم القرآن الأخلاقية، وفي القرآن بشكلٍ عام، وأنّ وجودهما من أجل الابتعاد عن المعاصي والإقبال على الطاعات لازمٌ وضروريٌّ، ولكن بشرط أن يكون الإنسان حائزاً لهما معاً، فعندها يُمكن أن يؤدّي إلى وصوله إلى الكمال المطلوب، ولكن إذا كان الموجود هو الخوف فقط، فسوف يفقد الإنسان الأمل من رحمة الله، ولن يعمل على إصلاح نفسه، وفي المقابل إذا كان يعتقد برحمة الله فقط، فلن يبتعد عن المعاصي، ولن يُقدم على التوبة.

(١) الكهف: آية ١١٠.

(٢) فاطر: آية ٢٩.

٧. الخشوع

هناك بعض المفاهيم الأخلاقية التي لها معنى قريب وشبيه مع بعضها البعض، من قبيل: الخشوع والتضرع والاستكانة والتواضع. وقد ذكر الراغب الأصفهاني في معنى كل من الخشوع والتضرع ما نصه: «الخُشُوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب؛ ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خَشَعَت الجوارح»^(١).

وقد جاء في الفروق اللغوية أيضاً: «الخشوع: يُقال باعتبار الجوارح»^(٢). وبناءً على هذا؛ فهناك ارتباط بين هاتين الكلمتين، فحينما يتأثر القلب، يُمكن مشاهدة أثر ذلك التأثير في انفعالاته وحركات أعضائه وجوارحه، والآيات التي من قبيل قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٣)، تعتبر أنّ الخشوع وتأثر الجوارح إنّما يحصلان على أثر التوجه إلى الله وانكسار القلب. كما أنّ الخشوع في الاصطلاح العرفاني يعني الخمود والركود وعدم الحركة، فالأرض الخاشعة تعني الأرض التي ليس فيها أي حركة، والمراد من ذلك هو التواضع مع خلق الله وتكسير أصنام التكبر والغرور^(٤).

الوصية بالخشوع في القرآن

لقد استعملت اشتقاقاً مختلفة لكلمة الخشوع في القرآن سبعة عشر مرة،

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ١٤٩.

(٢) العسكري، أبو هلال، معجم الفروق اللغوية، تنظيم: بيت الله، بيروت: ص ٢١٦.

(٣) المؤمنون: آية ٢.

(٤) أنظر: سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]: ص ٣٤٠.

وجميع الآيات المتعلقة بهذا الموضوع تعتبر الخشوع قيمةً عباديةً وأخلاقيةً، وإبراز الخشوع من وجهة نظر القرآن يُصبح له قيمةً فقط في حال كونه لله وحده، وفي المقابل إذا كان هذا الخشوع لغير الله فهو غير جائز، ومن الناحية الأخلاقية يُعتبر ذلك مضاداً للقيم؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن يدعو المؤمنين لأن يسعوا للوصول إلى مقام الخشوع، وأن لا يُضيّعوا الوقت دون الوصول إلى هذا المقام المعنوي، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾^(١).

هذا، وأن القرآن كما يوصي بالوصول إلى مرتبة الخشوع، فكذلك يمدح في بعض الآيات (الخاشعين)، ويَعِدُّهم بالمغفرة والجزاء العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾^(٢). وقال أيضاً: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

علامات الخشوع الواقعي

يبين القرآن أنّ الأشخاص الخاشعين خشوعاً واقعياً، تظهر عليهم ثلاث علامات تدلّ على ذلك، وهي:

(أ) أن يكون خشوعهم لله

قال تعالى: ﴿...وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِكَائِدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً...﴾^(٤).

(١) الحديد: آية ١٦.

(٢) الأنبياء: آية ٩٠.

(٣) الأحزاب: آية ٣٥.

(٤) آل عمران: آية ١٩٩.

إنّ هذه الآية بصدد تمجيد بعض الأشخاص من أهل الكتاب ممّن آمن بالله وبنبوّة الرسول ﷺ، وذلك في نفس الوقت الذي يقبلون فيه بالتوراة والإنجيل الواقعيّين، وهم في حالة من الخشوع لله أيضاً.

ب) الصلاة مع الخشوع

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾. لأنّ الصلاة أفضل العبادات، والخشوع هو روح العبادة، وإذا لم تكن هناك حالة من الخشوع في أعضاء المصلّي وجوارحه، فذلك يعني أنّه لم يكتسب الإيمان الواقعيّ بعد.

ج) الأنس بالصلاة

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٣﴾. فإنّ الصلاة بالنسبة للإنسان الذي وصل إلى الخشوع عبارة عن لذّة، ومَنْ يتلذذ بالصلاة، لا تُصبح حينها صعبةً أو ثقيلةً عليه، والخشوع من هذا الجانب يُمثل أمراً أخلاقياً، وهو حالة ثابتة ومؤثّرة في عمل الإنسان وفي ذاته.

٨. التضرّع في القرآن

عند البحث حول المعنى اللغويّ للتضرّع، ذكر بأنّه تأثر القلب بالأحداث، والمصاعب والمواعظ، ويسري أثره إلى الأعضاء الظاهريّة للإنسان. وفي قبال التضرّع وانكسار القلب يوجد القساوة وتحجّر القلب، وقد أقرّ القرآن بهذه الحقيقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤﴾.

(١) المؤمنون: آية ١-٢.

(٢) البقرة: آية ٤٥.

(٣) الأنعام: آية ٤٣.

وعلى أية حال، إنّ التضرّع هو اللطف والانكسار والتوجّه إلى الله واستعداد القلب لعنايات الله تعالى، والقرآن يسعى إلى إيجاد هذه الحالة في وجود الإنسان؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن يبين أن السبب الذي من أجله أصاب الله عزّ وجلّ بعض الأقوام والأمم بالبأساء والضراء؛ هو لأجل أن يرجعهم، ولكي تحصل عندهم حالة التضرّع، ولكي يزيل الصداً عن قلوبهم، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(١). فإنّ المصاعب والمتاعب والابتلاءات تُفيد في جلاء القلب وتجعله مستعدّاً لقبول الفيوضات الإلهية، طالما لم تُسلب الحياة من هذا القلب بشكل تامّ، فلا يُمكن للأرض المالحة وغير الصالحة للزراعة أن تُصبح خضراء ومليئة بالورود والأزهار؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن يقول عن ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾^(٢). والمراد من العذاب في الآية هو العذاب الخفيف، وذلك العذاب الذي لا يقضي على الإنسان تماماً.

٩. الاستكانة

لقد استعملت مفردة (الاستكانة) في الآية السابقة بنحو يُرادف التضرّع أو بمعنى قريبٍ منه، ورغم أنّ البعض فسّر الاستكانة بأنّها بمعنى (التواضع)، إلّا أنّ الراغب الأصفهاني فسّرها بمعنى التضرّع وانكسار القلب، حيث قال: «اسْتِكَانَ فلان: تَضَرَّعَ وكأنّه سكن وترك الدّعة لضرّاعته، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ﴾»^(٣). وحينما يسكن القلب، يذهب التكبر والغرور جانباً، وتأتي حالة من الرقة والصفاء والتقبّل والاستعداد للحقّ، وهذه الحالة تُسمّى (استكانة القلب)، وهي إحدى القيم الأخلاقية والمعنوية التي لا بديل لها، والتي تُمثّل القاعدة الأساسية للهداية نحو

(١) الأنعام: آية ٤٢.

(٢) المؤمنون: آية ٧٦.

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٤٦١.

الصراط المستقيم للحق، وقد ذكر الطبرسي في تفسير هذه الآية قائلاً: «والاستكانة: الخضوع، وهو (استفعل) من الكون، والمعنى: ما طلبوا الكون على صفة الخضوع»^(١). ثم إنه ﷺ بعد بحثه في المعنى اللغوي، يقول: «﴿فَمَا اسْتَكَاؤُا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: ما تواضعوا ولا انقادوا»^(٢).

وعلى كل الأحوال، سواءً فسرنا الاستكانة بمعنى التضرع أم بمعنى التواضع أم بمعنى الخضوع، فإن القرآن قد استعملها على أنها إحدى القيم الأخلاقية البناءة.

١٠. الخشية

إن الخشية هي إحدى التعابير الأخلاقية والعرفانية، والتي لها في القرآن كذلك منزلة مهمة وقيمة، وقد قال اللغويون في مقام تعريفها: إن مفردة الخشية تعني الخوف والوجل والتوجس الذي يحصل بسبب العظمة والمهابة^(٣). وقد نقلت دائرة معارف التشيع المعنى الاصطلاحي لـ (الخشية) عن [الشريف] الجرجاني وهو: «تألم القلب بسبب توقُّع مكروه في المستقبل، يكون تارةً بكثرة الجناية من العبد، وتارةً بمعرفة جلال الله وهيبته. وخشية الأنبياء من هذا القبيل»^(٤).

الفرق بين الخوف والخشية

يُصِف معجم الفروق اللغوية الفرق بين (الخوف) و(الخشية) بالنحو التالي: الخوف والخشية وإن كانا في اللغة بمعنى واحد [أو معناهما متقاربان]، إلا أنَّ بين خوف الله وخشيته في عرف أرباب القلوب فرقاً، وهو أنَّ الخوف تألم النفس من

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٧، ص ١٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ج ٧، ص ١٨١.

(٣) أنظر: دهخدا، علي أكبر، لغتنامه [= قاموس]: ج ٦، ص ٨٦٣٠.

(٤) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات: ص ٨٦-٨٧.

العقاب المتوقّع بسبب ارتكاب المنهيات، والتقصير في الطاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق وإن كانت مراتبه متفاوتة جدّاً، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلّا للقليل. والخشية: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيئته وخوف الحجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلّا لمن اطلع على حال الكبرياء، وذاق لذة القرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، فالخشية: خوف خاص، وقد يطلقون عليها الخوف. [انتهى كلام المحقق الطوسي]. ويمكن أن يُبيّن هذا الفرق أيضاً بقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، حيث ذكر الخشية في جانبه سبحانه والخوف في جانب الحساب^(١).

منزلة الخشية في القرآن

لقد ذكرت كلمة الخشية في القرآن ثمان مرّات، وأمّا اشتقاقاتها فقد استعملت فيه أكثر من أربعين مرّة، كما أنّه قد تمّ الاهتمام بهذا الموضوع في الروايات بشكل كبير أيضاً، ويمكن أن نصل إلى بعض النقاط المهمّة من خلال الآيات التي تعرّضت لموضوع الخشية، وهي كالتالي:

(أ) مَن يخاف ومَن لا يخاف؟

(ب) كيف يمكن لنا الوصول إلى مقام الخشية؟

(ج) ما هي آثار الخشية من الله؟

وسوف نقوم ببيان هذه النقاط وتحليلها بالاستمداد من الآيات المباركة:

(أ) مَن يخاف ومَن لا يخاف؟

يتّضح من المباحث السابقة أنّ الخشية هي أحد المقامات (المعنويّة والأخلاقيّة)،

(١) أنظر: العسكري، أبو هلال، معجم الفروق اللغويّة، تنظيم: بيت الله، بيّات: ص ٢١٨.

وكلّما كانت المعرفة أعمق كلّما تجلّت عظمة الله وجلاله بنحوٍ أكبر للإنسان، وفي النتيجة سيحصل على مرتبة أعلى من الخشية؛ ومن هنا يعتبر القرآن بأنّ الخشية منحصرةٌ بالعلماء الصادقين، فيقول تعالى: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(١).

إذاً؛ فعلى الناس تحصيل هذا العلم وهذه المعرفة من خلال النظر إلى عظمة عالم الطبيعة وطبقات الأرض والحياة والمجتمع، وكذلك عليه أن يكتسبها عن طريق العبادة والعبوديّة، وهذان الطريقتان (العلم والإيمان) إذا كانا توأماً مع السلوك والتحصيل، فسوف يصل إلى النتيجة المطلوبة، وقد جاء في تفسير الآية أعلاه ما يلي: «وإنما يخاف الله بالغيب أهل العلم، فهم الذين يتأملون في هذا الاختلاف بين المخلوقات، ويدركون عظمة الصانع، وقدرته على صنع ما يشاء، وفعل ما يريد، فمن كان أعلم بالله، كان أخشى له، ومن لم يخش الله فليس بعالم، فالعلم رأس الخشية وسببها... وقال الله تعالى: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾»^(٢).

وبناءً عليه؛ يُمكن الوصول من خلال طريق المعرفة والعلم والإيمان إلى مقام الخشية من الله تعالى.

ج) آثار الخشية من الله في القرآن

١. الوصول إلى مقام الرضا

إنّ أحد أعلى المقامات العرفانيّة والأخلاقيّة هو نيل مرتبة الرضا برضا الحقّ، بحيث يرى أنّ كلّ ما يأتي من ناحية الله فقد أتى من الحبيب فيفرح لذلك، فيقول تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^(٣).

(١) فاطر: آية ٢٨.

(٢) الزحيلي، وهبة، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ج ٣، ص ٢١٣٢.

(٣) البينة: آية ٨.

يقول محيي الدين بن عربي في تفسيره العرفاني في ذيل هذه الآية: «وأعلى درجاتهم (أي: خير البرية) مقام كمال الصفات الذي هو الرضا ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾؛ أي: ذلك المقام مخصوص بمن علته الخشية الربانية عند تجليّه بصفة العظمة؛ لأنه إذا تجلّى الربّ على القلب بصفة العظمة استولت الخشية على العبد، وذلك ليس هو الخوف المنافي لمقام الرضا، بل هو حكم التجلي وأثره في النفس»^(١).

٢. تقبُّل الهداية

إنّ الشرط الأساسي للهداية هو وجود الأرضية المناسبة لتقبُّل الحقّ، وهنا يرى القرآن في بعض الآيات بأنّ الخشية - التي هي عبارة عن معرفة عظمة الله والخوف الناشئ من كبريائه - لازمة أيضاً في مقام الهداية، فقد قال تعالى: ﴿إِلَّا نَذْكِرْكَ لِمَنْ يَخْشَى﴾^(٢). وقال: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾^(٣).

وهذه القاعدة تجري في مجال هداية الإنسان، فكلّما كان لديه مزيدٌ من المعرفة - وبالتالي زيادة الخشية من الحقّ تعالى - كلّما كانت درجات هدايته وتأثره أكبر.

٣. أخذ العبرة

إنّ أحد الآثار والثمار المهمة لـ (لخشية) أخذ العبرة من العقوبات الإلهية التي وقعت على العصاة، فمن الطبيعي أن يكون تأثر أهل الخشية (بسبب معرفتهم بالله وخوفهم الناشئ من هذه المعرفة) أكثر عندما يُشاهدون الأفراد والأقوام الذين حلّ بهم البلاء، وقد أشار القرآن في سورة النازعات إلى قصّة فرعون ومخالفته لرسول الله موسى عليه السلام،

(١) ابن عربي، محيي الدين، تفسير القرآن الكريم: ج ٢، ص ٨٣٦.

(٢) طه: آية ٣.

(٣) يس: آية ١١.

وبعد بيانه للعذاب الإلهي على آل فرعون يبيّن بأنّ هذه الأحداث تحمل العبر لأهل الخشية، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾^(١).

٤. الإحساس بالمسؤوليّة الكبيرة أمام القرآن

إنّ تأثير تلاوة آيات القرآن أو سماعها ليس متساوياً بالنسبة للجميع، فالبعض يستمتع لها أو يقرأها بلا مبالاة، وليست بالنسبة له إلّا لقلقة لسان، ولكنّ القرآن يُشير إلى المؤمنين الذين يتأثرون جدّاً عند سماعهم لآيات القرآن، فتتشعّر لذلك أبدانهم، فيقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَن يَشَاءْ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۚ﴾^(٢).

٥. المغفرة والأجر العظيم

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٣).

(د) الكلمات المرادفة أو المشابهة للخشية

نقلت دائرة معارف التشيع عن العلامة الطباطبائي تعريف الخشية بالنحو التالي: الخشية نوعٌ من الذلّة، وحالة الذلّة تظهر في العيون قبل كلّ شيءٍ آخر، والخشية تُرادف الإشفاق والخوف والرعب والفرع والمخافة والرهبّة والوجل والروع والمهابة والتوجّس، والخشية لا تعني كلّ نوعٍ من الخوف، بل الخوف المصاحب للتعظيم والاحترام، وفي الواقع هو كالخوف الذي يصدر من الابن تجاه أبيه؛ ومن هنا فإنّ المتّقين يُصاحب خوفهم المعرفة، والخشية هي الجنبّة القلبيّة، أمّا الإشفاق ففيه جنبّة

(١) النازعات: آية ٢٥-٢٦.

(٢) الزمر: آية ٢٣.

(٣) الملك: آية ١٢.

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص ٢٧٢.

الشكر لكلّ نعمة، ونهاية ذلك تكون بالعمل بمقتضى النعم الإلهيّة، وكيفيّةته من خلال صرفها في مصارفها الشرعيّة، وأمّا الكفر بها؛ فهو صرفها في وجوه المعاصي^(١).

الشكر في القرآن

إنّ الشكر من الكلمات التي استُعملت في القرآن الكريم كثيراً، كما استُعملت اشتقاقاتها في القرآن سبعين مرّة في مناسباتٍ مختلفة، وبالالتفات إلى التقسيم الثلاثي لمعنى الشُّكر - الذي أشار إليه الراغب الأصفهاني - ومع الأخذ بعين الاعتبار آيات القرآن، يتّضح بشكلٍ جيّد أنّ القرآن أراد أنواع الشكر الثلاثة جنباً إلى جنب؛ لأنّه بدون تصوّر النعمة، فلا معنى للشكر هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فمن وجهة نظر القرآن يفقد الشكر معناه إذا كان من دون طاعة الأوامر الإلهيّة، ومن جهةٍ ثالثة فإنّ الشُّكر اللسانيّ ضروريّ كذلك؛ لأنّ إظهار النعمة هو أحد العناصر الأساسيّة لمعنى الشُّكر، وبالتالي ينبغي النظر إلى الآيات المرتبطة بالشكر والتحقيق فيها بنظرة تجمع الأنواع الثلاثة.

الحكمة من شكر الله

إنّ الوصايا الكثيرة للقرآن بالشكر لا تعني حاجة الله للشكر، بل هي لإثبات الآثار واللوازم التي يُمكن الوصول إليها من خلال شكر الله، فهناك بعض المعارف الاعتقاديّة والأخلاقيّة المتعدّدة التي تستترّ في ماهيّة الشكر لنعم الله، وهي تحصل في ظلّ الالتزام بالشكر، من قبيل:

- الشكر في العمل هو بنفسه إثباتٌ للاعتقاد بوجود الإله المُنعم.

- إنّ مقدار المعرفة التي عند الشاكر على النعم الماديّة والمعنويّة لله يتّضح من

(١) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٣، ص ١٠٠.

خلال كمية شكره وكيفيته.

- من خلال الشكر يصل الإنسان إلى إحدى القيم الأخلاقية والإنسانية.

- من لوازم الشكر الحصول على الجزاء المادي والمعنوي.

وبناءً على هذا؛ فجميع آثار الشكر وثماره تعود إلى الشخص الشاكر، وأمّا الله عزّ وجلّ فلا يحتاج إلى شكر الناس، والقرآن الكريم يُشير إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١).

فوائد الشكر وثماره في القرآن

أشارت آيات القرآن إلى نتائج شكر العباد للساحة المقدسة للربّ الودود، وسوف نتعرّض هنا إلى بعض هذه النتائج:

١. الجزاء

قال تعالى: ﴿نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾^(٢). فلقد جازى الله عزّ وجلّ أصحاب النبيّ نوح عليه السلام على أدائهم لتكليفهم وعلى شكرهم لربّهم من خلال إنقاذهم من الغرق.

٢. مانع من العذاب

قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^(٣). يُهدّد الله تعالى [قبل آيتين من] هذه الآية المنافقين بالعذاب، ثمّ يقول بعد

(١) لقمان: آية ١٢.

(٢) القمر: آية ٣٥.

(٣) النساء: آية ١٤٧.

ذلك: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، [ثمّ يتبعها بالآية المذكورة]، ويتّضح من ذلك بأنّ الشكر لا يقتصر على الشكر اللساني، وإنّما الشكر الواقعي هو إطاعة أوامر الله؛ ومن هنا نجد أنّ العلامة الطباطبائي يقول في تفسيره للآية: «الشكر الذي حقيقته استعمال النعمة بنحو يذكر إنعام النعم ويظهر إحسانه، ويؤول في مورده تعالى إلى الإيمان به والتقوى»^(١).

وقد جاء في تفسير الأمثل تعبيراً آخر عن معنى الشكر: «حقيقة الشكر هي أن يستغل الإنسان النعم التي وهبها الله له في الجهات المخصّصة لها»^(٢). ومن هنا؛ فإذا أدّى الشكر بمعناه القرآني، فسوف يكون مانعاً من العذاب.

٣. زيادة النعم

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٣). فقد كتب الفخر الرازي في التفسير الكبير حول كيفية كون الشكر على النعم باعثاً على زيادة تلك النعم، فقسم النعم الإلهية إلى روحانية وجسمانية، ثمّ قال: «أما النعم الروحانية فهي أنّ الشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه، ومن كثر إحسانه إلى الرجل أحبه الرجل لا محالة، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه يوجب تأكّد محبة العبد لله تعالى، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين... وأما مزيد النعم الجسمانية، فلأنّ الاستقراء دلّ على أنّ من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر، كان وصول نعم الله إليه أكثر»^(٤). وقد أشارت آيات أخرى في القرآن إلى زيادة النعم في ظلّ الشكر، وأنّ الشيء

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٢.

(٢) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٥٠٦.

(٣) إبراهيم: آية ٧.

(٤) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ١٩، ص ٦٦.

المهم في إثبات صدق الشكر هو العمل والطاعة؛ ومن هنا نجد أن بعض المفسرين فسروا قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ...﴾ هكذا: وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ...

والنقطة التي تجدر الإشارة إليها فيما يتعلق بالآية أعلاه، هو أنها تُهدد بالعذاب في حال الكفر بالنعمة، فهي لم تقل: إذا لم تشكروا فسوف نُعَذِّبُكُمْ، وإنما قالت: إذا أخفى (كفر) شخصُ نِعَمِ الله من خلال عمله أو قوله، فإنَّ عذاب الله شديدٌ، وهذا الأسلوب هو أسلوب الكرماء الذين لا يُصِرُّ حون بالعادة في وعدهم ووعدهم بالتعذيب.

٤. رضا الله

﴿... وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ...﴾^(١). بما أنَّ أفعال الله على نوعين: تكوينية وتشريعية؛ ومن هنا فإنَّ رضا الله على نوعين أيضاً: تكويني وتشريعي، وكلما يُصنَع بناءً لأمره التكويني ففيه الرضا التكويني، وكذلك بالنسبة للمسائل التشريعية، فكل فعلٍ يؤدي بحيث يُطابق الأمر الإلهي، فيُصبح الرضا التشريعي، وفي المقابل إذا قام شخصٌ بأعمالٍ تُبَيِّ عنها، فلن تحوز على رضا الله عزَّ وجلَّ، وهذا ما يُعبّر عنه بغضب الله؛ ومن هنا لا يعني رضا الله أو غضبه ذلك المعنى الشائع بين الناس، بل يُمكن القول من خلال التوضيحات السابقة ما يلي: إذا أقرَّ الإنسان بلسانه بفضل النعم (الله) وكان معتقداً بصدور تلك النعم من الله، وقام بالعمل الصحيح والمطابق لأوامره، فإنَّ الله سيرضى عنه، وسيَرْضيه أيضاً؛ ومن هنا قيل: الشكر حالةٌ مركَّبةٌ من قولٍ واعتقادٍ وعملٍ، أمَّا القول فهو الإقرار بحصول النعمة، وأمَّا الاعتقاد فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم^(٢).

وتوجد آياتٌ أخرى حول الشكر بالإضافة إلى الآيات التي ذُكرت، فقد شكَّت خمس عشرة آية من قلة الشاكرين، أو قامت بتوبيخهم لعدم شكرهم، من

(١) الزمر: آية ٧.

(٢) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٢٦، ص ٤٢٦.

قبيل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١). وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾^(٢).

وقد أشار القرآن في ست عشرة آية إلى بعض نِعَمِ الله المادّية والمعنويّة، ويظهر القرآن بعد تعداده لتلك النعم أمّله بأن يكون الناس شاكرين لها، من قبيل قوله تعالى: ﴿... وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣). وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤).

ومن الجدير بالذكر أنّ الشكر على لطف الآخرين وعنايتهم هو أمرٌ أخلاقيّ وعقليّ ووجدانيّ، ولكنّ مصدر كلّ النعم والعطايا هو الله، وكلّ ما يُمنح من قبل الآخرين فهو في الواقع من قبل الخالق؛ إذًا فالشكر لله عزّ وجلّ بطريقٍ أوّلى هو عملٌ وجدانيّ وعقليّ وأخلاقيّ، وقد أمر القرآن الكريم بالشكر لله وللوالدين بنحوٍ صريح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَىَّ أَلْمَصِيرُ﴾^(٥).

إنّ أحد الأسئلة المهمّة في باب الشكر هو أنّه هل يُمكن أداء الشكر الواقعي على النّعم الإلهيّة؟ وفي مقام الجواب نقول: إنّ نفس هذا الشكر الذي نوّديه هو أحد التوفيقات الإلهيّة، وهو نفسه يستدعي الشكر منّا؛ ولذلك فكلّ شكرٍ يستلزم منّا شكراً آخر، ويستمرّ الأمر كذلك إلى ما لا نهاية، ويصل إلى التسلسل؛ ومن هنا يمكن أن نستنتج بأنّ الشكر الواقعي غير ممكن، وقد جاء في بعض الروايات بأنّ نفس التفات

(١) غافر: آية ٦١.

(٢) يس: آية ٧٣.

(٣) النحل: آية ٧٨.

(٤) المائدة، آية ٦٤.

(٥) لقمان: آية ١٤.

الإنسان إلى فكرة كون الشُّكر هو نفسه من نِعَم الله، يجعل شكره كاملاً.
والنقطة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها في نهاية هذا البحث، هي أن النعم لا تقتصر على النعم المادّية فحسب، بل حتّى النعم المعنويّة لله غير قابلة للإحصاء، بل هي أهمّ من النعم المادّية، مثل: نعمة الهداية والعلم والعقل والنبوة والإمامة والولاية.
١٢. الصبر

إنّ أحد أهمّ المفاهيم الأخلاقيّة العامّة هو مفهوم (الصبر)، فهو ينطوي على العديد من المميّزات الأخلاقيّة الأخرى أيضاً، وسوف نتعرّض هنا لبيان المعنى اللغوي والاصطلاحي للصبر.

مفهوم الصبر

وقد جاء في معجم اللغة في مقام بيان معنى الصبر ما يلي: «صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا: تَجَلَدَ وواجه المصائب والبلايا بجرأة، وصَبَرَ عن الشيء: حبس نفسه عنه، وامتنع عنه»^(١).
وأما المعنى الاصطلاحي للصبر فـ: «هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه»^(٢).
وبما أنّ نطاق مفهوم (الصبر) واسعٌ جداً، بحيث ينطوي في داخله على العديد من المفاهيم الأخلاقيّة، فقد ذكر في كتاب الأخلاق في القرآن حول هذا الأمر: «أنّ أغلب الأفعال الأخلاقية بل جميعها تدخل - بلحاظٍ - تحت عنوان الصبر، كما يصدق عليها بلحاظين آخرين (التقوى) و(البرّ)»^(٣).

(١) مسعود، جبران، فرهنگ الفبائی الراءد [=معجم الراءد الألفبائي]، ترجمة: رضا، اترابي نژاد:

ج ٢، ص ١٠٥٨. أنظر النص العربي: مسعود، جبران، الراءد، ص ٤٨٩.

(٢) ابن عبد الله، صالح، وابن محمّد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ج ٦، ص ٢٤٤٢.

(٣) مصباح يزدي، محمّد تقی، اخلاق در قرآن [= الأخلاق في القرآن]: ج ١، ص ٢٤٠.

ويمكن تقسيم آيات القرآن المتضمنة لهذه الكلمة إلى أقسام مختلفة:

قيمة الصبر

إنّ العديد من الآيات تدلّ بوضوح على منزلة (الصبر)، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا...﴾^(١). وقوله: ﴿...وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا...﴾^(٢). وقوله: ﴿...إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ...﴾^(٣). ففي هذه الآيات عدّت الإمامة جزاءً حسناً لبني إسرائيل وأجرأً لا نهاية له نتيجةً لصبرهم.

وقد ذكر الفخر الرازي فيما يتعلّق بفضيلة الصبر في ظلّ المفاهيم الأخلاقية، ما نصه: «وجمع للصابرين أموراً لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾»^(٤).

ويثبت بعض المفسّرين - من خلال تمسّكهم ببعض آيات التوكّل والصبر، ومن خلال المقارنة بين الاثنين - أنّ فضيلة (الصبر) الأخلاقية هي أعلى في القرآن حتّى من (التوكّل)، وقد جاء في تفسير (كشف الأسرار) في مقام المقارنة بين التوكّل والصبر ما مضمونه: إنّ الله عزّ وجلّ يقول عن المتوكّلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، بينما يقول عن الصابرين: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وكما شرف الصبر وفضيلته أن يكون ربّ العزّة مع أهل الصبر، وقد ذُكر الصبر في القرآن أكثر من سبعين مرّة، وكلّ درجة تكون أعلى وأفضل تكون مع الصبر، فليس هناك أعلى من درجة

(١) السجدة: آية ٢٤.

(٢) الأعراف: آية ١٣٧.

(٣) الزمر: آية ١٠.

(٤) الفخر الرازي، محمّد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٤، ص ١٣١.

الإمامة في طريق الدين، وهي إنما تحصل من خلال الصبر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا...﴾^(١).

إنَّ إحدى الآيات التي تدلُّ على قيمة الصبر وأهميته، هي الآية المتعلقة بـ(الامتحان الإلهي)، وأنَّ هذه الابتلاءات إنما هي لإبراز جوهر الصبر في وجود الإنسان، فيقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنُبَلِّغُوا أَخْبَارَكُمْ﴾^(٢).

الاستعانة بالصبر

هناك آيتان في القرآن تأمران المؤمنين بأن يستعينوا بالصبر ويستمدوا منه المساعدة، وهاتان الآيتان هما: قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤).

والسؤال الذي يُطرح فيما يتعلق بخصوص الآيتين أعلاه هو أنّه: لماذا يتوجه الأمر بالاستعانة بالصبر والاستمداد منه؟ والجواب في المقام هو: إنَّ التدقيق في أحوال البشر وظروفهم، يُمكن أن يُلقي الضوء على إجابة هذا السؤال، فالاستعانة التي جاءت في هاتين الآيتين، تعني طلب المعونة، وطلب المعونة لا يكون إلا حينما يكون الإنسان عاجزاً عن القيام بأيّ شيءٍ لوحده، وبالالتفات إلى أنّنا نواجه في الحياة مسؤولياتٍ جسامٍ؛ لذا لا بدّ لنا من الاستعانة بشيءٍ؛ ومن هنا فإنَّ القرآن يُرشدنا إلى أمرين مهمّين هما (الصبر والصلاة)؛ وهنا قد يُطرح سؤال آخر، هو: لماذا قرن الله تعالى في الآية أعلاه بين هذين الأمرين؟

(١) أنظر: المبيدي، أحمد بن محمد، تفسير كشف الأسرار وعدة الأبرار: ج ٥، ص ٢٤٧.

(٢) محمد: آية ٣١.

(٣) البقرة: آية ٤٥.

(٤) البقرة: آية ١٥٣.

يقول العلامة الطباطبائي في جواب هذا السؤال: «قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، الاستعانة وهي طلب العون إنّما يتم فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمّات والنوازل، وإذ لا معين في الحقيقة إلا الله سبحانه فالعون على المهمّات مقاومة الإنسان لها بالثبات والاستقامة والاتّصال به تعالى بالانصراف إليه، والإقبال عليه بنفسه، وهذا هو الصبر والصلاة، وهما أحسن سببٍ على ذلك، فالصبر يُصغّر كلّ عزيمة نازلة، وبالإقبال على الله والاتّجاء إليه تستيقظ روح الإيمان، وتنتبه إلى أنّ الإنسان مُتّكٍ على ركنٍ لا ينهدم، وسببٍ لا ينقصم»^(١).

الوصيّة بالصبر في القرآن

إنّ وصيّة الدين والقرآن بالصبر والثبات تشمل جميع نواحي الحياة المادّيّة والمعنويّة، ولكن القرآن أوصى بالصبر في عدّة مواطن بشكلٍ خاصّ، ومنها ما يلي:

١. الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

﴿يَبْتَغِي أَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهًا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢). فقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: «من المسلّم أنّه توجد مشاكل وعقبات كثيرة في سائر الأعمال الاجتماعيّة، وخاصّة في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المسلّم أيضاً أنّ أصحاب المصالح والمتسلّطين، والمجرمين والأنانيّين لا يستسلمون بهذه السهولة، بل يسعون إلى إيذاء واتّهام الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، ولا يمكن الانتصار على هذه المصاعب والعقبات بدون الصبر والتحمّل والاستقامة أبداً»^(٣).

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ص ١٥٢.

(٢) لقمان: آية ١٧.

(٣) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٣، ص ٤٦.

٢. الصبر على المصيبة

﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١). وبالطبع، ليس مراد الآية هو أن (الصابر) يُجري على لسانه عبارة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، بل المراد هو قول هذه الجملة عن إيمان واعتقاد، وقد ذكر محمد رشيد رضا في تفسير هذه الآية ما يلي: «إنما المراد التلبس بمعناها والتحقق في الإيمان بأنهم من خَلَقِ الله ومُلِكِ الله وإلى الله يرجعون، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء... ولا يُنافي الصبر والتثبت ما يكون من حزن الإنسان عند نزول المصيبة، بل ذلك من الرحمة ورقة القلب، ولو فقد الإنسان هذه الرحمة لكان قاسياً لا يُرجى خيره ولا يؤمن شره»^(٢).

٣. الصبر على دعايات العدو

لقد صرح القرآن في أربعة مواطن على الأقل بتعابير صريحة بأنه (ينبغي الصبر على الكلام السيئ الذي تسمعون من قبل الأعداء). ويمكن فهم هذه الوصية أيضاً من خلال بعض الآيات الأخرى ولكن بنحو غير مباشر، ونشير هنا إلى آيتين من الآيات الصريحة، كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا...﴾^(٣). وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(٤). إن أحد الطرق التي يستخدمها أعداء الأديان الإلهية على مر التاريخ، سواء في زمان حياة الأنبياء أم بعد ارتحالهم، هو القيام بالدعايات المغرضة وبث الشائعات،

(١) البقرة: آية ١٥٥ و ١٥٦.

(٢) رشيد رضا، محمد، تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار): ج ٢، ص ٤٠.

(٣) طه: آية ١٣٠.

(٤) المزمل: آية ١٠.

وذلك من أجل كسر شوكة المؤيدين لسبيل الحق، وقد بيّن القرآن عدداً من نماذج الدعايات المغرضة للأعداء، من قبيل قول تعالى:

١. ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.
٢. ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّطْهَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.
٣. ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴿٣٠﴾﴾.

٤. الصبر في تنفيذ التعاليم الدينية

إنّ إجراء أحكام الدين الحقّ في المجتمع يتعارض مع منافع عديدة؛ ولذا فإنّ العمل بالأوامر الإلهية يحتاج إلى الاستقامة والثبات وتحمل المصاعب، وقد ورد تعبير ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾ في ثلاث آياتٍ شريفة، منها:

١. قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾^(١). فقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: «﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾؛ أي لما يحكم به عليك»^(٢).
 ٢. وقوله تعالى أيضاً: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كُفُورًا﴾^(٣). إذ ذكر الطبري في تفسير هذه الآية ما يلي: «اصبر لما امتحنك به ربك من فرائضه، وتبلغ رسالاته، والقيام بما ألزمك القيام به في تنزيله الذي أوحاه إليك»^(٤).
- ومن الجدير بالذكر أنّه بالنسبة إلى هذه الآية وكذلك الآية (٤٨) من سورة

(١) الشعراء: آية ٥٣-٥٤.

(٢) النمل: آية ٥٦.

(٣) التوبة: آية ٤٨.

(٤) الطور: آية ٤٨.

(٥) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير: ج ٨، ص ٦٠.

(٦) الإنسان: آية ٢٤.

(٧) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان: ج ٢٩، ص ١٣٨.

(القلم) - التي ورد فيها نفس التعبير المتقدم - قد ذكر بعض المفسرين احتمالاً آخر أيضاً، وهو أن الآية تقول: عليك أن تكون صابراً حينما يُعطي الله فرصةً لأعدائك، كي يشملك رضى الله وعنايته^(١).

٥. الصبر في العبادة

لقد أوصى القرآن بالعبادة كثيراً، ومن ضمن ذلك: قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ...﴾^(٢).

وقوله أيضاً: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...﴾^(٣).

ولكي يتضح معنى تعبير (اصطبر) في الآيتين؛ سنذكر مراتب الصبر. فقد بينت موسوعة نضرة النعيم مراتب الصبر نقلاً عن الفيروز آبادي أن: «مراتب الصبر خمسة: صابرٌ، ومُصْطَبِرٌ، ومُتَصَبِّرٌ، وصَبُورٌ، وصَبَّارٌ. فالصَّابِرُ أَعْمُهَا. والمُصْطَبِرُ: المُكْتَسِبُ للصبر، المُبتلى به. والمُتَصَبِّرُ: مُتَكَلِّفُ الصبر حاملُ نفسه عليه. والصَّبُورُ: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصَّبَّارُ: الشديد الصبر، فهذا في القدر والكم، والذي قبله في الوصف والكيف»^(٤).

وبالالتفات إلى مراتب الصبر المذكورة، يُصبح معنى الآية المذكورة هو أن عليك السعي في أداء العبادة كل يوم يمضي بثباتٍ أكبر وبصبرٍ أعلى.

(١) أنظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر، تهذيب التفسير الكبير: ج ٨، ص ٢٠٨.

(٢) مريم: آية ٦٥.

(٣) طه: آية ١٣٢.

(٤) ابن عبد الله، صالح، وابن محمد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ج ٦، ص ٢٤٤٢. [وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (للفيروز آبادي): ج ٣، ص ٣٧٩].

٦. الصبر في الجهاد

إنّ أحد الأحكام الإلهية التي تستلزم التمسك بالصبر، والتي لا يمكن أداؤها من دون الصبر، هو موضوع الجهاد؛ ولهذا السبب نجد أنّ الجهاد طُرح في العديد من الآيات مع عنوان الصبر أو مع عنوانٍ مشابهٍ له، من قبيل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا...﴾^(١). وقوله: ﴿...كُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ...﴾^(٢). فقد جاء في تفسير الآية الثانية أن: «...المراد من قولهم: ﴿كُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تقوية قلوب الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، والمعنى: لا عبرة بكثرة العدد، وإنّما العبرة بالتأييد الإلهي، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾»^(٣).

٧. الصبر في طلب العلم

لقد ذكر القرآن قصّة النبي موسى والخضر عليهما السلام بنحوٍ مفصّلٍ في سورة الكهف (الآيات ٦٥ إلى ٨٢)، وقد تكرّر موضوع العلم والصبر في هذه الثماني عشرة آية عدّة مرّاتٍ، ومن بينها قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٤) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا^(٥) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا^(٦) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا...﴾^(٧).

إنّ دراسة العلم تحتاج إلى الصبر من عدّة جهاتٍ: ١- المدة الطويلة التي ينبغي أن يقضيها الإنسان إلى أن يصل إلى غايته. ٢- عدم وصول الإنسان إلى المقدار الذي يبتغي

(١) الأنفال: آية ٦٥.

(٢) البقرة: آية ٢٤٩.

(٣) أبو حفص، عمر بن علي بن عادل، اللباب في علوم الكتاب: ج ٤، ص ٢٨٨.

(٤) الكهف: آية ٦٦-٦٩.

الحصول عليه في الغالب. ٣- المضاعف العديدة التي عليه أن يتحملها في المقام.
 ٤- عدم تمكن الشخص المتفرغ لاكتساب العلم - غالبا - من الاستفادة من الأمور
 الدنيوية. ٥- بناء لما ورد في الروايات ومن خلال التجربة العملية، فإن العلم لا يحصل
 بلا غربة وجوع. ٦- يحتاج فهم العديد من مواضيع العلوم إلى الإصرار والتحمل.

٨. الصبر على المشاكل الاقتصادية والصحية والأمنية

لقد ذكرت في إحدى آيات سورة البقرة ست صفات وعلامات للصالحين،
 وبعض هذه الصفات هي صفات اعتقادية، كما أن بعضها الآخر يتعلق بالأحكام
 العملية للإسلام، وهناك قسم منها يتعلق بالمسائل الأخلاقية، وآخر علامة وصفة
 أخلاقية ذكرت في آخر الآية تتعلق بـ(الصبر)، وهي قوله تعالى: ﴿... وَالصَّابِرِينَ فِي
 الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١).

وقد ذكر العلامة الطبرسي في تفسير هذه الكلمات الثلاثة ما يلي: «يُريد بالبأساء
 البؤس والفقر، وبالضراء الوجد والعلة... ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ يُريد وقت القتال وجهاد
 العدو»^(٢). فإذا وصل إنسان إلى هكذا مرحلة في ظل الإيمان، فسوف تبقى عزته
 محفوظة في المجتمع، كما أنه لن يركع أمام المنغصات والأمراض، وسوف يتمتع
 بالصلابة في مواجهة الأعداء، وسيفوز بما وعد الله به الصابرين.

أشار الصبر

إن أهمية الصبر ومقدار التأكيد عليه في البحث الأخلاقي لآيات القرآن، يُبين
 مقدار الآثار والثمار العديدة للصبر في حياة الإنسان، ومن جهتنا وبسبب ضيق
 المجال هنا، سنقتصر على تعداد الفوائد المذكورة في القرآن بشكل ملخص:

(١) البقرة: آية ١٧٧.

(٢) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧٧.

١. الجزء الأخرى

إنّ المسلم الذي يقضي حياته صابراً، ويتحمّل أنواع الصعاب من أجل الوصول إلى أهداف الدين، من الطبيعي أنّه يجب أن يرى في حياته الجديدة في الآخرة نتيجة هذه الجهود التي بذلها؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَحِيَّةً وَسَلَامًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^(١). ويقول أيضاً: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ الَّتِي كَانُوا يَصْنَعُونَ ۚ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢).

٢. الإمامة ثمرة الصبر

إنّ مقام الإمامة يُمثّل أعلى امتياز يُمكن للإنسان الإلهي أن يصل إليه، والقرآن يعدّ وصول الأئمة إلى هذه المرتبة هو نتيجة لصبرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٣).

وقد جاء في تفسير هذه الآية أن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: من أنبيائهم وأحبارهم بعظمتنا، مع ما في طبع الإنسان من اتباع الهوى ﴿أَيْمَةً يَهْدُونَ﴾؛ أي: يوقعون البيان ويعملون على حسبه ﴿بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: بما أنزلنا فيه من الأوامر؛ ثم ذكر علّة جعله ذلك لهم بقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾؛ أي: بسبب صبرهم ولأجله^(٤).

٣. المدد الغيبي

إذا توفّرت الشروط اللازمة، فسوف يكون عون الله ومدده للمجاهدين

(١) الفرقان: آية ٧٥-٧٦.

(٢) القصص: آية ٥٤.

(٣) السجدة: آية ٢٤.

(٤) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ج ٦، ص ٦٣.

قطعيًا، ومن هنا نجد أنّ القرآن يبدأ بذكر الشروط التي ينبغي أن يتحلّى بها الفرد من أجل هذا المدد، لذا يقول تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(١).

ومن هنا؛ سوف يكون كلّ من الصبر والثبات الظاهريّين في الحرب، وكذا التقوى بما تمثّل من دعامة معنويّة في الجهاد، سبباً لنزول الرحمة الإلهيّة والمدد الإلهي الغيبي، وأحد أساليب المدد الغيبي من قبل الله هو إفشال المخطّطات المشؤومة والمعقّدة التي يُبيّتها الأعداء، وهذا النوع من المساعدة يُهيئ الأرضيّة لانتصار المجاهدين، وبالطبع من الضروري توفر شرطي الصبر والتقوى لتحقيق هذا العون، فيقول تعالى: ﴿...وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٢).

٤. الوصول إلى مقام المُحسنين

إنّ أحد آثار الصبر هي نيل مقام المحسنين: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣). فمن الواضح أنّ جعل (مقام المحسنين) للصابرين من قبل الله تعالى، هو أجرٌ كبيرٌ جدّاً.

إثبات الصديق والتقوى للصابرين

إنّ الوصول إلى درجة الصديق والتقوى، لا يُمكن أن يتمّ إلّا بتأييد من الله تعالى، وهو أمرٌ في غاية الأهميّة، والقرآن يقول لنا: إنّ الفضيلتين المشار إليهما يحتاج التحلّي بهما إلى أدوات، من ضمنها الصبر على الشدائد والفقر والأمراض والجهاد

(١) آل عمران: آية ١٢٥.

(٢) آل عمران: آية ١٢٠.

(٣) هود: آية ١١٥.

في سبيل الله، قال تعالى: ﴿... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١).

الصبر الجميل

لقد تمّ التأكيد على الصبر في أربع آياتٍ في القرآن، وسنعمد هنا إلى ذكر بعضها، ثمّ نوضح كيفية هذا الصبر، ففي قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٢). ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(٣).

وقد بيّن بعض المفسرين معنى (الصبر الجميل) بقوله: «والصبر الجميل هو الصبر المطمئن، الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشكّ في صدق الوعد، صبرٌ الواصل من العاقبة، الراضي بقدر الله...»^(٤).

ومن الجدير بالذكر أنّ آية ﴿وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الواردة في سورة المزمل، هي عطفٌ تفسيريٌّ، حيث توضح في الواقع كيفية الصبر الذي في الآية السابقة، واستعمال كلمة الصبر بعد كلمة (التقوى) هو أحد أعمّ الاستعمالات للمفاهيم الأخلاقية في القرآن؛ وأحد الأدلّة على هذه الفكرة هو الرواية النبوية المشهورة التي تُقسّم الصبر إلى ثلاثة أنواع: «الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمُعْصِيَةِ»^(٥). وبالالتفات إلى هذه الرواية، نجد أنّ العديد من العبارات الأخلاقية ستندرج تحت ظلّ الصبر.

(١) البقرة: آية ١٧٧.

(٢) المعارج: آية ٥.

(٣) المزمل: آية ١٠.

(٤) الشاذلي، سيّد قطب بن إبراهيم، في ظلال القرآن: ج ٦، ص ٣٦٩٦.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ٢، ص ٩١.

المفاهيم السلبية

إنّ موضوع هذا الفصل هو المفاهيم التي تُبيّن علاقة الإنسان بالله؛ فأما المفاهيم التي تُبيّن العلاقة الإيجابية، فقد بُحثت في اثني عشر عنواناً، وأما الآن فسنعرّض إلى المفاهيم التي تُبيّن العلاقة السلبية، وهي:

١. الفسق

مفهوم الفسق

لقد كتب الراغب الأصفهاني في تعريف الفسق وبيان مفهومه ما يلي: «فَسَقَ فلان: خرجَ عن حِجرِ الشَّرع، وذلك من قولهم: فَسَقَ الرُّطْبُ، إذا خرجَ عن قشره... وأكثر ما يُقالُ الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشَّرع وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه. وإذا قيل للكافر الأصلي: فَاسِقٌ؛ فلائنه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة»^(١). كما بيّن المحقّقون المعنى اللغوي والاصطلاحي للفسق بهذا النحو: «الفسق في اللغة هو عدم الطاعة لأمر الله، وهو يشمل الكافر والمسلم العاصي، وفي الشرع عبارة عن ارتكاب الكبيرة أو الإصرار على الصغيرة»^(٢). وبالتالي؛ فالفسق هو خروجٌ عمليٌّ عن حدود أحكام الشرع المقدّس ومقرّراته، والتلوّث بالمعاصي والانحرافات الأخلاقية.

تحذير القرآن من الفسق

يطرح القرآن الكريم (الفسق) على أنّه أمرٌ مُضادٌّ للقيم المعنوية وله مخاطرٌ كبيرة، وقد وردت كلمة الفسق واشتقاقاتها (٥٤) مرّة في آيات القرآن، استعملت خلالها هذه الكلمة في المفهوم المضادّ للهداية والمبطل للأهداف التي نزلت بها آيات

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٠٤.

(٢) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]: ص ٤٤٤.

الوحي، وبالاتفات إلى هذا التضاد نجد أنّ القرآن يُبيّن الأخطار المشؤومة التي هي لوازم لهذه الرذيلة الأخلاقية. وسنعرّض هنا لبيان هذه الأخطار:

١. الفسق مانع من الهداية

كل مكان إذا أُريد له أن يكون مضيئاً فلا بد من عاملين رئيسين: الأول: إزالة الموانع والحجب التي تقف حاجزاً أمام وصول الضوء إليه. والثاني: إيجاد المقتضي، والذي هو هنا عبارة عن النور، فتحثي يدخل شعاع الشمس من شباك المبنى إلى الداخل ليُثير الفضاء المظلم، لا بدّ أن لا يكون هناك ما يمنع عبور النور، مع الفراغ عن ضرورة وجود شمس لتصل أشعتها إلى المبنى.

وكذلك الحال في الأعضاء والجوارح التي يجب أن تكون وسيلةً لاستقبال نور الهداية، فإنها إذا تلوّثت بالظلمة، فبدلاً من أن يهتدي الإنسان إلى الطريق الصحيح للهداية، فإنّه سيعرق في أعماقها؛ ومن هنا نجد أنّ القرآن قد حدّر مراراً بأنّ الله لن يهدي العصاة، فيقول تعالى: ﴿...فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١). كما أنه جعل الهداية والفسق في قبال بعضهما البعض، ففي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٢).

٢. الفسق مانع من قبول الأعمال

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٣). فعلى الرغم من أنه يُمكن الاستفادة من الآية اللاحقة لهذه الآية بأنّ المراد من الفسق - هنا - هو الكفر، لكن على أية حال المعصية تُضرّ بقبول الأعمال،

(١) التوبة: آية ٢٤.

(٢) الحديد: آية ٢٦.

(٣) التوبة: آية ٥٣.

وقد صرح القرآن بأن شرط هذا القبول هو التقوى، قال تعالى: ﴿...إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

٣. الفسق مقدمة لإنكار الوحي

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^(٢). يتضح من هذه الآية بأن للمعصية تأثيراً كبيراً على الكافر، بحيث لو زادت لأصبحت مانعة له من تقبل الحق؛ ومن هنا نجد أن القرآن يصف بعض الكفار بأنهم أموات بسبب عدم سماعهم للحق، فيقول تعالى: ﴿...إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ﴾^(٣). بل إنه تعالى يعتبر الكفار في بعض الآيات بلا قلب ولا سمع ولا نظر، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا نَعْرًا بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٤).

إن طبيعة أتباع الشيطان وهوى النفس تجعل الإنسان مشغولاً بنفسه وتجعله يخدعها، بحيث يغفل عن الحقائق التي تمر من حوله، وتفقد أدوات إدراكه كالقلب - بمعناه القرآني - والسمع والبصر خواصها، ثم يغرق في الغفلة المطلقة.

٤. فقدان المكانة الاجتماعية

من ضروريات الحياة الاجتماعية حيازة المكانة اللائقة فيها، ولذا فإن إيجاد هذه المكانة وحفظها ضروري جداً، ويرى القرآن بأن المعصية تمثل عاملاً للقضاء على موقع الإنسان ومكانته القيمة في المجتمع، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ

(١) المائدة: آية ٢٧.

(٢) البقرة: آية ٩٩.

(٣) النمل: آية ٨٠.

(٤) الأعراف: آية ١٧٩.

فَاسِقٌ يَنْبَغِي فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصَيِّرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿١﴾.

والنقطة الأخرى التي يمكن استفادتها من ذيل هذه الآية، هي أن اتباع الفاسق يؤدي إلى الندم، وهو قوله تعالى: ﴿فَتُصَيِّرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

كما أن عدم القبول بـ(شهادة) الفساق في المحاكم، يؤدي إلى القضاء على اعتبارهم ومكانتهم في المجتمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).

٥. نسيان النفس

ومن وجهة النظر الأخلاقية فإن نسيان النفس هو أخطر ما يؤدي إليه الفسق؛ ولهذا السبب هناك تأكيد كبير في الروايات الإسلامية على معرفة النفس، وفي المقابل يرى القرآن أن الفسق يُمثل عاملاً لنسيان النفس ونسيان الله؛ ولذا فهو يُحذّر الجميع من ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣).

٦. الحكم بخلاف حكم الله

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤).

٧. الفسق يهيئ الأرضية لعذاب الاستئصال!

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(٥). إذ فسّر العلامة الطبرسي (الترفة) بالنعمة، ثم نقل تعريف المترف عن

(١) الحجرات: آية ٦.

(٢) النور: آية ٤.

(٣) الحشر: آية ١٩.

(٤) المائدة: آية ٤٧.

(٥) الإسراء: آية ١٦.

ابن عَرَفَة، فقال: «المُتَرَف المتروك يصنع ما يشاء، ولا يُمنع منه، والتدمير والإهلاك والدمار: الهلاك»^(١).

ومع الالتفات إلى أهميّة هذه الآية وضرورة التدقيق في معناها، سننقل كلام للعلامة الطباطبائي حول المراد منها، يقول: «وقوله: ﴿إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾؛ أي: إذا دنا وقت هلاكهم، من قبيل قولهم: إذا أراد العليل أن يموت كان كذا، وإذا أرادت السماء أن يمطر كان كذا؛ أي: إذا دنا وقت موته وإذا دنا وقت إمطارها، فإنّ من المعلوم أنّه لا يريد الموت بحقيقة معنى الإرادة، وأنّها لا تريد الإمطار كذلك، [إذن ففي جميع هذه الموارد الإرادة بمعنى دنوّ وقت العمل]»^(٢).

كما أنّ قول الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿أَمَرْنَا...﴾ هو ليس أمراً تشريعياً؛ لأنّ الله تعالى يقول في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٣)، ومن جهة أخرى، لن يكون (أمراً تكوينياً) أيضاً؛ لأنّه إذا كان تكوينياً، فلن يكون لدينا أيّ خيار في أن نعصي أو لا نعصي؛ إذاً فيجب أن نعدّ هذا الأمر مجازاً؛ يعني: وكأنّ هؤلاء مأمورون في أن يصرفوا نِعَمَ الله في المعاصي والذنوب، أو أن نفسّر ذلك بقولنا: إنّ الله أراد منهم أن يُقدّموا الخير على الشرّ والطاعة على المعصية، ولكنّهم عملوا العكس فقدموا الفسق والفجور.

٨ و ٩. تقبّل الاستخفاف من قبل الطغاة وإطاعتهم

قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾^(٤). فإنّ الإنسان

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٦، ص ٤٠٥.

(٢) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٥٩.

(٣) الأعراف: آية ٢٨.

(٤) الزخرف: آية ٥٤.

الْمُتَّقِي لَا يَتَوَجَّهْ إِلَّا إِلَى اللَّهِ وَلَا يَتَّبِعِ الشَّيْطَانَ وَلَا يَقْبَلِ الذَّلَّةَ وَالضُّعْفَ، فَهُوَ لَا يُطَاطَى رَأْسُهُ لِلظَّالِمِينَ.

وقد استعمل (الفسق) في القرآن في ارتكاب المعاصي بشكل أكثر، كما أُطلق مصطلح (الفاستق) على الكافر والمنافق أيضاً، وبما أنّ الفسق مضادٌّ للقيم المعنوية؛ لذا عُدَّ في الآيات مانعاً عن العديد من أهداف الأنبياء ﷺ، وقد بحثنا بدورنا عن تسعة مواردٍ منها، ويُمكن القول بنحوٍ ملخصٍ: إنّ الفسق من الناحية الأخلاقية مانعٌ من الهداية ومن تكامل الإنسان ومن الارتقاء المعنوي، وطالما لم يُنظف وعاء الباطن من الأدران، فإنّ النور لن يُضيء الفضاء، وكما يُقال: إذا خرجت الشياطين حلّت الملائكة.

٢. الفجور

١. (الفاجر) والذي يُجمع على (فجّار) و(فَجَرَة)، معناه في اللغة: «سَيِّئ السمعة، والعريذ، والفاستق، والمخرّب، والزاني، والكاذب، وقليل الحياء، والوقح». والفجور مصدرٌ، ومعناه: «الفسق، والفساد، والعردة، المعصية، والحياة الملوثة بالذنوب»^(١)، وكلمتا (الفسق) و(الفجور) قريبتان من ناحية المعنى. نعم، يميل الفسق أكثر إلى بيان جنبة المخالفة لله، وأمّا الفجور فهو يُبيّن سعة نطاق فساد الفرد ومعاصيه. هذا، وقد ذكر كتاب معجم الفروق اللغوية في الفرق بين الفسق والفجور ما يلي: «الْفِسْق: هو الخروج من طاعة الله بكبيرة، والفُجُور: الانبعاث في المعاصي والتوسّع فيها... فلا يُقال لصاحب الصّغيرة: فاجرٌ»^(٢).

(١) آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربى - فارسى [= المعجم المعاصر (عربي/ فارسي)]: ص ٢٩٧.

(٢) العسكري، أبو هلال، تنظيم: بيت الله يّات، معجم الفروق اللغوية: ص ٤٠٥.

كيفية الفجور من وجهة نظر القرآن

لقد استُعملت كلمة (الفُجَّار) في القرآن في قبال (الأبرار)، وقد وردت هاتان الكلمتان في كلٍّ من سورة المطففين والذهر والنفطار، وقد جعلتا في مقابل بعضهما البعض، من قبيل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ﴾^(١)، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ﴾^(٢).

كما أن من الممكن جداً ألا يكون (الفجور) قد استُعمل في قبال (البر) على النحو الدقيق.

ويمجد بنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم يُبين أربع نقاطٍ تتعلق بالفجَّار:

أ) ميل الإنسان الطبيعي نحو الفجور

من وجهة نظر القرآن، الإنسان يُحبُّ بشكلٍ طبيعيٍّ أن يكون حراً وأن يقوم بالفجور وبالأعمال التي تنسجم مع أهواء نفسه، قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾^(٣).

وبالطبع، فإنَّ امتلاك الرغبة والدافع عند الإنسان ليس أمراً عجبياً؛ لأنَّ الإنسانية تستلزم امتلاك الفطرة السليمة التي تدعوه لاجتناب المعصية، وامتلاكه أيضاً للغرائز الطبيعية التي تشدّه في المقابل نحوها، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٤).

(١) المطففون: آية ١٨.

(٢) المطففون: آية ٧.

(٣) القيامة: آية ٥.

(٤) الشمس: آية ٨.

ب) انهدام المجتمع بسبب الفجور

بناءً على التعاليم القرآنيّة، فإنّ نهاية المجتمع العاصي ومصيره هو الزوال وقصر العمر؛ ولذا نجد أنّ النبيّ نوح عليه السلام، بعد مئات الأعوام التي صرفها من أجل هداية قومه والتبليغ فيهم، وبعد أن ثبت له بأنّ قومه لن يهتدوا، وأنّهم لن يُربّوا إلّا الأشخاص الفاجرين والكافرين، دعا عليهم بالهلاك، وقد وضح عليه السلام سبب دعائه بقوله: يا إلهي، إنك إن تتركهم، فسوف يُضلّون الصالحين أيضاً، حيث قال تعالى على لسانه: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(١).

ج) أهل جهنّم ليسوا سوى الكفّار والفجّار

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يُومِذُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قِذْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ﴾^(٢).

د) لهم مكانٌ خاصٌّ في جهنّم

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾^(٣). فعلى الرغم من أنّ جميع أهل النار يعيشون في عذابٍ وشقاءٍ، إلّا أنّ عذاب بعض الذنوب أشدّ من غيرها، وقد جاء في تفسير يرتوي از قرآن [= شعاع من القرآن]، ما يلي: «إنّ سِجِّينَ صيغةٌ مبالغةٍ بقرينة الوزن، وهي تقابل عليّين، ومعناها السجن الشديد الصعوبة، وهو ما يحكي عن زيادة الشدّة والضيق فيه، فسِجِّينَ سجنٌ ومحيطٌ للعذاب والشقاء، بحيث يكون فكر المجرمين وعملهم حول سِجِّينَ أو بشأنها أو في محيطها أو في جهتها»^(٤).

ومع ملاحظة ما تقدّم، يُستفاد من آيات القرآن بأنّ (الفجور) هو أكبر بلاءٍ أخلاقيّ في المجتمع؛ لأنّ الفجّار يتحرّكون طبقاً لميولهم النفسانيّة، وليس طبقاً

(١) نوح: آية ٢٧.

(٢) عبس: آية ٤٠-٤٢.

(٣) المطفّفون: آية ٧.

(٤) الطالقاني، محمود، تفسير يرتوي از قرآن [= تفسير شعاع من القرآن]: ج ١، ص ٢٤١.

للأمر الإلهي ولا طبقاً لأوامر العقل؛ ومن هنا فمصير هكذا مجتمع أو هكذا أفراد لن يكون شيئاً غير الهلاك في الدنيا، وأشدّ العقوبات في الآخرة.

٣. سوء الظن بالله

إنّ أحد المفاهيم التي تحكي عن العلاقة السلبية بين الإنسان وبين ربّه، هو مفهوم (سوء الظنّ بالله)، ومن المناسب في البداية أن نُقدّم توضيحاً حول كلمتي (السوء) و(الظنّ)، فقد جاء في تعريف هاتين الكلمتين في معجم مفردات القرآن ما يلي: «السُّوءُ: كُلُّ مَا يَغْمُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ، وَمِنَ الْأَحْوَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَالخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ وفقد حميمٍ»^(١)، و«الظَّنُّ: اسم لما يحصل عن أمارَةٍ، ومتى قويت أدّت إلى العلم [على نحو مائة بالمائة]، ومتى ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدّ التّوهم»^(٢).

سوء الظنّ في القرآن

لقد ذمّ القرآن (الظنّ) في أكثر المواطن ذكّر فيها - منها آية ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾^(٣)، التي تحكي عن هذه الواقعيّة - إلّا فيما يتعلّق بالعدوّ وأمثال ذلك. أمّا في مقام التفصيل حول هذا الموضوع فنقول بأنّه قد استعمل الظنّ في القرآن بثلاثة معانٍ:

١. الظنّ بمعنى التردّد بين الشكّ واليقين

قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^(٤).

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣١٧.

(٣) يونس: آية ٣٦.

(٤) يونس: آية ٣٦.

٢. الظنّ بمعنى اليقين

قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾^(١). وقد ذكر بعض المفسرين في تفسير هذه الآية ما يلي: «﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾؛ لما كنتم تشاهدون فيهم من القوة والشدة والمنعة، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، فلن يغلبهم الله وهم مُتَحَصِّنُونَ فيها، وعدّ حصونهم بحسب ظنهم مانعةً من الله لا من المسلمين»^(٢).

٣. التوهم

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُظًا ظَنَّنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٣). فقد جاء في توضيح هذه الآية ما يلي: «فقد قيل: الأولى أن يكون من الظنّ الذي هو التوهم؛ أي: ظنّ أن لن نصيّق عليه»^(٤).

أقسام سوء الظنّ في القرآن

يُعتبر (سوء الظنّ) من المفاهيم التي يعدّها القرآن مضادّةً للقيم، ويمكن أن يتعلّق سوء الظنّ هذا بأحد فردين (هما: الناس، والله)، وعليه يكون له قسمان؛ هما: سوء الظنّ بالناس، وسوء الظنّ بالله. وسوء الظنّ بالناس ليس حراماً طالما لم يظهر على اللسان أو من خلال العمل، ومن الممكن أن يخطر في ذهن وفي تصوّر الإنسان في العديد من الحالات من غير اختيارٍ، وفي نفس الوقت من الأفضل للإنسان أن يسعى للحيلولة دون تقوية تلك التصورات قدر الإمكان.

(١) الحشر: آية ٢.

(٢) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٩، ص ٢٠١.

(٣) الأنبياء: آية ٨٧.

(٤) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٣٢٧.

وأما سوء الظن بالله، فهو مذموم حتى لو لم يظهر في الخارج وبقي في الذهن؛ لأن سوء الظن بالله يؤدي إلى ضرر بالغ في عقيدة الإنسان تجاه مسألة التوحيد، وفي الأساس ليس المطلوب أن لا يُساء الظن بالله فحسب، بل على العكس من ذلك نحن مأمورون بحسن الظن بالله.

إن الإنسان الذي لديه سوء ظن بالله مبتلى بالضعف الأخلاقي، من قبيل الجبن والبخل، وهذه الأمراض الأخلاقية هي التي توجد عنده سوء الظن؛ لأنه إنما ينظر إلى الله من خلال هذه النظرة الضعيفة التي لديه.

ويذكر قسم ثالث من أقسام سوء الظن - والذي لم يُصرح به في القرآن - وهو سوء الظن بالنفس الذي يُعدّ من الناحية الأخلاقية سُلماً للتكامل بشرط ألا يزيد عن الحدّ، وهو يقف كذلك حائلاً بين الإنسان وبين بعض الرذائل الأخلاقية.

آثار سوء الظن بالله في القرآن

وردت مفردة (الظن) واشتقاقاتها (٦٨) مرّة في القرآن، وقد تمّ ذمّ سوء الظن بالله أو بسائر المعتقدات ما يقرب من ثلاثين مرّة بتعابير مختلفة، كما أشار القرآن في سورة الفتح إلى سوء ظن الكفار والمشركين، حيث كان يظن هؤلاء بأن النبي ﷺ والمؤمنين لن يعودوا سالمين إلى المدينة بعد أن خرجوا منها، فيقول تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾^(١).

كما أشار القرآن كذلك في نفس السورة وفي (الآية ٦) إلى سوء ظنهم، وقد وعدهم على ذلك بأربعة أنواع من العذاب، فقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَغَضِبَ

(١) الفتح: آية ١٢.

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(١). فقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: «يُفَصِّلُ الْقُرْآنُ بَيَانِ عَذَابِ هَؤُلَاءِ وَعِقَابِهِمْ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ عَنَّاوَيْنِ أَرْبَعَةٍ، فَيَقُولُ أَوَّلًا: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، (الدائرة) في اللغة هي: الحوادث وما ينجم عنها، أو ما يَتَّفِقُ لِلإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ، فَهِيَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً غَيْرَ أَنَّهَا هُنَا بَقْرِينَةُ كَلِمَةِ (السوء) يُرَادُ مِنْهَا الْحَوَادِثُ غَيْرَ الْمَطْلُوبَةِ! وَثَانِيًا: ﴿وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وَثَالِثًا: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾، وَرَابِعًا وَأَخِيرًا: فَإِنَّهُ بِالْمَرْصَادِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢).

أنواع سوء الظن بالله

١. سوء الظنّ بعلم الله

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ^(٣) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ^(٤)﴾.

٢. سوء الظنّ بمعونة الله في الجهاد

قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا^(٥)﴾. فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَضَعُفٌ فِي الْإِيمَانِ، لَدَيْهِمْ سُوءُ ظَنٍّ بِاللَّهِ فَهُمْ لَا يَرَوْنَ بَأَنَّهُ سَيَنْصُرُ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْحَرْبِ، وَقَدْ لَا مَهْمَ لِلَّهِ عَلَى سُوءِ ظَنِّهِمْ هَذَا.

٣. سوء الظنّ بمساعدة الله للنبيّ

إِنَّ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا بِالْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ، يَعْتَبِرُونَ أَنَّ تَوْفِيقَ اللَّهِ غَيْرَ مُمْكِنٍ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمَوَاطِنِ، فِي حِينٍ أَنَّ هَذِهِ التَّوْفِيقَاتِ مُمْكِنَةٌ، فَبِئْسَ صَدْرُ الْإِسْلَامِ كَانَ الْبَعْضُ يُقَارَنُ بَيْنَ الْقُوَّةِ الْمَحْدُودَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْهَيْمَةِ الْعَظِيمَةِ

(١) الفتح: آية ٦.

(٢) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٦، ص ٤٣٤.

(٣) فُصِّلَتْ: آية ٢٢-٢٣.

(٤) الفتح: آية ١٢.

للكفار في شبه الجزيرة العربية، وكان هذا البعض يرى أن هزيمة النبي حتمية، وما ذلك إلا لأنهم كانوا سيئي الظن بعناية الله ونصره لأتباعه؛ ومن هنا نجد أن الله يلومهم بالنحو التالي: ﴿مَنْ كَانَتْ يَدُهُ مَبْذُورَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعْتَظُ﴾^(١).

٤. عدم الاعتناء بالمواخاة الإلهية

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٢).

تشير هذه الآية إلى قصة النبي يونس عليه السلام، وأنه عندما لم يحصل بعد فترة طويلة من التبليغ على نتيجة مع قومه دعا عليهم، وحينما بدأت آثار العذاب تظهر ابتعد عن قومه، وهو غاضب، وفي المقابل حينما رأى قومه هذا الوضع، تابوا فتاب الله عليهم ورحمهم، ولم يلتفت يونس عليه السلام إلى أن أولئك الناس يمكن أن يُرحموا من قبل الله تعالى؛ ولذا فقد ابتعد عنهم، وهنا نجد أن الله عز وجل قد عرض نبيه بسبب ذلك لنوع من العذاب الدنيوي.

٤. الرياء

إن أحد الصفات المذمومة التي تحكي عن علاقة سيئة بين الإنسان وربه، هي صفة الرياء، فكل عمل يُنجز (رياءً) هو عمل ملوث، وهو يُبعد الإنسان عن الله بمقدار ما يحمله من الرياء، وقد عُرِّفت هذه المفردة في كتب اللغة بما يلي: «هو الفعل الذي لا يكون مصحوباً بالنية الخالصة، والمقصود فيه هو غير الله، كما أن الهدف من تأديته هو إراءة الغير».

وقد كتب معجم (دهخدا) في ذيل النص أعلاه نقلاً عن كتاب منتهى الأرب ما يلي: «إظهار الشخص أمراً يخالف عقيدته، وقد نُقل ذلك عن ناظم

(١) الحج: آية ١٥.

(٢) الأنبياء: آية ٨٧.

الأطباء أيضاً^(١).

كذلك كتب الراغب الأصفهاني في تعريف الرياء ما يلي: «فَعَلَ ذَلِكَ رِيَاءَ النَّاسِ؛ أَي: مُرَاءَةً وَتَشْيِعًا»^(٢).

وقد ذُكِرَ في قاموس المنجد حول الرياء ما يلي: «الرَّئَاءُ (مَص): التَّظَاهَرُ بِخَيْرٍ دُونَ حَقِيقَتِهِ، يُقَالُ: (فَعَلَ ذَلِكَ رِيَاءً)؛ أَي: تَظَاهَرًا بِخِلَافِ مَا فِي بَاطِنِهِ»^(٣).

أمّا فيما يتعلّق بالمعنى الاصطلاحي، فقد عرّف الرياء في المصطلح الفقهي والعرفاني بالنحو التالي: «كُلُّ فِعْلٍ يُؤَدَّى مِنْ أَجْلِ إِبْرَازِ النَّفْسِ، وَلَا يَكُونُ خَالِصًا، وَلَا سَبِيلَ فِيهِ إِلَى النِّيَّةِ الْخَالِصَةِ، يُقَالُ لَهُ: رِيَاءٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَالْإِخْلَاصِ هُوَ: أَنَّ الْمُرَائِيَّ يَعْمَلُ لِيُرَى، وَالْمُخْلِصُ يَعْمَلُ لِيَصِلَ»^(٤).

أنواع الرياء في القرآن

إنّ هدف المرائي هو أن يُصبح محبوباً عند الآخرين، ولأجل الوصول إلى هذه الغاية، فهو إمّا أن يستعمل عبادته كأداة لهذا الغرض، أو يُظهر عقيدة لا واقعية لها، والحالة الثالثة هي أن يظهر عملاً أخلاقياً ليعرض نفسه على أنّه صاحب فضيلة، ويُمكن تصنيف الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالرياء على أساس هذا التقسيم:

أ) الرياء في إظهار العقيدة

إنّ معنى الرياء في العقيدة هو: إبراز اعتقادٍ لا يعتقد به الإنسان، ورغم أنّه لا يعتقد به إلّا أنّه يُبرز نفسه على أنّه من المعتقدين به، أو يكون لديه عقيدة باطلة،

(١) دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ١٨، ص ٢٤٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ١٨٨.

(٣) معلوف، لويس، المنجد في اللغة: ص ٢٤٣.

(٤) سجادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٢، ص ٤٧٥.

فينفي عن نفسه الاعتقاد بها، وهذا النحو من الرياء هو أسوأ أنواعه وعذابه أشدّ، وقد بين القرآن لنا بأنّ المنافقين هم أصحاب هذا النوع من الرياء، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾^(١).

ومن الجدير بالذكر أنّ الصدق والإخلاص في العقيدة مهمّان جدّاً، بحيث إنّ الله سبحانه وتعالى يكتب للمنافقين السيئات حينما يقولون: (أشهد أنّ محمداً رسول الله). والنقطة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها هي: أنّ العلم بالعقائد يختلف عن الإيمان بها، فالشيطان يعلم بجميع مراتب العقائد، لكنّه كافرٌ، وأمّا الإيمان فهو عمليٌّ وقلبيٌّ، ونحن نقبل به باختيارنا، ولكنّ العلم ليس اختياريّاً، فنحن عندما نُشاهد صورةً ما، فإنّ هذه الصورة تنتقش في ذهننا من تلقاء نفسها شئنا أم أبينا. والفرق الآخر بين العلم والإيمان هو: أنّ العلم يُمكنُ أن يُنسى، بينما الإيمان والاعتقاد ليس من المسائل التي تُنسى. وعلى أية حالٍ، بما أنّنا نؤمن بإرادتنا؛ لذا فإنّ الله يُثبِتنا على إيماننا، وينبغي الالتفات إلى أنّ الإسلام يطالبنا بأن نكون مؤمنين بعقائدنا، كما يُطالبنا بأن نجري هذه العقيدة على ألسننا، وأن تكون مشهودةً في أعمالنا في نفس الوقت.

هذا، وتوجد - في المقام - آيةٌ أخرى تُطالبنا بأن يكون إيماننا صافياً وخالصاً، وهي قوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ...﴾^(٢). فليس للشخص الذي تكون عقيدته خالصةً لله ولا يدخل فيها غير الله، أيّ منّةٍ بسبب إيمانه هذا، وليس له على الله شيء.

(١) المنافقون: آية ١.

(٢) الحجرات: آية ١٧.

ب) الرياء في العمل

يُمكن أن تُذكر العديد من الآيات التي تتحدّث حول (الرياء في العمل)، ولكننا سنكتفي هنا بذكر آيتين من سورة البقرة.

أما فيما يتعلّق بالآية الأولى فنقول: إنّ الإنفاق من العبادات التي ذكرت أهميتها في آيات عديدة من القرآن، ولكن لو أنّ هذه العبادة المهمة تلوّثت بالرياء والمنّ، فسوف تفقد خاصيتها المعنوية، لذا يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

والنقطة الجديرة بالذكر، هي أنّ الكلام انجرّ في آخر الآية ليكون حول الكفار وعدم هدايتهم، وهو ما يحكي عن أهميّة رفع معصية كهذه؛ ومن هنا فكما أنّ هذا المزارع لا يحصد من زراعته على هذه الطبقة الرقيقة من التراب سوى الحسرة، فكذلك المرائي الخاسر لا يحصد سوى الحسرة والندامة أيضاً.

وقد أعطى القرآن الكريم مثالا آخر فيما يتعلّق بالرياء في العمل، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

ولكي يتّضح معنى الآية نذكر بعض النقاط نقلاً عن كتاب الميزان في تفسير القرآن:

١. الجنة: الشجرُ الكثير الملتفّ كالبستان سُميت بذلك؛ لأنّها تجنّ الأرض

(١) البقرة: آية ٢٦٤.

(٢) البقرة: آية ٢٦٦.

وتسئرها وتقيها من ضوء الشمس ونحوه.

٢. ﴿مَنْ تَخِيلَ وَأَعْنَابٍ﴾؛ يُفيد معنى الغلبة دون الاستيعاب، فإن الجنة والبستان وما هو من هذا القبيل إنما يُضاف إلى الجنس الغالب فيقال: جنة العنب أو جنة من أعناب إذا كان الغالب فيها الكرم، وهي لا تخلو مع ذلك من شجر شتى؛ ولذلك قال تعالى ثانياً: ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

٣. المراد من (الكبر): هو كبر السن، وهو الشيخوخة.

٤. (الإعصار): هو الغبار الذي يلتف على نفسه بين السماء والأرض كما يلتف

الثوب على نفسه عند العصر.

وقد جمع الله تعالى في المثل بين إصابة الكبر ووجود الذرية الضعفاء؛ لتثبيت ميسس الحاجة القطعية إلى الجنة المذكورة، مع فقدان باقي الأسباب التي يتوصل إليها في حفظ سعادة الحياة وتأمين المعيشة، فإن صاحب الجنة لو فرض شاباً قوياً لأمكنه أن يستريح إلى قوة يمينه لو أصيب جنته بمصيبة، ولو فرض شيخاً هزماً من غير ذرية ضعفاء، لم يسؤ حاله تلك المساءة؛ لأنه لا يرى لنفسه إلا أياماً قلائل لا يُعطى عليه زوالها وانقضاؤها، ولو فرض ذا كبر وله أولاد أقوياء يقدر على العمل واكتساب المعيشة، أمكنهم أن يقتاتوا بما يكتسبون، وأن يستغنوا عنها بوجه! لكن إذا اجتمع هناك الكبر والذرية الضعفاء، واحترقت الجنة، انقطعت الأسباب عنهم عند ذلك، فلا صاحب الجنة يمكنه أن يُعيد لنفسه الشباب والقوة أو الأيام الخالية حتى يهيئ لنفسه نظير ما كان قد هيأه، ولا لذريته قوة على ذلك، ولا لهم رجاء أن ترجع الجنة بعد الاحتراق إلى ما كانت عليه من النضارة والأثمار^(١).

والآية التي تسبق هذه الآية تتكلم عن الإنفاق مع الإخلاص، والآية (٢٦٤) تتحدث عن خصوص الرياء في الإنفاق، والعلاقة بين الآية المذكورة وبين الآيتين

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٣٩٢.

السابقتين عليها واضحة جداً، حيث تضرب هذه الآية مثلاً للأعمال الريائية؛ ومن هنا يتّضح أنّ المنفق أو كلّ من يقوم بأيّ عبادة إذا قام بها رياءً، فحينما يأتي يوم القيامة ويُعطى سجلّه بيده فسوف تكون حالته كحالة هذا الرجل العجوز الذي طرحه القرآن كمثالٍ، والنقطة المهمّة في هذا المثال هي هذه الحقيقة، وهي أنّ كلاً من ذلك العجوز في هذه الدنيا والمرائي في الآخرة، لن يكون لهما فرصة لكي يُعوّضا خسارتهما.

ج) الرياء في الخصال والأخلاق

إذا تحرّك السالك بقدّم الحقّ والإخلاص وبحث عن الله، فإنّ الحقّ تعالى سوف يأخذ بيده، وفي هذه الحالة سترتفع منه الأنانيّة وسيجنّب إبراز نفسه، ولكنّ الشخص الذي ينظر دائماً إلى الأخلاق الحسنة التي لديه وملكاته الفاضلة بعين الناس، ويريد أن يُبرزها للناس، فحركته هذه هي حركةٌ بالتّجاه النفس، وليست بالتّجاه الله، ويكون بذلك قد خلط بين الأنانيّة وطلب الذات، وبين طلب الله والالتفات إليه عزّ وجلّ.

إنّ الآيات التي تمّ بيانها في القسم الثاني من الرياء، يُمكن أن تكون شاهداً على مثالنا في هذا القسم أيضاً، فالجود والسخاء صفاتٌ نفسيّة، وحينما يتمّ الإنفاق رياءً، فهذا العمل يحكي في الواقع عن صفةٍ غير موجودةٍ في الإنسان على شكل خُلُقٍ وخصلةٍ؛ ومن هنا ورد في الرواية: «عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا معاذ، احذر أن يُرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتُحشر مع المرئيين»^(١).

علامات المرائي

على الإنسان أن يُقيّم نفسه دائماً في سبيل إصلاح نفسه، وذلك ليطمئنّ إلى

(١) الفلسفي، محمد تقي: الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية: ج ٢، ص ١٤٦.

سلامة حركته وإلى إخلاصه في العمل، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام حول هذا الأمر ما يلي: «ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ لِلْمُرَائِي: يَنْشَطُ إِذَا رَأَى النَّاسَ، وَيَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ، وَيُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ»^(١).

وأما النقطة التي تجدر الإشارة إليها، فهي أنه لا نفع من الرغبة بامتلاك سمعة طيبة بين الناس، وإنما وُصِّينا بأن لا نقوم بعملٍ من أجل اكتساب سمعةٍ جيِّدةٍ، بل علينا أن نسعى إلى العمل من أجل رضا الله والقرب الإلهي، وإذا كان من آثار ذلك حصول سمعةٍ جيِّدةٍ بين الناس، فذلك نورٌ على نورٍ، وقد روى محمد بن يعقوب الكليني هذه الرواية: «سَأَلْتُهُ [أبا جعفر عليه السلام] عَنْ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الشَّيْءَ مِنَ الْخَيْرِ فَيَرَاهُ إِنْسَانٌ فَيُسِّرُهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ؛ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ فِي النَّاسِ الْخَيْرُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ صَنَعَ ذَلِكَ لِذَلِكَ»^(٢).

علاج الرياء

يُنبِّئنا مرض الرياء عن ضعف شخصية المرء، كما نُخبرنا عن قلة إيمانه بالله؛ ولذا فهو يبتعد عن الله بأعمال الخير هذه بدلاً من أن يتقرب بها إلى الله، وعلى هذا الشخص إذا أراد أن يتجنب خسارة آخرته أن يتوب من أفعاله الماضية، وأن يعمل على إصلاح نفسه، وأفضل عملٍ يقوم به من أجل ذلك هو الالتفات إلى وجود هذا المرض الأخلاقي، وأن يتعرّف عليه، وأن يعرف هذه الحقيقة، وهي أن العمل لغير الله لا يدوم ولا يُساعده على شيء.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٩٥. وأيضاً: الأردبيلي، أحمد، مجمع الفائدة: ج ١٢، ص ٣٧٣.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٩٥.

الفصل الثاني

المفاهيم المبينة لعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان

تمهيد

إنّ الإنسان يعيش بنحو اجتماعيٍّ، وتعبير العلماء «خلق الإنسان مدنيّاً بالطبع، ومن الناحية الروحية والنفسية لا يمكنه أن يبقى وحيداً»، وبما أنّ الإنسان لا يمكنه أن يرفع حاجته لوحده؛ لذا يعتقد بعض الفلاسفة بأنّ الإنسان مضطّر لأن يكون اجتماعياً، أي: إنّه مدنيٌّ بالإجبار، بينما يرى بعض الفلاسفة الآخرين بأنّ الإنسان مدنيٌّ بالاستخدام، أي: إنّ علّة انخراطه في الحياة الاجتماعية هي الاستفادة من الإمكانيات والقوى والقدرات التي للآخرين من أجل تحقيق مصالحه.

وعلى أية حال، فإنّ المسلم هو أنّ الإنسان عاش ويعيش بنحو اجتماعيٍّ لأيّ سببٍ ومبررٍ كان، وهو مضطّر لأن يتعامل مع غيره من الأفراد الذين يُشاركونه في النوع، والإسلام والقرآن يسعيان إلى تربية الإنسان من الناحية الأخلاقية، حيث إنّهما يُنظمان العلاقة بين الناس تنظيمًا إنسانيّاً، يعمل في المساعدة على رفع المشاكل. وحيث إنّ العلاقات بين الناس في المجتمع يمكن أن تكون إيجابية أو سلبية؛ لذا فسوف تُقسّم المواضيع والمفاهيم في هذا الفصل إلى قسمين: إيجابية، وسلبية، ثمّ سنعمل على بحثها ودراستها.

المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم

١. الإنفاق

إنَّ أحد المفاهيم في الأخلاق الإسلامية، والتي لها جنبه ماليّ هو (الإنفاق)، وقبل توضيح منزلة الإنفاق في القرآن، سوف نتعرّض لمعناه اللغوي، فقد عرّف اللغويّون الإنفاق بالنحو التالي: «الإنفاق: هو الدفع والصرف وبذل المال، وأمّا الإنفاق القومي: فهو النفقات التي تُنفقها الأمة»^(١). «والإنفاق قد يكون في المال وفي غيره، وقد يكون واجباً وتطوعاً»^(٢).

وأمّا في الاصطلاح، فقد عرّف الإنفاق بهذا النحو: «الإنفاق - مصطلح عرفاني وأخلاقي - وهو عبارة عن بذل المال في سبيل الله للفقراء والمستحقين والعمل بحكم [قوله تعالى]: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ و﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾، وهو عند العرفاء عبارة عن كمال البذل، سواء أكان بذلاً للمال أم للنفس أم للجسم في سبيل المعبود والمحجوب الحقيقي»^(٣).

الإنفاق في القرآن

إنَّ أحد المواضيع الأخلاقية التي اهتم بها القرآن هو موضوع الإنفاق، فقد تمت الإشارة إليه (٧٥) مرّة، ورغم أنّ القرآن تعرّض لـ (الإنفاق الواجب) وخصوصاً دفع الزكاة، لكننا نجد أنّه اهتم أيضاً في مواطن متعدّدة وبتعابير مختلفة بأنواع الإنفاق المستحبّ أيضاً، ثمّ إنّه وبالإضافة إلى استخدام مادّة (نَفَقَ) للتعبير عن الموارد المستحبة للإنفاق فقد تمّ استخدام العناوين التالية أيضاً: كـ (إقراض

(١) آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربى - فارسى [= القاموس المعاصر (عربي/ فارسي)]: ص ٧٠٧.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨١٩.

(٣) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامى [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ١، ص ٣٢٣.

الله) و(إيتاء المال) و(الصدقة). وتعود فلسفة الاهتمام الكبير من قبل القرآن بالإنفاق إلى آثاره وثماره الأخلاقية الفردية والاجتماعية، ومن ضمنها ما يلي:

١. تعزيز السخاء الذي يُمثّل بنفسه سمةً أخلاقيةً إيجابيةً.

٢. إضعاف البخل الذي يُمثّل أحد الرذائل الأخلاقية.

٣. مساعدة الفقراء.

٤. الآثار الأخلاقية والاجتماعية العديدة، من قبيل: التأثير في تطبيق العدالة الاجتماعية، وارتفاع المستوى العلمي والصحي في المجتمع مع ارتفاع المستوى الاقتصادي للناس.

والآيات المرتبطة بالإنفاق يُمكن أن تُبحث تحت العناوين التالية:

(أ) شروط قبول الإنفاق.

(ب) عوامل تكامل فضيلة الإنفاق.

(ج) آثار الإنفاق.

(أ) شروط قبول الإنفاق

ذُكرت آيات القرآن عدداً من الشروط لقبول الإنفاق من قبل الله تعالى وإعطاء

الثواب عليه، وهذه الشروط تتعلق بثلاثة مراحل من الإنفاق، وهي كالتالي:

١. قبل العمل

الإيمان

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١). إذ إنّ الهدف من التكليف

الإلهية - أعمّ من أن تكون واجبةً أو مستحبةً - هو تكامل المُكَلَّف وارتقاؤه، ومن

البديهي أنّه بدون وجود الإيمان لن يكون هناك علوّ معنويّ حتّى لو أنجز العديد

(١) الحديد: آية ٧.

من الأعمال.

التقوى

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِلَّا تَكُفُّوا عَنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(١).

يذكر القرآن في هذه الآية أنّ سبب عدم قبول الإنفاق من المنافقين هو معاصيهم وعدم تقواهم؛ ولذا قيل: إن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِلَّا تَكُفُّوا عَنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ صيغة أمر في معنى الشرط، والترديد للتعميم، وصيغة الأمر في هذه الموارد كناية عن عدم النهي، وسدّ السبيل إيماءً إلى أنّ الفعل لغو لا يترتب عليه أثر... ومعنى الآية: لا نمنعكم عن الإنفاق في حال من طوع أو كره، فإنّه لغو غير مقبول؛ لأنكم فاسقون، ولا يقبل عمل الفاسقين^(٢). ومعنى الفسق هو التمزيق والخروج، وبما أنّ الإنسان العاصي يمزق ستار التكليف الإلهية وحريمها، ولأنّه يخرج عن حدود الدين؛ لذا فقد سُمّيَ (فاسق)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

وبناءً على هذا؛ فلا بدّ من وجود الإيمان قبل العمل، وعدم ارتكاب أيّ عملٍ يُنافي الإيمان، وهذا يعني أنه لا بدّ من مراعاة التقوى.

٢. حين العمل

الشرط الثاني المهمّ لقبول الإنفاق، هو مراعاة (الإخلاص) حين القيام بالعمل، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ

(١) التوبة: آية ٥٣.

(٢) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٩، ص ٣٠٨.

(٣) المائدة: آية ٢٧.

لَا تُظْلَمُونَ ﴿١﴾. فقد ورد في القرآن الكريم فيما يتعلق بموضوع الإنفاق، العديد من التعبيرات التي تدلّ على ضرورة الاهتمام بالإخلاص، من قبيل قول تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢)، و﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾^(٣)، و﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾^(٤)، و﴿قُرْبَتِ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٥)، و﴿مَرْضَاكِ اللَّهِ﴾^(٦). ولو كان الإنفاق لغير الله، فلن يكون له تلك الآثار المعنوية، كما أنّه لن يؤدّي إلى أي كمال، بل مضافاً إلى ذلك فإنّه سيكون له آثارٌ سلبيةٌ أيضاً، وسيؤدّي إلى السير القهقرائي للإنسان في مسير كماله.

٣. بعد القيام بالعمل

الشرط الثالث المهمّ لتقبّل الإنفاق من قبل الله، هو ترك الأذى والمنّ، فيقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٧). ويقول في آية أخرى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...﴾^(٨).

وقد جاء في التفاسير حول معنى (المنّ) و(الأذى) اللذين وردا في الآية الأخيرة ما يلي: «المنّ: هو حديث الشخص عن إحسانه وإنفاقه، بحيث يصل هذا الحديث إلى سمع الآخذ، بحيث يكون سبباً لأذيته من الناحية الروحية، وهو يُعدّ من

(١) الأنفال: آية ٦٠.

(٢) البقرة: آية ٢٦١.

(٣) البقرة: آية ٢٧٢.

(٤) الحديد: آية ١١.

(٥) التوبة: آية ٩٩.

(٦) البقرة: آية ٢٦٥.

(٧) البقرة: آية ٢٦٢.

(٨) البقرة: آية ٢٦٤.

الكبائر. والأذى: هو إساءة المعاملة والافتخار والتكبر بسبب إنفاق المال، وذكر ذلك للشخص الذي لا يُحبَّ الفقيرُ بأن يُذكرَ له»^(١).

ب) عوامل زيادة أهمية الإنفاق

ليس هناك شكُّ في قيمة الإنفاق وترتّب الثواب الإلهي عليه، ولكن من وجهة نظر الآيات القرآنية أن هناك بعض الأسباب التي تجعل الإنفاق ذا أجرٍ أعلى إذا تحقّق في ظلّها، وبدورنا سنتعرّض لبعض هذه الأسباب:

١. الإنفاق في الشدّة

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدْ أُولِيَكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا﴾^(٢). فقد جاء في بعض كتب التفسير أن: «هذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام، وأنفق وجاهد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قبل الفتح، وبينوا الوجه في ذلك: عظم موقع نصرته الرسول عليه وآله [الصلاة والسلام بالنفس، وإنفاق المال في تلك الحال، وفي عدد المسلمين قلّة، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد، فكانت الحاجة إلى النصر والمعاونة أشدّ بخلاف ما بعد الفتح، فإنّ الإسلام صار في ذلك الوقت قوياً، والكفر ضعيفاً»^(٣).

وقد جاء في أحاديث المعصومين عليهم السلام بعض الروايات الدالة على هذا الأمر على نحو الخصوص، من قبيل: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا».

وعلى مدى تاريخ دعوة الأنبياء، كان الضغط الاقتصادي للكفار والمشركين أحد العوامل المؤثرة لتخفيف رونق الدين، وفي صدر الإسلام أيضاً نجد أنّ المشركين

(١) مخلص، عبد الرؤوف، تفسير أنوار القرآن (فارسي): ج ١، ص ٣٢٨.

(٢) الحديد: آية ١٠.

(٣) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٢٩، ص ٤٥٢.

عملوا على محاصرة المسلمين اقتصادياً واجتماعياً، فمنعوا المعاملات التجارية معهم، وأوقعوهم في صعوبات معيشية كبيرة جداً، ويقرر القرآن اكرام ذلك في قوله تعالى: ﴿هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾^(١).

وفي العصر الحاضر نجد أن أعداء الثورة الإسلامية والأمة الإيرانية قد استعملوا هذه الأداة بقوة منذ انتصار الثورة وحتى اليوم، وبالتالي فإنّ الإنفاق والمساعدة المالية في هذه الظروف الحساسة والمصيرية سيكون لهما جزاء كبير جداً من الإله الحكيم.

٢. الوسطية

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢). فيعدّ القرآن في أواخر سورة الفرقان اثني عشرة صفة للعباد الذين ينظر إليهم الله بنظرة الرحمة والغفران، وأحد هذه الأوصاف (الاعتدال والوسطية) في الإنفاق، وقد أوصى القرآن في عددٍ من الآيات عبر استعماله لـ (من التبعية) بأن ننفق بعضاً مما رزقنا الله إياه للغير، وهذا البيان وهذه الوصية هما عبارة عن تعبير آخر عن حقيقة الاعتدال، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِيزُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٣).

مضافاً إلى كون الإفراط والتفريط في أي عملٍ من الأعمال - ومن بينها الإنفاق - لا ينسجم مع المعايير الشرعية، وكذلك لا ينسجم مع العقل السليم، وكما أنّ النبي الأكرم ﷺ لم عثمان بن مظعون حينما أنفق جميع أمواله على الناس، فذلك يُعتبر عدم الإنفاق مُطلقاً بخلاً، وفي المقابل إنّ زيادة الإنفاق يجعل أُسس حياة الإنسان متزلزلة،

(١) المنافقون: آية ٧.

(٢) الفرقان: آية ٦٧.

(٣) البقرة: آية ٣.

فإن استمرار الحياة السليمة يُشكّل ضماناً لاستمرارية الإنفاق.

٣. الإنفاق مما يُحبّ

﴿لَنْ نَأْثُرَ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾^(١). فإن السخاء هو أحد الملكات الأخلاقية القيّمة، وهذه الصفة الحسنة ستقوى في الإنسان كما سيضعف البخل حينما يُنفق أمواله التي يُحبّها والتي تعلق قلبه بها.

٤. الإنفاق مع الرغبة

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّالِحِينَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾^(٢). فهذه الآية في مقام بيان صفات المنافقين وحالاتهم الروحية، وهي تعتبر - كما ورد في آخرها - أنّ سبب عدم وجود أي قيمة للإنفاق المنافقين هو عدم رغبتهم بهذا العمل وكرههم له، وقد جاء في تفسير هذه الآية مجموعة من النقاط التي تستحق الاهتمام، فمن مميزات الإنفاق المالي من قبيل الخمس والزكاة والنفقات المستحبة ما يلي:

١. إنّ الفرد يؤدّي هذه الأموال بملء إرادته واختياره وبوحيّ من الوازع

الديني.

٢. يؤدّيها دون خوفٍ وبقصد القربة إلى الله تعالى.

٣. إنه يعطيها هو مؤمن بأنّ هذه الأموال مغنّم له وذخّر في يوم القيامة.

٤. إنه يعرف ويُراقب مصارف هذه الأموال.

٥. يؤمن أنّ الحاجة هي الشرط الأساس لمن يُنفق عليه^(٣).

(١) آل عمران: آية ٩٢.

(٢) التوبة: آية ٥٤.

(٣) أنظر: قراءتي، محسن، تفسير النور: ج ٣، ص ٤٣٨.

ج) آثار الإنفاق

إنّ لجميع الأوامر والوصايا الأخلاقية في القرآن آثاراً مادية ومعنوية عديدة، وللإنفاق - الذي يُعدّ كأحد أهمّ القيم الأخلاقية في القرآن - العديد من الآثار والثمار أيضاً، وبعض آثار الإنفاق التي جاءت في الآيات هي كالتالي:

١. التعويض بأضعاف مضاعفة

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١). فإنّ عبارة (القرض الحسن) قد وردت في القرآن حوالي اثني عشرة مرّة، وقد أوضح المفسّرون بأنّ القرض في هذه الآيات هو (الإنفاق في سبيل الله)، وبيّنوا أيضاً أنّ المراد من الإنفاق في المقام هو الإنفاق المستحبّ؛ ومن هنا فإنّ العبارة المشار إليها تختلف عن مفهوم (القرض الحسن) من الناحية الاصطلاحية. نعم، هناك وجه تشابه بين هذين الأمرين، وهو ما يلي: كما أنّ المال المقرض يُعاد في الدنيا والآخرة إلى المقرض، فكذلك سوف يردّ الله القرض الحسن (الإنفاق في سبيل الله) المستحبّ أضعافاً مضاعفةً، فقد ورد في سبع آيات في القرآن التعبير بـ (فيضاعفه) أو (أضعافاً كثيرة).

وقد ذكر العلامة الطباطبائي في ذيل الآية السابقة أن: «القرض معروف، وقد عدّ الله سبحانه ما يُنفقونه في سبيله قرضاً لنفسه لما مرّ أنّه: للترغيب [أي: ترغيب المؤمنين بهذا العمل]؛ ولأنّه إنفاق في سبيله؛ ولأنّه ممّا سيُردّ إليهم أضعافاً مضاعفةً»^(٢). ويقول الطبرسي في مجمع البيان في بيان علّة إطلاق اسم (القرض) في الآيات

(١) البقرة: آية ٢٤٥.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٢٨٤.

ما يلي: «وإطلاق اسم القرض هنا تَلَطَّفٌ في الاستدعاء إلى الإنفاق»^(١)، وفي آخر الآية يذكر تعالى ثلاث صفاتٍ تتناسب مع موضوع الإنفاق والقرض، وذلك بالنحو التالي: كونه قابضاً وباسطاً ومرجعاً يرجعون إليه (والقبض الأخذ بالشيء إليك، ويقابله البسط)، وقد وردت هذه الجملة الأخيرة للإشعار بأن ما أنفقوه في سبيله تعالى لا يصير باطلاً، ولا يُستبعد مضاعفته أضعافاً كثيرة^(٢)، فيقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٣). ويقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

٢. غفران الذنوب

﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٥). والمراد من إقراض الله كما ذكرنا هو الإنفاق، وجملة ﴿يَضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ إشارة إلى حسن الجزاء الذي سيُعطيه الله عز وجل في الدنيا والآخرة للمُنْفِقِينَ.

٣. عدم الحسرة بعد الموت

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٦). إذ إنَّ الشخص الذي يخرج من الدنيا بدون إنفاقٍ سيلتفتُ إلى فقره وحاجته سريعاً، وسوف يتمنى الثواب الهائل الذي سيرى

(١) [الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ١٠، ص ٤٥٣]. (م)

(٢) [أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٨٤]. (م)

(٣) سبأ: آية ٣٩.

(٤) البقرة: آية ٢٦١.

(٥) التغابن: آية ١٧.

(٦) المنافقون: آية ١٠.

أنّه بأمس الحاجة إلى الأجر المترتب على الإنفاق، وسوف يتحرّر ويتمنّى لو يعود ليحصل على هذا الجزاء! وأمّا النقطة الأخرى التي تُستفاد من هذه الآية فهي أنّ المسلم يكتسب في القيامة لقب الصالح من خلال إنفاقه في سبيل الله.

٤. التكفير عن السيئات

﴿لِيَن آَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَامَنْتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾^(١).

يقول الطبرسي في ذيل الآية الشريفة: إن قوله تعالى: «﴿لَّأُكَفِّرَنَّ...﴾»؛ لأغطيّن على ما مضى من إجرامكم بعفوي، وإسقاطي عنكم وبآال ذلك»^(٢).

٥. الإدخال إلى الجنة

﴿... وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾^(٣).

٦. إثبات الصدق والتقوى في ظلّ الإنفاق

﴿... وَآَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٤).

فقد ذكر في هذه الآية ستّ صفاتٍ للصالحين، وبيّنت بعض الأبعاد الاعتقاديّة والعملية والأخلاقيّة لذوي الأعمال الصالحة؛ فقد تعرّضت هذه الآية إلى البعد

(١) المائدة: آية ١٢.

(٢) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٣، ص ١٧١.

(٣) المائدة: آية ١٢.

(٤) البقرة: آية ١٧٧.

الأخلاقي من خلال ذكر الإنفاق المستحب والصبر، ثم قالت: سيميّز المؤمنون الذين يستظلّون بظلّ الإيمان والعمل الصالح بميزتين وعلامتين من قبل الله تعالى، وهما: أولاً: عنوان الصدق، وثانياً: فضيلة التقوى، وهذا هو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

٢. الإيثار

إنّ (الإيثار) هو أحد مكارم الأخلاق والصفات الأخلاقية المهمة في الإسلام، وفي البداية لا بدّ لنا من بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي للإيثار، ثمّ التعرّض للنظرة القرآنية في هذا المجال.

مفهوم الإيثار

لقد جاء في تعريف الإيثار ما يلي: المآثر: ما يروى من مكارم الإنسان، ويُستعار (الأثر) للفضل، والإيثار للفضل^(١).

أمّا فيما يتعلّق بمفهوم الإيثار في العرفان والأخلاق، فقد ذكر التوضيح التالي: «معناه الانتقاء والاختيار والإكرام والتفضيل، وفي الاصطلاح هو اختيار الغير وتفضيله على النفس عن قصدٍ ونيةٍ، قال أبو حفص: الإيثار أن تُقدّم حظوظ الإخوان على حظّك في أمرٍ آخرتك ودنياك»^(٢).

وبالالتفات إلى المعنى اللغوي للإنفاق والإيثار، نعتقد بأنّه كلّما كان هناك إيثارٌ فهناك إنفاقٌ أيضاً، ولكنّ العكس ليس صحيحاً، فليس كلّما كان هناك إنفاقٌ فهناك إيثارٌ؛ لأنه قد يُنفق الإنسان جزءاً من ثروته التي لا يحتاج إليها، في حين أنّ الإيثار هو تقديم الآخرين على النفس في الشيء الذي تحتاج إليه.

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٢.

(٢) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ١، ص ٣٥٦.

الإيثار في القرآن

لقد مُدحت فضيلة الإيثار في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(١).

فقد ذكرت هذه الآية عدداً من الصفات الحسنة التي يتّصف بها المؤمنون والصلحاء، وكانت الصفة الثالثة منها هي صفة الإيثار، وهذه الآية في مقام وصف الأنصار في المدينة المنورة الذين قدّموا المهاجرين على أنفسهم، في حين كانوا هم في حاجة أيضاً؛ ومن هنا قيل: «الإيثار... وهو علامة الإيمان، والمظهر الخارجي للحب الصادق تجاه الإخوان، وقمة التماسك في جبهة الإيمان، حيث التفاني والتضحية من أجل الغير لوجه الله، والمؤمن الصادق هو الذي يُقدّم نفسه للخطر لِيَسْلَمَ الآخرون، ويُؤخّرهما عند المكاسب ليغنموا»^(٢).

ولكن إذا كان أسلوب العمل على العكس من ذلك، بحيث يُغلب الإنسان الدنيا على الآخرة، ويُقدّم نفسه على الآخرين، فإنه سينغمس نفسياً في الجنبه الحيوانية، وهذا الأمر سيُشكّل مقدّمةً للسقوط والتخلّي عن الأخلاق الحسنة والاتّجاه نحو النفس والشيطان، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾^(٣٧) ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٣٩).

هذا، وأنّ الله عزّ وجلّ بعد أن وصف الصلحاء في سورة الأعلى وأسلوبهم في التصرف، يُخاطب غالبية الناس، فيقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٤٠) ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٤١). فالناس على مفترق الطرق دائماً، وعليهم أن يُقرّروا أيّ الطريقين

(١) الحشر: آية ٩.

(٢) المدرّسي، محمّد تقي، تفسير من هدى القرآن: ج ١٠، ص ٣٨٣.

(٣) [النازعات: آية ٣٧-٣٩]. (م)

(٤) الأعلى: آية ١٦-١٧.

يختارون، وأغلبيتهم تختار الميول والرغبات النفسانية ومصالحهم في الحياة الدنيا التي تكون محسوسة أكثر من غيرها، في حين أن القرآن ينصحهم ويقول: اعلموا أن الآخرة خير لكم وأبقى! ، وقد كتب الفخر الرازي في تفسير الآية أعلاه ما يلي: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا»؛ أي: بل أنتم تؤثرون عمل الدنيا على عمل الآخرة. قال ابن مسعود: إن الدنيا أحضرت، وعُجِّلَ لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها، وإن الآخرة لغيبت لنا وزويت عنا، فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل، [في حين أن الآخرة أفضل من ثلاثة أوجه: ١. الآخرة تُؤمِّن للإنسان سعادته الجسميّة والروحيّة، أمّا الدنيا فليست كذلك. ٢. اللذائذ الدنيويّة مختلطةٌ بالألم والغصّة بخلاف الآخرة. ٣. الدنيا زائلةٌ، بينما الآخرة دائمةٌ، والدائم خيرٌ من الزائل]»^(١).

ومن هنا؛ فالإيثار من القيم الأخلاقية، ومن ضمن مجموعة المكارم الأخلاقية، فتقديم المحتاجين على أنفسنا، وتقديم الدين على الدنيا، وتقديم الآخرة والحياة الأبدية على الدنيا والملذات السريعة الزوال، هي الصفات التي تتحدّد في ضوئها القيمة الواقعية للإنسان، وعلى سبيل الاختصار يُمكن أن نقسّم الإيثار إلى عدّة أقسام، هي:

١. تقديم الآخرين على أنفسنا والسعي لرفع حوائجهم قبل رفع حوائجنا.
٢. ترجيح رضا الله على رضا غيره، رغم أن مصاعب هذا الفعل كثيرة.
٣. تقديم الله على نفوسنا؛ لأنّ الغوص في إيثار النفس، يُمثّل في الواقع ادّعاء المالكية لأنفسنا، وبحسب ما يقول العرفاء: على الإنسان أن يعتبر أن الإيثار من الله

(١) الفخر الرازي، محمّد بن عمر، تهذيب التفسير الكبير: ج ٧، ص ٤٦٧. [ملاحظة: لم نجد ما بين المعقوفتين في المصدر المذكور؛ ولذا فقد ترجمناه من الأصل الفارسي، ولعلّ النقل كان بالمعنى أو من موطنين مختلفين، فاقتضى التوضيح (م)].

وأن لا يحسب نفسه شيئاً، وقد نُقل عن بعض السالكين والعرفاء أنه قال: «إيثار اللقمة عمل الكلاب، أما الرجال فيؤثرون أرواحهم وحياتهم».

٣. صلة الرحم

مفهوم صلة الرحم

إنَّ أحد المفاهيم المليئة بالقيم في القرآن والتي تُبين العلاقات الإنسانية الحسنة بين الناس في المجتمع، هو مفهوم (صلة الرحم)، و(الصلة) مصدرٌ ثلاثيٌّ مجردٌ معناه الاتصال والاتحاد، وكلمة (الرحم) تعني القرابة، وقد جاء في معاجم اللغة في تعريف الصلة والرحم ما يلي: «الانْتِصَالُ: اتِّحَادُ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كاتِّحَادِ طَرَفِي الدَّائِرَةِ، وَيُضَادُّ الْانْفِصَالَ»^(١). «وَالرَّحِمُ وَالرَّحْمُ: مُسْتَوْدَعُ الْجَنِينِ فِي أَحْشَاءِ الْحَبْلِ، وَالْقَرَابَةُ، يُقَالُ: «ذُو الرَّحِمِ»، جَمْعُهَا أَرْحَامٌ»^(٢).

وقد جاء في المصادر الدينية فيما يتعلّق بالمصطلح الشرعي لمفهوم صلة الرحم ما نصه: «صلة الرحم هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارةً تكون بالمال، وتارةً بالخدمة، وتارةً بالزيارة»^(٣).

نظرة القرآن لصلة الرحم

إنَّ أحد مواضيع الأخلاق الإسلامية التي تمّ التأكيد عليها في القرآن بشكلٍ كبيرٍ، هو موضوع (صلة الرحم)، وقد بينت الآيات القرآنية موضوع صلة الرحم في ثلاثة مجالات:

(أ) الوصية بالإحسان للأقارب.

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٢٧٢.

(٢) [البستاني، فؤاد أفرام]، منجد الطلاب، ص ٢٣٦.

(٣) ابن عبد الله، صالح، وابن محمد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم: ج ٧، ص ٢٦١٥.

ب) تعظيم قيمة القرابة.

ج) اعتبار قطع العلاقة مع الأقارب من الفسق. وسوف نوضح هذا الجانب - الذي يُمثّل الموقف السلبي من (صلة الرحم)- ضمن القسم المخصص للمفاهيم السلبية والمضادة للقيم في العلاقات الإنسانية في المجتمع.

أ) الوصية بالإحسان للأقارب

لقد تحدّث العديد من الآيات عن هذا الموضوع، ولكننا سنكتفي هنا بذكر واحدة منها فقط: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١). فنلاحظ هنا أنّ الآية قد تعرّضت إلى مسألة صلة الرحم إلى جانب الإحسان للوالدين وعبادة الله عزّ وجلّ، ولكن هذا الأمر لا يعني اعتبار أنّ أهميّة الأقارب مساوية لأهميّة الوالدين، وعدم اهتمام القرآن بالأب والأم بنحو خاصّ، بل يكفي لبيان أهميّة الإحسان إلى الأب والأم أنّه قرن في هذه الآية وفي بعض الآيات الأخرى بين برّ الوالدين وبين (التوحيد)، وقد ذكرت بعض التفسيرات حول هذه المسألة أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِحْسَانًا﴾؛ والإحسان نهاية البرّ، فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية، وقد أكّد الله الأمر بإكرام الوالدين حتّى قرن تعالى الأمر بالإحسان إليهما بعبادته التي هي توحيده، والبراءة عن الشرك، اهتماماً به وتعظيماً له^(٢).

ووصيّة القرآن بالإحسان إلى الأب والأمّ وتأكيد الشديّد على ذلك هو من أجل تعويضهما على بعض ما قدّماه من جهودٍ، فالابن يكون في بداية حياته في غاية الضعف والصّغر، وليس لديه أيّ قدرة للدفاع عن نفسه، وفي المقابل يقوم الوالدان

(١) البقرة: آية ٨٣.

(٢) القاسمي، محمّد جمال الدين، محاسن التأويل المسمّى بـ (تفسير القاسمي): ج ١، ص ٣٤٣.

بحفظه ورعايته مع كامل المحبة والعشق إلى أن يكبر ويقوى؛ ومن هنا يجب على الابن البالغ أن يُعوّضهما عن تلك الجهود، وقد تعرّض القرآن لهذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤﴾^(١).

ويمكن أن يُستفاد من الآيات السابقة بعض النقاط الدقيقة واللطيفة التالية:

١. لم تُشر هذه الآيات بشكلٍ مباشرٍ إلى المسائل المادية، ولكنها طرحت مسألة الإحسان بنحوٍ كليٍّ بما يشمل رفع الحاجات المادية أيضاً.

٢. يُمكن أن نستفيد من كلمة (عندك) هذه النقطة وهي: أنّه على الابن أن يعيش بالقرب من الوالدين كي يتمكن من الإحسان إليهما بنحوٍ أفضل.

٣. إنّ الإشارة إلى فترة شيخوختها يُوجد الدافع واللفظ في قلب الإنسان تجاههما.

٤. إنّ لا ينبغي أن تصدر عن الأبناء أيّ كلمة تُشير إلى الانزعاج منهما مهما كانت صغيرة كأن تكون كلمة (أفٍّ) مثلاً.

٥. عبارة (لا تنهرهما) تنهى نهياً مطلقاً عن إبعادهما.

٦. يجب أن يُبرز الابن أمامهما نهاية التواضع جنباً إلى جنبٍ مع العطف والرحمة.

٧. أن لا يكتفي بالأعمال الظاهرية، بل عليه أن يتذكّر مع ذلك المشقات التي تكبدوها تجاهه عندما كان صغيراً، ثم يتّجه إلى الله، ويطلب لهما الرحمة والمغفرة.

والنقطة التي تجدر الإشارة إليها هي أنّ عنوان (ذوي القربى) جاء في الآيات

(١) الإسراء: آية ٢٣-٢٤.

بعد الإحسان إلى الوالدين، والمراد منهم الأرحام والأقارب، ومع ذلك نلاحظ أنه أشار إلى (الوالدين) بشكل منفصل عنهم بسبب كونهم أهم الناس وأقربهم إلينا. هذا، وقد جاءت الوصية بالمحافظة على صلة الرحم في الآيات عشر مرات، وذلك من خلال التعبير بـ (ذي القربى) أو (أولو الأرحام)؛ ومن هنا ينبغي علينا أن نقوم باللطف والإحسان إليهم بأي وسيلة ممكنة، سواءً أكان ذلك بالمال أم بالزيارة والجلوس معهم. كما ينبغي أن تكون الغاية التي نضعها في أذهاننا دائماً هي التواصل مع الأقارب، بل ينبغي علينا أن نعمل على تقوية أو اصر هذه العلاقة أكثر مع الأيام؛ ومن هنا نجد أن القرآن قد أوصى بصلة الرحم كثيراً؛ وذلك لما لها من الآثار الأخلاقية والاجتماعية والعاطفية العديدة.

ب) تعظيم قيمة القرابة

بعد أن ذكر الله عز وجل في سورة الرعد بأنه لا يمكن المقارنة بين أولي العلم ومن كان قلبه أعمى بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾، عقب على ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١)، ثم ذكر خمس صفات يتميز بها أولو الألباب، وعد من بينها أنهم يحفظون صلة الرحم فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(٢).

وأفضل نقطة يمكن ذكرها في مقام تبين صلة الرحم وتعظيمها في القرآن، هو تكرار تعبير (ما أمر الله) في ثلاث آيات^(٣). كما أنه قد جاء في بداية سورة النساء تعظيم لـ «صلة الرحم» من خلال قول تعالى: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ...﴾.

وقد جاء في تفسير هذه الجملة من الآية، ما يلي: «يقول [الله] تسألون بالله

(١) الرعد: آية ١٩.

(٢) الرعد: آية ٢١.

(٣) أنظر: البقرة: آية ٢٧. و: الرعد: آية ٢١، وآية ٢٥.

بعضكم ببعض الحقوق والحوائج، واتّقوا الأرحام أن تقطعوها وصلوها»^(١).
ومن هنا؛ نجد أنّ القرآن سعى إلى تعظيم هذا الأصل الأخلاقي من خلال استعماله لبعض العبارات الخاصّة.

٤. الوفاء

إنّ الوفاء هو أحد القيم الأخلاقية الإسلامية الواردة في القرآن، وغالباً ما يُذكر الوفاء إلى مقيّدة بالعهد، والوفاء مصدرٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ من (وفي، يفي)، وقد جاء في تعريفه في كتب اللغة ما مضمونه: وفي بالعهد وفاءً: يعني التزم بالعهد الذي التزم به، وأنجزه وحافظ عليه، وراقبه وثبت عليه^(٢).

فالوفاء هو إنجاز الوعد والالتزام بالصدقة والعهد والكلام كما في (غياث اللغات)، وهو الالتزام بالعهد والوعد والكلام والصدقة والاستقامة عن (ناظم الأطباء)، والثبات في العهد والوعد والقول والصدقة والصفاء والصدق والضمانة في العمل والتصرّف^(٣).

وقد عرّف الوفاء في علمي الأخلاق والعرفان بالنحو التالي: «الوفاء عبارة عن إنجاز الأعمال التي تمّ التعهّد بها، وعبارة أيضاً عن الوقوف على الأمر الإلهي، وعبارة كذلك عن العناية الأزليّة... يقول الخواجة: الوفاء غاية الوفاق ووقاية الميثاق والوفاء آلة المشتاق ومركز العشاق ومصدر الإخلاص ومجلى أهل الاختصاص، وإخفاء سرّ النفس، وعدم إذاعة سرّ الصديق»^(٤).

(١) البلخي، مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود: ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) أنظر: الشعراي، أبو الحسن، نشر طوبى يا دائرة المعارف لغت قرآن مجيد [= نشر طوبى أو دائرة معارف كلمات القرآن المجيد]: ص ٥٦٦.

(٣) أنظر: دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ١٤، ص ٢٠٥٢٧.

(٤) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٣، ص ٥٩٥.

الوفاء في القرآن

لقد بُيِّنَ في القرآن ثلاثة أنواعٍ من الوفاء، وهي كالتالي:

١. الوفاء بالعهد من قبل العبد تجاه الله عز وجل.
 ٢. الوفاء بالعهد من قبل الله تجاه العبد.
 ٣. الوفاء بالعهد من قبل الناس تجاه بعضهم البعض.
- والوفاء بالعهد ثنائي الطرفين كأكثر المصطلحات الأخلاقية، فيُمكن أن يكون الوفاء بين الله والعبد، وبين شخصين، أو بين مجموعتين بحيث يكونان قد أمضيا عقداً فيما بينهما.

(أ) الوفاء بالعهد المشروط من قبل الله تجاه العبد

إنَّ العهد والعقد الذي بين الإنسان وربه يُمكن أن يكون على نحوين، هما:

(١) العهد الذي يحصل من خلال حصول الإيثار، فرعاية الأوامر الأخلاقية للدين والعمل بالأحكام الفقهية للإسلام هو من جملة التعهّدات التي بين الفرد وبين الله تعالى.

(٢) العهود التي تحصل على شكل (عهد) و(نذر) و(قسم) و...

وفي كلّ الأحوال، فقد تعهّد الله عزّ وجلّ من جهته في قبال أداء هذه التعهّدات من قبل الناس بأن يمنحهم السعادة والموفّقيّة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾^(١).

والنقطة التي تستحقّ الالتفات هي أنّه لا شكّ في وفاء الله بوعدده، ولكنّ وفاء الله مشروطٌ بوفاء الناس.

(١) البقرة: آية ٤٠.

ب) كَيْفِيَّةُ وِفَاءِ النَّاسِ بِعَهْدِ اللَّهِ

إنَّ أحدَ المواطنِ التي وصَّى القرآنُ فيها بالوفاءِ بالعهدِ، هو أداءُ التعهّداتِ التي أخذها الإنسانُ على نفسه بما هو فردٌ مسلمٌ وعبدٌ لله، وأبلغُ آيةٍ في هذا المجالِ هي الآيةُ (٩١) من سورة النحل، حيث قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

والسؤال الذي ينبغي أن يُطرح هنا هو: ما هي التعهّدات التي تعهّد بها الناس والتي يجب عليهم بناءً على الأمر الصادر في هذه الآية أن يفوا بها؟ ينقل الفخر الرازي عدّة أقوال في مقام الجواب عن هذا السؤال، ثم يقول في النهاية: الأولى أن يُحمل هذا العهد على ما يلتزمه الإنسان باختياره ويدخل فيه: المبايعة على الإيمان بالله وبرسوله، ويدخل فيه عهد الجهاد، وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات والأشياء التي أكدها بالخلف واليمين^(٢).

ج) الوفاء بالعهد بين الناس

يتمتع هذا القسم من الوفاء بالعهد بصبغة أخلاقية أكثر من كونها اعتقادية وكلامية، والروايات حول الميثاق والعهد بين الناس، سواءً أكان مكتوباً أم شفاهياً توصي بالالتزام به بشكل كبير جداً؛ ومن هنا نجد أن الله يعتبر الوفاء بالعهد أحد أوصاف الأبرار والصلحاء في إحدى آيات سورة البقرة، قال تعالى في مقام وصفه للأبرار: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾^(٣).

(١) النحل: آية ٩١.

(٢) أنظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٢٠، ص ٢٦٣.

(٣) البقرة: آية ١٧٧.

وعلى الرغم من أن البعض اعتبر الوفاء بالعهد واجباً أخلاقياً، وليس واجباً فقهياً، لكن من وجهة نظر القرآن نقض العهد والعقد بين الناس عملٌ غير أخلاقي؛ ومن هنا فالنقطة المقابلة للوفاء هي الغدر والخداع الدالان على نقض العهد، وأعمال كهذه تنشأ من صفة رذيلة في نفوس الأفراد.

مراتب الوفاء

إن الوفاء كسائر الأوصاف الأخلاقية الأخرى للإنسان، له درجات ومراتب متعدّدة، وهذا الاختلاف في الرتبة يعود إلى مقدار الإيثار والعلم واليقين الذي عند الإنسان، وقد ذكر العلامة الطباطبائي مراتب الوفاء في ذيل قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِي آلَ كَنْبٍ إِسْتَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾^(١)، فقال في صدد ذلك: «الوفاء بالوعد ذو مراتب، فمن مراتبه في المقال مثلاً إقامة ساعة أو ساعتين حتّى تعرض حاجةً أخرى توجب الانصراف إليها، وهو الذي يصدق عليه الوفاء عرفاً، وأعلى منه مرتبة الإقامة بالمكان حتّى يؤاس من رجوع الصديق إليه عادةً بمجيء الليل ونحوه، فيقيّد به إطلاق الوعد، وأعلى منه مرتبة الأخذ بإطلاق القول والإقامة حتّى يرجع، وإن طال الزمان؛ فالنفوس القويّة التي تُراقب قولها وفعلها لا تلقي من القول إلّا ما في وسعها أن تصدّقه بالفعل، ثم إذا لفظت لم يصرفها عن إتمام الكلمة وإنفاذ العزيمة أي صارفٍ»^(٢).

٥. البرّ

مفهوم البرّ

كلمة (البرّ) هي إحدى الكلمات الأخلاقية في القرآن، والتي تكرّر ذكرها عدّة مرّات، سواءً هي أم اشتقاقاتها ككلمة (الأبرار)، وهي جمع بارّ، والبارّ وصفٌ يُطلق

(١) مريم: آية ٥٤.

(٢) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٤، ص ٦٥.

على الشخص الذي يُحبّ الخير ويعمله طوال حياته، وقد فسّر الراغب الأصفهاني كلاً من (البرّ) و(البرّ) بالنحو التالي: «البرّ خلاف البحر، وتُصوّر منه التوسّع، فأشتقّ منه البرّ، أي: التوسّع في فعل الخير، ويُنسب ذلك إلى الله تعالى تارة... وإلى العبد تارة، فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة»^(١).

وقد فسّرت مفردة (الأبرار) في اصطلاح علماء العرفان والأخلاق بالنحو التالي: «الأبرار هم الصالحون، وهذا المصطلح من المصطلحات الأخلاقية والعرفانية، وهم عبارة عن المتوسطين في السلوك، وهم من عباد الله الخاصين الذين طووا مدارج من السير إلى الله، ومقام الأبرار هو أحد مقامات القرب إلى الحقّ، والأبرار هم جماعة يعملون على صلاح البلاد والعباد، وغاية سعيهم هو إيصال الخلق إلى الكمال»^(٢).

وتُستعمل كلمة البرّ في الفارسيّة بمعنى الفعل الحسن، ولكن هذا لا يعني المساواة التامة للمعنى المتصوّر لهاتين الكلمتين في اللغتين العربيّة والفارسيّة؛ وذلك لأنّه لا تُطلق أبداً على شخصٍ أو شيءٍ خارجيّ صفة (البرّ)، وعادةً ما يُستعمل في هذه الحالات كلمات من قبيل: (جيد) و(خير) و(صالح). وبناءً على هذا؛ فالبرّ يختصّ بالأفعال الصالحة فقط، لا مطلق الأمور الصالحة [كما هو الحال في الفارسيّة]، كما أنّ كلمة (برّ) تُستعمل في المسائل الاعتقاديّة وفي الأعمال أيضاً، والشاهد على ذلك هو الآية (١٧٧) من سورة البقرة، فهي حينما تقوم بتعريف البرّ فإنّها تطرح كلا البحثين الاعتقاديّ والعمليّ.

والنقطة الأخرى التي ينبغي توضيحها حول هذه الآية، هي أنّنا يُمكن أن نُشاهد نفس التوسعة في (الحسن) المبيّنة في المعنى اللغوي لمفردة (البرّ) في هذه الآية

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ١١٤.

(٢) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ١، ص ٣٤.

أيضاً؛ وذلك لأنها تعرّضت لكلّ من المباحث الاعتقاديّة والعملية والأخلاقيّة، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾^(١).

بعض مصاديق البرّ في القرآن

لقد استعملت هذه المفردة في الآيات المرتبطة بـ(البرّ) بعدة معانٍ، وهي كالتالي:

١. القيام بالأعمال الصالحة

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(٢). وقوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ...﴾^(٣).

٢. البرّ بمعنى صلة الرحم

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾^(٤).

٣. تصديق القسم

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا...﴾^(٥).

٤. صفة لله

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾^(٦).

(١) البقرة: آية ١٧٧.

(٢) البقرة: آية ١٨٩.

(٣) آل عمران: آية ٩٢.

(٤) الممتحنة: آية ٨.

(٥) البقرة: آية ٢٢٤.

(٦) الطور، آية ٢٨.

٥. صفةٌ للملائكة

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ كَرَامٍ بَرَرَةٍ ۝^(١)

٦. نَعَمُ الْجَنَّةِ وَالْأَبْرَارِ

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝^(٢)

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝^(٣)

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ۝^(٤)

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ۝^(٥)

ومن الجدير بالذكر أنّه وبنفس هذا النحو من الاتّساع في الأمور الحسنة الذي تمّ فيه لحاظ الأبرار - من ناحية المعنى - في الدنيا، فكذلك في الآخرة لهم نعمٌ إلهيّةٌ كثيرةٌ جدّاً في الجنّة، وذلك مقابل ما قاموا به من أعمالٍ حسنةٍ وصالحةٍ في الدنيا؛ إذاً (البرّ) هو أحد المفاهيم الأخلاقية في القرآن.

٦ و ٧. الإحسان والعدل

إنّ الإحسان والعدل من المفاهيم الأخلاقية والإسلامية التي وردت في القرآن، وبما أنّ هاتين الكلمتين متقاربتان في المعنى؛ لذا سوف نبحثهما معاً.

مفهوما العدل والإحسان

إنّ بيان المعنى اللغوي لهاتين الكلمتين يُوضّح الفرق بينهما، وقد جاء في كتب اللغة حول الفرق بين العدل والإحسان ما يلي: الإحسان أعلى من العدل؛ لأنّ

(١) عبس، آية ١٥ و ١٦ .

(٢) الإنسان: آية ٥ .

(٣) الانفطار: آية ١٣ .

(٤) المطفّفون: آية ١٨ .

(٥) آل عمران: آية ١٩٨ .

العدل هو أن يأخذ الإنسان ما له، وأن يُعطي ما عليه للآخرين، أمّا الإحسان فهو أن يأخذ الإنسان أقلّ ممّا له على الآخرين، وأن يدفع أكثر ممّا عليه؛ ومن هنا فالإحسان بناءً على هذا التعريف هو أعلى من العدل^(١).

ويُوضّح الراغب الأصفهاني - بعد بيان معنى العدل - الفرق بينه وبين الإحسان، فيقول: «الْعَدَالَةُ وَالْمُعَادَلَةُ: لَفْظٌ يَقْتَضِي مَعْنَى الْمَسَاوَاةِ... وَالْعَدْلُ وَالْعَدْلُ يَتَقَارِبَانِ، لَكِنْ الْعَدْلُ يَسْتَعْمَلُ فِيمَا يُدْرِكُ بِالْبَصِيرَةِ كَالْأَحْكَامِ... وَالْعَدْلُ وَالْعَدِيلُ فِيمَا يُدْرِكُ بِالْحَاسَّةِ، كَالْمُوزُونَاتِ وَالْمَعْدُودَاتِ وَالْمَكِيلَاتِ... فَإِنَّ الْعَدْلَ هُوَ الْمَسَاوَاةُ فِي الْمَكَافَاةِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَالْإِحْسَانُ أَنْ يَقَابِلَ الْخَيْرَ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، وَالشَّرَّ بِأَقْلَ مِنْهُ»^(٢).

وقد استعمل القرآن مفهومَي العدل والإحسان إلى جانب بعضهما البعض، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣).

الإحسان في القرآن

لقد ذُكرت كلمة الإحسان واشتقاقاتها (٦٦) مرّةً في القرآن الكريم، ولبيان منزلة الإحسان في الآيات، فإنّنا سوف نبحثها تحت عناوين:

أ) قيمة الإحسان

من خلال دراسة الآيات الشريفة نُشاهد بأنّ (الإحسان) هو أحد القيم الأخلاقية، فهذه الكلمة جُعِلت في القرآن كصفةٍ لكلّ من الله والأنبياء والمؤمنين؛ أضف إلى ذلك، فإنّ هناك أمراً بالإحسان أيضاً، وسوف نبحت هذه الآيات تحت ثلاثة عناوين:

(١) أنظر: ابن عبد الله، صالح، وابن محمّد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم: ج ٢، ص ٦٧.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٧١٤.

(٣) النحل: آية ٩٠.

١ . الإحسان من الصفات الإلهية

﴿قَدْ جَعَلَهَا رِيَّ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ...﴾^(١).

٢ . صفة الأنبياء والمؤمنين

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٢).

٣ . أمر الله بالإحسان

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾^(٣).

إذا؛ فمع ملاحظة ما تقدّم نجد أنّ الله عزّ وجلّ قد وصف نفسه في الآيات المذكورة بأنّه من أهل الإحسان، وعدّد - مضافاً إلى ذلك - الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين من المتّصّفين بهذه الصفة القيّمة، ثمّ إنّ وصيّ في نهاية المطاف الجميع بالإحسان.

ب) ثمار الإحسان

لقد ربّ الله تعالى في الآيات المتعلقة بالإحسان آثاراً عديدة على هذه الصفة، وهي:

١ . إنّ الله مع المحسنين

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

ويتمتّع هذا التعبير ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بلطافة كبيرة وقيمة عظيمة.

٢ . المحسنون أحباب الله

﴿وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥). إذ تكرر في القرآن الكريم بأنّ الله يُحبّ

(١) يوسف: آية ١٠٠.

(٢) النساء: آية ١٢٥.

(٣) النساء: آية ٨٦.

(٤) العنكبوت: آية ٦٩.

(٥) البقرة: آية ١٩٥.

المحسنين في خمسة مواطن، وقد ذكرنا في الأبحاث السابقة بأن محبة الله لعباده ليست من قبيل محبة إنسان لإنسان آخر، بحيث يُصبح وجوده وكيانه الداخلي تحت تأثير ذلك الإنسان، بل المراد من المحبة مورد البحث هو أن الله عز وجل يجعل علاقته من الناحية العملية مثل علاقة المحب بالمحبيب.

٣. جزاء الإحسان في الدنيا والآخرة

لقد ذكر القرآن الكريم جزاء الله للمحسنين والصالحين (٣١) مرة، ووجود آيات عديدة في هذا المجال يكشف عن أهمية الإحسان، ويُشجع كذلك الإنسان على أن يكون من المحسنين، ففي قوله تعالى: ﴿تَقَرَّبْكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١). فإن زيادة أجر المحسنين الذي وعد الله عز وجل به في هذه الآية مطلق؛ وبالنتيجة سيُشمل كلاً من النعم الدنيوية والأخروية معاً، كما قال تعالى: ﴿فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

وبالالتفات إلى الاهتمام والتقدير الذي منحه القرآن الكريم للإحسان، وبالنظر إلى الجزاء الذي بيّنه له، نستنتج بأن روح النهج الإسلامي هي طلب الخير للجميع؛ وذلك من أجل إيجاد مجتمع إنساني وأخلاقي وقيمي يعيش في ظل خدمة الناس لبعضهم البعض، ولكي يصل الأفراد تحت ظله إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ومن جهة أخرى، مع محاربة الإسلام لصفة الحسد، فإن هذه المحاربة تُهيئ هي الأخرى الأرضية لأن يطلب الناس الخير لإخوتهم في الإنسانية، وإلا فإن الإنسان الحسود هو مريض من الناحية الروحية، وهذا المرض يمنعه من الإحسان إلى الآخرين، كما أنه يُضر نفسه من الناحية النفسية أيضاً.

(١) البقرة: آية ٥٨.

(٢) المائدة: آية ٨٥.

العدل

لقد تطرّقنا في بداية الحديث عن الإحسان والعدل إلى المعنى اللغوي لكلّ منهما، وبيّنا كذلك الفرق بينهما، وأمّا في مقام تعريف العدل من الناحية الكلاميّة (العقائديّة) فهو أن: «العدل يُقابل الظلم، ومعناه إحقاق الحق وإخراج الحق من الباطل، كذلك يُطلق العدل على الأمر المتوسّط بين الإفراط والتفريط، ويُقال للحدّ المتوسّط في مجال القوّة الشهويّة والعقليّة والغضبيّة: عدالة»^(١).

العدالة في القرآن

يتمتع العدل بمنزلة خاصّة في القرآن، فهناك العديد من الآيات التي تتحدّث عن لزوم مراعاة العدالة، وتذكر هذه الوصيّة في القرآن إمّا عبر مادّة العدل أو القسط، ويمكن أن نُصنّف الآيات المتعلّقة بالعدل تحت ثلاثة مواضيع وعناوين، هي:

أ) قيمة العدل

تدلّ بعض الآيات على منزلة العدل في الإسلام وقدره، من قبيل الآيات التي تصف الله بأنّه (قائمٌ بالقسط)، أو تُلقّب نبيّه بلقب العادل، وهنا سنتعرّض لبعض تلك الآيات:

١. الله قائمٌ بالقسط

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(٢).

٢. النبيّ مأمورٌ بإقامة العدالة

(١) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٢، ص ١٢٤٤.

(٢) آل عمران: آية ١٨.

﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾^(١).

٣. الأمر الإلهي العام حول مراعاة العدالة

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾^(٢).

إن تصريح الله في هذه الآية بأنه يأمر بالعدل يُمثل نقطة مهمة جداً، فقد طرح الله اسمه على أنه أمر بالعدل، والنقطة التي تستحق الذكر هي أن الظالم يُطلق على من يظلم بأي صورة وبأي مقدار ولو كان قليلاً، وبالتالي يكون هذا الشخص قد تجاهل هذا الأمر الصريح من قبل الله، وهو ما يُمثل جرماً عظيماً جداً.

ب) الأمر بالعدل في بعض الموارد

١) العدالة في الحكومة

﴿... وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾؛ تشمل هذه الآية العدالة في الحكومة بالتأكيد، وفي الآية الخامسة عشر من سورة الشورى، تم إبلاغ النبي ﷺ بخمس مهام، وكان هذا الأمر هو أحدها.

٢) العدل في الشهادة

من المواطن التي يأمر فيها القرآن بمراعاة العدالة بنحو دقيق، هو حين أداء الشهادة، فيقول تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٣). فقد تم التأكيد في هذه الآية على العدالة في الشهادة بثلاث عبارات مختلفة.

(١) الشورى: آية ١٥.

(٢) النحل: آية ٩٠.

(٣) المائدة: آية ٨.

٣) العدل في القضاء

لقد تمّ التأكيد والوصيّة بشكل استثنائي في الإسلام على ضرورة كون القضاء والحكم عادلين، وكذلك قد تمّ تنبيه المتخلّفين عن هذا النوع من العدالة في الآيات والروايات بجديّة كبيرة واهتمام واضح، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١).

وفي الجملة الأخيرة حيث يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ نوعٌ من التهديد للقضاة الذين لا يحكمون بالعدل.

٤) مراعاة العدالة في حقّ الأيتام والنساء

مع الالتفات إلى ولاية الرجل على اليتيم والمرأة، نجد أنّ القرآن يأمر بالحدّ من سوء استغلال السلطة الممنوحة له، وفي الواقع يُمكن أن يُسمّى هذا الأمر بـ(العدالة الأسريّة)، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَقْتُمْ لَعْنَتِي﴾^(٢).

٥) العدالة في المعاملات

لقد ذُكر في القرآن ثلاثة عشر موطناً يوصي الله تعالى فيها بالعدالة في المعاملة، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(٣).

وبناءً على هذا؛ فمراعاة العدالة أمرٌ أساسيٌّ جدّاً، كما أنّها من أكثر الكلمات التربويّة تأثيراً، وبتحقّق أصل العدالة ستتمّ مراعاة (حقوق الناس)، وسوف يقع الفرد العادل مورداً للطف الله عزّ وجلّ.

(١) النساء: آية ٥٨.

(٢) النساء: آية ٣.

(٣) الرحمن: آية ٩.

٦) العدالة الاجتماعية

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١). فإرسال البينات التي هي معاجز الرسل وكذلك إرسال الكتب السماوية كلها تهدف إلى إقامة العدالة في المجتمع.

٨. التواضع

وقد فُسر التواضع في اللغة بالنحو التالي: «إنَّ التواضع يُعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة»^(٢).

هذا، وأن كلمة التواضع لم تُستعمل في القرآن، ولكن جاء معناها ومفهومها في بعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾^(٣).

فقد ذكر العلامة الطباطبائي في ذيل هذه الآية أن: «الهون على ما ذكره الراغب التذلل، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كنايةً عن عيشتهم بمخالطة الناس ومُعاشرتهم، فهم في أنفسهم متذلّلون لربّهم ومُتواضعون»^(٤).

ويعتقد بعض المحقّقين في مجال الأخلاق الإسلامية: «إنَّ مفهوم التواضع هو أن لا يرى الإنسان لنفسه امتيازاً وعلوّاً بالنسبة للآخرين، ووجود حالة كهذه في الإنسان يؤدّي به إلى أن يُعظّم الآخرين ويحترمهم، وقد جعل التواضع في قبال الكبر والتكبر، ويُبحث هذان العنوانان على أنّهما مانعان من التواضع»^(٥).

(١) الحديد: آية ٢٥.

(٢) العسكري، أبو هلال، معجم الفروق اللغوية، تنظيم بيت الله، بيّات: ص ٢١٥.

(٣) الفرقان: آية ٦٣.

(٤) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٥، ص ٢٣٩.

(٥) ديلمي، أحمد، وأذربايجاني، مسعود، اخلاق اسلامي [= الأخلاق الإسلامية]: ص ١١٤.

بناءً على هذا - ومع الالتفات إلى الآية المذكورة - فالتواضع يُمكن أن يُعدّ أيضاً كأحد المصطلحات الأخلاقية في القرآن.

ومن الجدير بالذكر أنّ القاعدة والأساس التي يركز عليها التواضع هو (انكسار النفس)، بحيث يرى الإنسان - وبدون مقارنة نفسه مع الآخرين - أنّه صغير وأقلّ من غيره، وأنّه ليس راضياً عن نفسه كذلك؛ ومن هنا قيل: «إنّ كسر النفس هو أصل التواضع وأساسه، وبدونه لا يُمكن أن يتحقّق التواضع، وبالتالي فما يُبيّن في باب فضيلة التواضع ومنزلته يدلّ بأجمعه كذلك على فضيلة التواضع وكسر النفس أيضاً، وقد يكون هذا السبب هو الذي جعل التأكيد على التواضع في الروايات والآيات أكثر، ومن ثمّ صار الحديث بنحوٍ أقلّ عن انكسار النفس وعدّ الإنسان نفسه حقيراً»^(١).

الخلاصة

من خلال بحثنا في الفصل الثاني حول عددٍ من المفاهيم تبين لنا أنها تؤثر في حسن علاقة الأفراد ببعضهم البعض، ومن أجل تبين المفاهيم والمصطلحات المتقدمة مع ما يُقابلها من مفاهيم؛ سننقل هنا بعض ما ورد في كتاب الأخلاق في القرآن: في التعبير القرآني مفهوم (البر) أعمّ المفاهيم وهو مفهوم أخلاقيّ صرف، وهو يحمل قيمة إيجابية، وهو يُستعمل في قبال كلمات من قبيل: الفجور والإثم والفحشاء والجرم، وكما أنّ العدل والقسط أيضاً مفهومان مترادفان، وفي مقابلهما تُستعمل كلمات الظلم والطغيان والعدوان، فكذا يُستعمل في قبال التقوى عادةً كلمة الفسق والفجور وأحياناً الظلم، ويُقابل كلمة المتّقين في القرآن كلمة الفجّار، وأحياناً أخرى تُستعمل كلمة الظالمين. وتعود هذه المفاهيم المتفرقة التي تقع في قبال بعضها البعض إلى أنّ هذه الكلمات ليست في قبال بعضها بنحوٍ دقيق جدّاً، والذي استُعمل في مقابل هذه المفاهيم

(١) المصدر السابق: ص ١٠٨.

هو في الحقيقة عبارة عن مصاديق نقيضها، وليس هناك من لفظٍ يقابل تلك المفاهيم بالنحو الدقيق، أو إذا كان موجوداً فهو غير شائع^(١).

المفاهيم السلبية والمضادة للقيم

ذكرنا - من بداية الفصل الثاني وحتى الآن - عدداً من المصطلحات الإيجابية التي تُبين العلاقة الحسنة بين الأفراد، فبحثنا ذلك من وجهة نظر القرآن، وهنا سوف نتعرض إلى المصطلحات التي تُبين من وجهة نظر القرآن العلاقات السلبية بين البشر، والتعاطي غير الصحيح فيما بينهم:

١. النفاق

إنّ النفاق من المفاهيم التي تحمل في القرآن معنى سلبياً؛ ولذا نجد أنّ القرآن تعرّض لمحاربته على نطاقٍ واسعٍ، وسوف نتعرّض في البداية للبحث عن معناه اللغوي والاصطلاحي، فقال الراغب الأصفهاني في تعريف النفاق لغةً: «النَّفَاقُ، وهو الدَّخُولُ في الشَّرْعِ من بابٍ والخروجُ عنه من بابٍ، وعلى ذلك نَبّه بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢). أي: الخارجون من الشَّرْعِ»^(٣).

ومن هنا؛ لا يُطلق على الشخص الذي لم يدخل في الدين الإسلامي وَصْف (منافق)، فالمنافق هو الشخص الذي قَبِلَ بالدين بحسب الظاهر، وتلبّس بلباسه وهو يريد من خلال هذا اللباس أن يضرب الدين، وبالتالي فالمنافق يقبل بالدين من جهةٍ، لكنّه خارجٌ عنه من جهةٍ أخرى (فإضراجه بالدين هو عبارةٌ عن خروجه منه في الواقع).

(١) أنظر: مصباح اليزدي، محمد تقي، الأخلاق في القرآن الكريم: ج ١، ص ٦٢.

(٢) التوبة: آية ٦٧.

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨١١.

أمّا المعنى الاصطلاحي للنفاق، فقد قالوا: إنه «النفاق إظهار الإيمان باللسان وكتّان الكفر بالقلب»^(١).

النفاق ومراتبه في القرآن

كما أنّ للإيمان مراتب فكذلك هناك مراحل للنفاق ودرجات مختلفة ومتنوّعة، وأشدّ أنواع النفاق هو أن يُظهر الإنسان إيمانه بالله والملائكة والكتب والرسل واعتقاده بالآخرة، في حين أنّه يعتقد بخلاف ذلك في الباطن، وهذا النوع من النفاق كان منتشرًا في زمان صدر الإسلام، والمرتبة الضعيفة من النفاق، هو النفاق في العمل، وهو أن يقوم الإنسان بعملٍ ما في العلن، في حين أنّه لا يعتقد بصوابه، وبالتالي فالنفاق كالإيمان أيضاً: له مراتب وشدّة وضعفٌ، بحيث إنّنا نجد في آيات القرآن العديد ممّن عدّهم القرآن منافقين، وكان هؤلاء وأمثالهم يعيشون في المحيط الإسلامي، وهم كثيرون، من قبيل الأشخاص الذين تخلفوا عن الجهاد، أو الذين كان تعلّقهم بالدنيا مانعاً لهم من أن يؤدّوا تكاليفهم، أو الأشخاص الذين كانوا يصلّون وهم كُسالى، أو أولئك الذين كانوا يُنفقون المال وهم كارهون، فكلّ أولئك الأشخاص سمّاهم القرآن منافقين، وهنا سوف نتعرّض إلى بعض الآيات المتعلقة بالنفاق:

أ) النفاق في الأصول الاعتقاديّة

كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(٣). فإنّ هاتين الآيتين تدلان على وجود المنافقين في

(١) ابن عبد الله، صالح، وابن محمّد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم: ج ١١، ص ٥٦٠.

(٢) البقرة: آية ٨.

(٣) المنافقون: آية ١.

العقيدة في زمن حياة النبي ﷺ.

(ب) النفاق في العمل

ذُكرت في سورة التوبة مجموعة من الآيات التي تُشير إلى الدعايات المعادية من قبل المنافقين بين المجاهدين المسلمين، وتتعرض لمحاولتهم إضعاف عزيمة المجاهدين، ثم تستمر وتقول: هؤلاء الأشخاص يقومون بأعمال النفاق، ومن صفتهم أنهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾^(١).

خصائص المنافقين في القرآن

نزلت جملة من الآيات القرآنية في المنافقين، فقد كانوا يحاولون ويبدلون جهوداً مختلفة من أجل أن يُخفّق المسلمون، وقد أفشى القرآن العديد من هذه المحاولات، بحيث كان المنافقين وجِلون دائماً من أن يُفشي خططهم أكثر وأكثر، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِمَا تَحْذَرُونَ﴾^(٢).

وبناءً على هذا؛ فإنّ المنافقين - وكما أُشير سابقاً - كانت لديهم مساعٍ معينة بلحاظ الظروف الخاصة في زمن تكوّن الإسلام ونزول الوحي، ولكن هناك العديد من المصاديق في زماننا هذا للعديد من تلك العلامات التي نُقلت عنهم في القرآن، وهنا سنقتصر على ذكر قائمة مما بيّنته الآيات القرآنية من تلك العلامات:

١. إنهم مُفسدون

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣).

(١) التوبة: آية ٥٤.

(٢) التوبة: آية ٦٤.

(٣) البقرة: آية ١٢.

٢. إنهم يعتقدون بسفاهة المؤمنين

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾^(١).

٣. إنهم يتعاونون سراً مع العدو

﴿وَإِذَا حَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾^(٢).

٤. إنهم عمي البصيرة

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٣).

٥. إنهم بخلاء

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ...﴾^(٤).

وقد يعود بخلهم إلى عدم إيمانهم؛ لأنهم ليس لديهم أي دافع للإنفاق في سبيل الله.

٦. إنهم لدودون في الخصام

﴿وَيُسْهِدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٥).

هذا، وقد ذكر في القرآن للمنافقين عددٌ من الصفات الأخرى، مثل: مرض القلب، والكذب، والفسق، والغضب، والغرور، والتمرد، والضلال، والرياء، والذلة، والتزلزل، ولكننا سنعرض عن ذكر هذه الصفات حذراً من الإطالة. ومن الجدير بالذكر أن القرآن ذكر ثمانية عشر شكلاً وصورةً لبروز النفاق - الذي في باطن المنافقين - وظهوره، وهذه الصور من قبيل: السعي خلف الفتن، والاستهزاء،

(١) البقرة: آية ١٣.

(٢) البقرة: آية ١٤.

(٣) البقرة: آية ١٨.

(٤) التوبة: آية ٦٧.

(٥) البقرة: آية ٢٠٤.

والمخالفة لجماعة الناس، والتخلف عن الجهاد والخذاع؛ إذاً فالنفاق هو أحد الرذائل الأخلاقية، ومنشأ هذه الرذيلة هو ضعف الإيمان وضعف الشخصية، وفي حال لم يُطهَّر الإنسان قلبه من هذا المرض، فسوف يكون له عواقب خطيرة جداً من الناحية الدينية والدينيّة والأخرويّة، وقد توعّد الله المنافقين في القرآن بأسوأ دركات النار.

٢. الحسد

الحسد هو أحد الأمراض الروحيّة، والذي يتعارض ويتضادّ مع الحرّيّة المعنويّة للإنسان، ويُطلَق الحسد في معاجم اللغة على تمّني زوال النعمة عن شخصٍ آخر^(١)، فإنّ (الحسد) حالةٌ نفسيّةٌ يتمنّى صاحبها سلب الكمال والنعمة التي يتصوّرهما عند الآخرين، سواءً أكان يملكها أم لا، وسواءً أرادها لنفسه أم لم يُردها، وهو يختلف عن (الغبطة)^(٢). والإنسان الحسود بدلاً من أن يتعلّم كيف يُخلّص نفسه أو غيره من هذا الأسر وهذه المعضلة، فإنّه يسعى إلى تحطيم الآخرين، كما يسعى أيضاً إلى هلاك نفسه من الناحية الماديّة والمعنويّة، فيقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

وقد تمّ التشديد على تقبيح الحسد في آيات القرآن وفي الأحاديث أيضاً، فقد جاء في رواية: «قال زكريّا عليه السلام: قال الله تعالى: الحاسد عدوّ لنعمتي، مُتَسَخِّطٌ لقضائي، غير راضٍ لقسمتي التي قَسَمْتُ بين عبادي»^(٤). ويدلّ الحديث أعلاه على شدة البلاء الذي يتعرّض له الحاسد في داخله، فهو

(١) أنظر: النراقي، المّلا أحمد، خلاصة معراج السعادة [المقامات العليّات في موجبات السعادة الأبديّة]، تلخيص: الشيخ عبّاس القمّي: ص ٩٢.

(٢) أنظر: المصدر السابق، ص ٣٤٧. وأيضاً: الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً: ص ١٢٩.

(٣) النساء: آية ٥٤.

(٤) الفيض الكاشاني، المّلا محسن، المحجّة البيضاء، ج ٥، ص ٣٢٦.

من جهة يُعادي الله بآئه: لماذا يا الله أنعمت بنعمتك على هذا العبد؟! ومن جهة أخرى هو غاضبٌ على قضاء الله وتقديره هذا، فإنَّ الإنسان المبتلى بمرض الحسد، يُمكن أن لا يُبرز حسده للآخرين، ولكن هذه الحالة مرتبطةٌ بروحه بشكلٍ وثيقٍ، بحيث يكون بعيداً كلَّ البُعد عن الحرّية المعنوية والتعالى الروحي؛ ومن هنا يُوصي علماء الأخلاق الحاسد إذا أراد أن يُصلح نفسه، أن يدخل إليها من سبيل العلم والعمل، والسبيل العلمي يكون من خلال تعليم نفسه ولفت نظرها بأنَّ الحسد لا يُضّرّ إلا نفس الحاسد، وضرره يُصيب روحه وإيمانه، ولن يضرّ الحسد المحسود أبداً، هذا أولاً، وثانياً: من خلال العمل بعكس الحسد، يعني: أن يسعى لأن يقوم بالخير للشخص الذي يحسده.

والنقطة المهمة جداً في (الأخلاق الفردية) هي أنه من أجل تحصيل نتيجة جيّدة ولتكمال النفس لا بدّ من التلقين والتمرين والمعرفة بهذه العقيدة، وهي أنّنا لا نمتلك شيئاً من أنفسنا، بحيث نرى أنّنا أفضل من الآخرين بسبب هذا الشيء ونحتقرهم لأجل ذلك، وكلّ ما هو موجودٌ لدينا، فما هو إلا من عناية الله ولطفه تجاهنا، والإنسان الذي يستطيع أن ينزع جذور (حبّ النفس) في مقام إصلاحها، أو أن يقتلع ما يُعبّر عنه الأعظم بـ (الأنانية)، لن يُعاني بعدها من مرض الحسد أو العُجب أو التكبّر أو البُخل أو باقي الرذائل الأخلاقية، ورغم أنّ الشيطان خَطِرٌ وهو في حالة من الترصّد الدائم من أجل حَرْفنا عن الحقّ، ورغم كلّ ما لديه من خُطط وحيل ومساعي، نجد أنّ القرآن الكريم يصف كيده بآئه ضعيفٌ، قال تعالى: ﴿فَقَنَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(١).

وأما الأمر الذي له أثرٌ مهمٌّ في ضلال الإنسان، فهو مسألة حبّ النفس، فهذا هو الفخّ الذي سقط فيه حتّى الشيطان نفسه.

٣. سوء الظن بالآخرين

إنَّ سوء الظنَّ هو أحد الصفات والحالات المذمومة في علاقات الأفراد فيما بينهم، ورغم أننا بحثنا في الفصل الأول عن (سوء الظن بالله)، إلا أننا سنتعرَّض هنا إلى (سوء الظن بالله) بنظرةٍ مختلفةٍ، وبما أنَّ معنى (سوء الظن) قد مرَّ معنا في محله سابقاً؛ لذا فلن نتعرَّض لبيانه هنا.

وفي البداية لا بدَّ من ذكر هذه النقطة، وهي أنَّ (إساءة الظن) في أنفسنا بحدودٍ معيّنة، بحيث يكون عاملاً من عوامل التكامل والرقى المعنوي والأخلاقي، هو أمرٌ حسنٌ، ولكن الأمر المذموم وغير المقبول، هو سوء الظن بالآخرين الذي يؤدي إلى النظرة السلبية تجاه الأشخاص، ممَّا يؤدي إلى اختلال أمور الحياة؛ ولذا يقول تعالى حول هذا الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(١).

والمراد من الظن الذي ورد في الآية، هو سوء الظن بالآخرين، كما أنَّ المراد من الأمر بالابتعاد عن سوء الظن، ليس سوء الظن من الأساس؛ لأنَّه أمرٌ غير اختياريٍّ، وسواءً شئنا أم أبينا يخطر في بالنا بعض الظنون حول الأفراد، وإنَّما الشيء الذي ينبغي أن نبتعد عنه بحسب ما تأمرنا به الآية هو عدم القبول بسوء الظن وعدم العمل طبقاً له؛ ومن هنا فلا ينبغي لنا أن نقبل بالظن الذي يخطر في أذهاننا بسبب بعض ما نراه أو نسمعه من الأمور غير الجيدة عن أحد الأشخاص، كما لا ينبغي أن يُغيَّر علاقتنا به أبداً.

إنَّ أحد الجمل التي تستحق التأمل، هي الآية أعلاه: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾، وقد جاء في تفسير هذه الجملة من الآية احتمالان: «المراد بكثير من الظن - وقد جيء به [أي بكلمة كثير] نكرةً؛ ليدلَّ على كثرته في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظن -

(١) الحجرات: آية ١٢.

هو بعض الظن الذي هو إثم، فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظن، ولو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك، كأن يراد ما يُعلم أن فيه إثماً وما لا يعلم منه ذلك، كان الأمر بالاجتناب عنه أمراً احتياطياً توقياً من الوقوع في الإثم، [كما لو قلنا: اجتنب المال الذي لا تعرف أنه حلال، سواءً أكان مما تعرفه حراماً أم مما لا تعرف أنه حلال أو حرام، لكي تتيقن أنك اجتنبت المال الحرام].^(١)

٤. الغيبة

مفهوم الغيبة

إن أحد المفاهيم المذمومة جداً من الناحية الأخلاقية في القرآن، والتي تحكي عن علاقة سلبية مع الآخرين، هو مفهوم (الغيبة)، وقد نهى القرآن عن الغيبة نهياً شديداً، هذا وقد جاء في التعريف اللغوي للغيبة ما يلي: «الْغَيْبَةُ: أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيبٍ من غير أن [يُحَوِّجَ] ^(٢) إلى ذكره»^(٣).

وللغيبة في الاصطلاح الفقهي والعرفاني معنى خاص، وهو يحكي عن مرتبة هذه الصفة الأخلاقية المذمومة جداً في هذين المجالين، فذكروا أن: «في الفقه هو عبارة عن ذكر شخص في غيبته بأمرٍ لا يُحِبُّ أن تُذكر، وهذا الأمر حرامٌ شرعاً، وتُسمَّى الغيبة بهذا الاسم في حال ذكر الأوصاف الموجودة في الشخص من العيوب والنقائص، وأما ذكر النقائص الخلقية والأخلاقية وهي غير موجودة فيه فيُسمَّى (بُهتان)، وهذا العمل حرامٌ بالاستناد إلى كلٍّ من آيات القرآن وأخبار آل محمد ﷺ»^(٤).

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٨، ص ٣٢٣.

(٢) [الموجود في الأصل: (أحوج)، وما ذكرناه هو الأنسب للسياق] (م).

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦١٧.

(٤) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]، ج ٢، ص ١٣١٨.

نظرة القرآن إلى الغيبة

في القرآن لا توجد إلا آية قرآنية واحدة تتحدث عن الغيبة، ولكن نفس هذه الآية صريحة جداً، فقد تعرضت لتحذير المغتابين وتوبيخهم، فيقول تعالى: ﴿... وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَانْظُرُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾^(١). فقد جاء في بداية الآية نهْي صريح، وهو يدل على الحرمة القطعية للغيبة، وبعد بيان الحكم الشرعي والفقه للغيبة، يستعمل القرآن تشبيهاً لحالة الاغتياب، وهذا التشبيه مضافاً إلى تأكيد الحرمة يؤدي إلى النفور من الغيبة، وقد ورد في تفسير كنز الدقائق حول التمثيل الوارد في الآية مجموعة من النقاط المهمة تتعلق بالشخص المغتاب، مثل:

- دلالة الاستفهام التقريري في الآية على المبالغة.
 - إسناد الفعل (يُحِبُّ) إلى (أحد) فيه دلالة على التعميم.
 - تعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة.
 - تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان.
 - وجعل المأكول أخاً وميتاً.
- و[أخيراً] تعقيب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: تقريراً وتحقيقاً لذلك. والمعنى: إن صحّت النفرة أو عُرض عليكم هذا فقد كرهتموه، ولا يُمكنكم إنكار كراهته^(٢). ومع الالتفات إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي للغيبة والآية المبحوثة، يتضح بأن (الغيبة) هي أحد المفاهيم الأخلاقية السلبية فيما يتعلق بالعلاقات بين الأفراد. وقد نهت الروايات أيضاً عن التكلم بالسوء واغتياب الآخرين بشدة، كما كان

(١) الحجرات: آية ١٢.

(٢) أنظر: القمّي المشهدي، محمد، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب: ج ١٢، ص ٣٤٤.

أعظم العرفاء والأخلاق يتوجسون منها خيفةً شديدة، بحيث قيل: إنّه حينما كان أحد الطلاب يعتاب شخصاً أمام السيّد الخميني رحمته الله، فإن السيّد كان ينزعج انزعاجاً شديداً إلى درجة أنّه كان يُعطّل الدرس لمدة يومين.

٥. البخل

إنّ البخل من المفاهيم السلبية وهو يُبيّن علاقة ماليّة خاطئة بين الأفراد، وكما أنّ القرآن مدح الإنفاق والجود والكرم مدحاً كبيراً، فبنفس هذا المقدار ذمّ البخل.

مفهوم البخل

لقد كتب دهخدا في تعريف البخل ما يلي: «البخل هو المنع والإمساك وهو ضدّ الكرم، فالبخل المنع من مال نفسه، أمّا الشحّ فهو المنع من مال الآخرين»^(١). وقد تمّ التعرّض في الأخلاق والعرفان إلى البخل على أنّه صفةٌ وحالةٌ سلبيةٌ، وقد جاء في تعريفها بقولهم: «أخذَ البخل في اصطلاح علم الأخلاق وكذا العرفان العملي على أنّه أحد الأخلاق المنكرة، أي: على أنّه أحد الرذائل، ومعناه التضييق في المال وترك الإيثار، أي: إنّه بُحث في باب التضييق في المال والروح، والبخل هو أحد رذيلتين تقعان في قبال فضيلة السخاء، فالعدول والانحراف عن السخاء باتجاه الإفراط إسرافٌ، وباتجاه التفريط بخلٌ»^(٢).

فالمراد بالبخل الإمساك عمّا يجب بذله، وهو من الصفات الخبيثة، ونتيجة حبّ الدنيا^(٣).

(١) دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس]: ج ٣، ص ٤٤٢٢.

(٢) مجموعة مؤلّفين، دائرة المعارف تشييع [= دائرة معارف التشيع]، ج ٣، ص ١٢٧.

(٣) أنظر: النراقي، الملا أحمد، خلاصة معراج السعادة [المقامات العليّات في موجبات السعادة الأبدية]، تلخيص: الشيخ عبّاس القمي، ص ٨٠.

البخل في القرآن

كما امتدح القرآن الكريم الصالحات والقيم الأخلاقية، فقد ذم السيئات والقبائح الأخلاقية أيضاً، وقد جرى الحديث عن البخل في آيات القرآن ست عشرة مرة، والنقطة اللافتة للنظر في هذه الآيات هي آثار البخل السيئة في الدنيا والآخرة، وسوف نعرض هنا ثلاثة آثار سيئة للبخل وذلك بالاستفادة من الآيات الكريمة:

١. الحرمان من محبة الله

يُبين الله عز وجل في آيتين من آيات القرآن بيانين متشابهين جداً: بأنه لا يحب الإنسان البخيل، وكما هو معلوم فإن الحرمان من محبة الله والبعد عن لطفه عز وجل يُعدّ خسارةً وخطراً كبيرين بالنسبة للإنسان، ونحن بدورنا سنكتفي بإيراد آية واحدةٍ منهما، فيقول تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝﴾^(١).

٢. البخل، بخل على النفس

إنّ الأشخاص الذين يتجاهلون الأوامر الأخلاقية للقرآن فيما يتعلق بالجود والسخاء والإنفاق ويبخلون واقعاً، ستقع عليهم الآثار والتبعات الاجتماعية السيئة لهذا البخل، لذا قال تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ۚ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ...﴾^(٢).

(١) النساء: آية ٣٦-٣٧.

(٢) محمد: آية ٣٨.

وقد جاء في تفسير الآية ما يلي: «لأنّ ثمرة الإنفاق تعود عليكم أنفسكم في الدنيا والآخرة، حيث يقلّ التفاوت الطبقي، وعندها سيعمّ الأمن والهدوء في المجتمع، وتحلّ المحبة والصفاء محلّ العداوة والحقد، هذا ثوابكم الدنيوي، وأمّا في الآخرة فسُتْمَنَحون مقابل كلّ درهمٍ أو دينارٍ تنفقونه الهبات والنعم العظيمة التي لم تخطر على قلب بشرٍ، وعلى هذا فإنّ مَنْ يبخل يبخل عن نفسه!»^(١).

ومن هنا، فالإنفاق على فقراء المجتمع أو من أجل دعم المجاهدين في ميادين القتال مع الأعداء، له آثار معنويّة واجتماعيّة وأمنيّة وأخرويّة أيضاً، وهي تعود بالنفع على نفس المُنفِق قبل الجميع، ومن البديهي لو أنّ شخصاً بخل وأمسك عن الإنفاق ولم يكن سخياً، فإنّه سيكون أوّل المتضرّرين؛ لأنّه هو أيضاً سيكون محروماً من جميع الآثار والثمار المعنويّة والاجتماعيّة والأمنيّة المترتبة على الإنفاق.

٣. البخل يكون مغلولاً يوم القيامة

إنّ الآيات التي تُبيّن تجسّم الأعمال يوم القيامة، تُبيّن بأنّ البخل كذلك يتجسّم كالطوق والغل على رقبة البخل في يوم القيامة، فالبخل في الواقع يغلّ يد الإنسان البخل في الدنيا، وهذا الأمر له تجسّم وتمثّل عينيّ في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٢).

ويذكر محمّد رشيد رضا في تفسير هذه الآية احتمالين، فيقول: أمّا معنى التطويق، فقد يكون من الطاقة فيكون بمعنى التكليف، أي: سيُكلّفون ذلك في الآخرة، فلا يجدون إليه سبيلاً... وقد يكون من الطوق، أي: سيُجعل ما بخلوا به

(١) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٦، ص ٤٠١.

(٢) آل عمران: آية ١٨٠.

طوقاً في أعناقهم يوبقون بما يلزمهم من الجزاء عليه، فلا يجدون عنه مصراً^(١).
والنقطة التي تستحق التأمل هنا، هي أنّ البخل يتعب في حفظ أموال ديناه،
فهو لا يرتاح حتى في الدنيا، ولا يحظى بالسكينة، ولا تتمتع روحه بالحرية
الأخلاقية والمعنوية، فيقول الإمام الصادق عليه السلام حول ذلك: قال رسول الله ﷺ:
«أقل الناس راحةً البخل، وأبخل الناس من بخل بما افترض الله عليه»^(٢).

الفلاح في السخاء

يرى القرآن أنّ الابتعاد عن البخل هو طريق للسعادة والراحة، وهو يُبين ذلك في
سورتي الحشر والتغابن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).
فعلى الرغم من أنّ كلمة (شَح) قد تأتي في التفسير بمعنى (البخل)، ولكنها تستعمل في
اللغة بمعنى البخل فيما يتعلق بالآخرين، بمعنى أنّه لا يبخل بماله فقط، بل يبخل حتى
بإنفاق أموال الآخرين ويتزعج من ذلك، وعلى الرغم من أنّ (يوقى) التي في الآية السابقة
جاءت بصيغة فعل مبني للمجهول، إلّا أنّه من الواضح أنّ الفاعل هو الله سبحانه ويعني:
«إنّ كلّ شخص حفظه الله سبحانه من هذه الصفة الذميمة فإنّه سيفلح»^(٤).

وبالالتفات إلى آيات القرآن - والتي قد أشرنا إلى البعض منها - نجد أنّ البخل
من الصفات المذمومة والقيحة، وأنّ له عدداً من الآثار السلبية، وأنّ السبيل
الوحيد لأن يبقى الإنسان مصوناً من عواقبه هو أن يعمل على إصلاح نفسه في هذا
المجال عن طريق التفكير في الآثار الدنيوية والأخروية للبخل من جهة، وعن طريق

(١) أنظر: رشيد رضا، محمد، تفسير المنار: ج ٤، ص ٢٥٩.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٣٠٠.

(٣) الحشر: آية ٩. وأيضاً: التغابن: آية ١٦.

(٤) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٨، ص ١٩٢.

التمرين العملي على الإنفاق من جهةٍ أخرى، وبما أنّ الإنسان يسعى بشكلٍ غريزيّ نحو المنفعة؛ لذا فإنّ الإنفاق يُخالف الطبع الأوّلي للإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر في آيتين، وهما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾^(١)، وقوله أيضاً: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ...﴾^(٢).

وعلى الرغم من أنّ الإنسان يطلب النفع - والذي يُمثّل وسيلة لاستمرار حياته وكذلك لامتحانات الإلهيّة - إلّا أنّ القرآن عمل على تشجيع الإنسان على الإنفاق من خلال تخويفه من البخل وآثاره وعواقبه، ومن خلال بيانه للثمار المترتبة على الإنفاق والسخاء الذي يُؤدّي إلى السعادة ودخول الجنّة.

إنّ الصفات الناشئة من الغرائز كالسعي وراء المصالح تكون قويّة في فترة الطفولة؛ ومن هنا على الإنسان في مرحلة البلوغ أن يعمل على تكامله وتعديل هذه الصفات التي لازمته من مرحلة الطفولة عبر الاستعانة بالعقل والتعاليم الدينيّة، فكثيرون هم الأشخاص الراشدون الذين لديهم الصفات الأخلاقيّة من قبيل الحرص والبخل منذ أن كانوا أطفالاً، ولم يتخلّصوا منها؛ ولم يتعاضموا عنها.

٦. الكذب

يُمثّل (الكذب) أحد المفاهيم التي تُشير إلى عدم سلامة علاقة الأفراد فيما بينهم، وهناك العديد من الآيات في القرآن الكريم التي سلّطت الضوء على هذا المرض الأخلاقي، وبيّنت كيفية علاجه.

مفهوم الكذب

لقد عرّف الكذب في كتب اللغة بالنحو التالي: «الكذبُ هو قول ما يُخالف

(١) الإسراء: آية ١٠٠.

(٢) النساء: آية ١٢٨.

الواقع، والكذب هو نقل كلام عن شخص لم يقله^(١). و«الكاذب: ضدّ الصادق»^(٢).
وأما في الاصطلاح الأخلاقي، فللكذب معنى خاص، وقد جاء في بعض
المصادر ما يلي: «قال ابن حجر: الكذب: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه
سواء كان عمداً أم خطأ»^(٣). وذكروا أيضاً: «أنّ الكذب هو أحد الصفات الأخلاقية
الذميمة، وخاصة الكذب على الله ورسوله، الذي هو في حدّ الكفر»^(٤).

معاني الكذب في القرآن

لم يُستعمل (الكذب) في جميع المواطن التي ورد فيها في القرآن بالمعنى اللغوي
للكذب، بل أريد منه معانٍ أخرى أيضاً من قبيل:

١. النفاق

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(٥).

٢. الإنكار

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٦)، (أي: ما أنكر).

وهذا الآية تصف النبي ﷺ بأنه لن يُنكر أبداً ما رآه وتلقاه حينما رأى وتلقّى.

٣. خُلف الوعد

﴿لَيْسَ لَوْعَنَهَا كَاذِبَةٌ﴾^(٧)، (أي: نفي الخُلف)، فالله لن يُخلف الوعد الذي وعده

(١) الشعراي، أبو الحسن، نثر طوبى يا دائرة المعارف لغت قرآن مجيد [= نثر طوبى أو دائرة معارف
كلمات القرآن المجيد]: ج ٢، ص ٣٣١.

(٢) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامى [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٣، ص ١٥٦٩.

(٣) ابن عبد الله، صالح، وابن محمد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم: ج ١١، ص ٥٣٨٢.

(٤) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامى [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٣، ص ١٥٦٩.

(٥) البقرة: آية ١٠.

(٦) النجم: آية ١١.

(٧) الواقعة: آية ٢.

بوقوع يوم القيامة.

٤. الكذب بمعناه اللغوي

أريد في العديد من الآيات الكريمة التي ذكرت الكذب نفس اللغوي لهذه الصفة الأخلاقية، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾^(١).

النظرة القرآنية تجاه الكذب

يُمكن وضع الآيات المتعلقة بالكذب تحت عنوانين، بحيث يشتمل كل واحدٍ منهما على مواعظ معينة، ويبيّن عواقب مختلفة لهذه الرذيلة الأخلاقية.

أ) قبح الكذب وذمه في القرآن

١. تنافي الكذب مع الإيمان

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٢).
وقد جاء في شرح هذه الآية الشريفة ما يلي: «إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن بالله؛ لأن الإيمان يمنع من الكذب»^(٣).

٢. الكاذب عليه كذبه

﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾^(٤). فمضافاً إلى كون الكذب من الكبائر، نجد أنه يُشكّل ضربةً للشخصية الاجتماعية للإنسان أيضاً، فهو يُسقطه عن الاعتبار؛ ومن هنا فالشخص الكاذب يُسبّب لنفسه أضراراً كبيرة جداً.

(١) الأنعام: آية ٣٤.

(٢) النحل: آية ١٠٥.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع: ج ٢، ص ٣٠٨.

(٤) غافر: آية ٢٨.

٣. حرمة الكذب

إنَّ الكذب هو أحد الكبائر وحُرْمته من المسلّمات، وقد أمر القرآن باجتنابه، كما نفى هذه الصفة عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَجَّئُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(١). وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾^(٢). فكلمة (الزور) التي ذُكرت في هذه الآية جاءت بمعنى الكذب وعدم الصدق والخداع والخطأ والكلام الباطل^(٣).

٤. تنافي الكذب مع الهداية

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^(٤). إذ إنَّ معصية الكذب تُظلم القلب إلى درجةٍ يذهب معها صفاء القلب، بحيث لا يستطيع الكاذب أن يهتدي بنور الهداية.

ب) أضرار الكذب وجزاؤه

يُمكننا أن نستنتج من الآيات المتعلّقة بالكذب ستّة أنواع من الأضرار والجزاءات المترتبة على الكذب، وهي كالتالي:

١. عدم الفلاح

أكبر خسارة يُمكن أن تُتصوّر للإنسان، هي خسارة السعادة الأخرويّة وعدم الفلاح، وقد بيّن القرآن في موطنين بأنَّ مَنْ يفترى على الله لن يكون من أهل الفلاح، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^(٥).

(١) الحج: آية ٣٠.

(٢) الفرقان: آية ٧٢.

(٣) أنظر: دهخدا، علي أكبر، لغتنامه [= قاموس]: ج ٩، ص ١٣٠٠٩.

(٤) الزمر: آية ٣.

(٥) النحل: آية ١١٦.

٢. العذاب الأليم

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(١).

٣. اللعنة من قبل الله

﴿...ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٢). فالملعون هو الشخص

البعيد عن رحمة الله وعنايته، ومن البديهي أن الشخص الكاذب لن يكون مشمولاً بلطف الله ورحمته، وإلا لكان قد وفق للعمل على تكامل نفسه، فالإنسان قد يُزيل بالتدريج - من خلال المعاصي - الأرضية اللازمة لهديته.

٤. الابتلاء بالنفاق

﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا

يَكْذِبُونَ﴾^(٣).

٥. الدعاء على الكاذب من قبل الله

﴿قُلِ الْخَرَصُونَ﴾^(٤).

يقول العلامة الطباطبائي في توضيح معنى كلمة (الخرص) ما نصه: «أصل الخرص القول بالظنّ والتخمين من غير علم، ولكون القول بغير علم في خطرٍ من الكذب يُسمّى الكذاب خراصاً، والأشبه أن يكون المراد بالخرّاصين في الآية القوّالين من غير علمٍ ودليل، وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم. وفي قوله: ﴿قُلِ الْخَرَصُونَ﴾ دعاءٌ عليهم بالقتل وهو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح»^(٥).

(١) البقرة: آية ١٠.

(٢) آل عمران: آية ٦١.

(٣) التوبة: آية ٧٧.

(٤) الذاريات: آية ١٠.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٨، ص ٣٦٧.

٦. الابتلاء بغضب الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وبناءً على ما تقدّم؛ فالكذب من وجهة نظر القرآن عبارة عن كبيرة من الكبائر، وقد استُخدم مضافاً إلى معناها اللغوي بمعنى النفاق والإنكار وخلف الوعد أيضاً، والكذب لا ينسجم مع الإيمان، كما أنّ الحرمة لا تقتصر على قول الكذب، بل على سماعه أيضاً، يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿سَمِعُوكَ لِكُذِبٍ أَكَلُونَ لِلْسُّخْتِ...﴾^(٢).

وتدّم الآيتان (٤١-٤٢) الواردتان في سورة المائدة سماع الكذب؛ ففي الآية الأولى يعدّ الله عزّ وجلّ ذلك من صفات اليهود، وأمّا في الآية الثانية فيجعله مع أكل الرشوة جنبا إلى جنب.

٧. الكِبَر

(الكِبَر) هو أحد المصطلحات الأخلاقية السلبية التي تُبين العلاقات غير الأخلاقية بين الأفراد، والكِبَر في اللغة عبارة عن أن يرى الإنسان نفسه أكبر من الآخرين، وأن ينظر باستحقارٍ إلى الآخرين^(٣). وقد فسّروا الكِبَر في اصطلاح العرفان والأخلاق بالنحو التالي: الكِبَر، اعتبار الإنسان نفسه أكبر وأفضل من الآخرين، كما أنّ التواضع هو اعتبار الإنسان نفسه أقلّ من الآخرين، والكِبَر ينشأ من جهل الإنسان بنفسه وهو أحد مهلكات الإنسان، ولكن [في بعض الأحيان يكون] التكبر في قبال المتكبر عبادة؛ إذًا فالكِبَر ممدوحٌ تارةً ومذمومٌ أخرى، ولكل

(١) المجادلة: آية ١٤.

(٢) المائدة: آية ٤٢.

(٣) أنظر: الشعراي، أبو الحسن، نشر طوبى يا دائرة المعارف لغت قرآن مجید [= نشر طوبى أو دائرة معارف كلمات القرآن المجید]: ج ٢، ص ٣٢٦.

منهما مقامٌ وموقفٌ خاص^(١).

تقييم القرآن للكِبَر

(الكِبَر) في آيات القرآن يُمثّل إحدى الرذائل والقبائح الأخلاقية التي تُهي عنها، وقد ذمّ القرآن هذه الصفة الأخلاقية السيئة حوالي (٤٧) مرّة، وذلك في مناسباتٍ مختلفة، كما ذكر بأنّها آثاراً وتبعاتٍ عديدةٍ تترتب عليها، وفيما يلي بعض الآثار السيئة المترتبة على الكِبَر:

أ) الإعراض عن الطاعة

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢).

ب) الإدبار عن الحقّ

الأثر الآخر الذي ينشأ من الكِبَر هو التنكّر للحقّ وتجاهله، فيقول تعالى: ﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِ ءَايُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾^(٣).

ج) عذاب الآخرة

﴿...وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا... ﴾^(٤).

د) الإخراج من الجنة باحتقار

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾^(٥). فمضافاً إلى كون الكِبَر من صفات الرذيلة، ومضافاً إلى كونه يُقلّل من قيمة الإنسان وامتيازه، فهناك أثرٌ

(١) أنظر: سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٣،

ص ١٥٦٣.

(٢) ص: آية ٧٣-٧٤.

(٣) لقمان: آية ٧.

(٤) النساء: آية ١٧٣.

(٥) الأعراف: آية ١٣.

سبَّيُّ للكِبَر كذلك على نفس الإنسان، إذ يمنع الإنسان من تقبُّل الحق من الآخرين، ومن وجهة نظر القرآن يُعتبر الكِبَر أحد أسس الكفر، ولذا يقول المحقِّق الياباني (توشيهيكو ايزوتسو) حول هذا الأمر: «إنَّ أحد العناصر الأخرى المهمَّة في بناء معنى مفهوم الكفر هو (الكِبَر)، ولا بدَّ أن نذكر بأنَّه من وجهة نظر القرآن الكِبَر والغرور الذاتيان للذهن، وهو ليس العلامة الوحيدة من العلامات المختلفة للكفر، بل تمَّ التأكيد في القرآن المجيد على دور هذا العنصر في بنية الكفر تأكيداً كبيراً، بحيث إنَّه قد يظنَّ الإنسان في كثير من المواطن بأنَّ علامة الكفار وخصوصيتهم تنحصر بهذا العنصر، فالشخص الكافر باللاحظ الديني متفرعن ومتكبر؛ وحتى أنَّ التأمل السريع في القرآن يجعل كلَّ شخص يعتقد بأنَّ هذا الكتاب المقدَّس لا ينظر إلى الكفر إلَّا من خلال هذه الظاهرة، ففي القرآن المتكبر والمغرور الوقح، هو المُشجَّع على جميع الخصال السلبية»^(١).

وقد أكَّد القرآن على العذاب الشديد للمتكبرين، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا...﴾^(٢).

الألفاظ المقاربة في المعنى والمشابهة للكِبَر

لقد استعمل القرآن الكريم العديد من الكلمات المرادفة أو القريبة في المعنى من الكِبَر، وسوف نتعرَّض هنا إلى بعض هذه الكلمات القرآنية:

١. التكبر

إنَّ كلمة (التكبر) هي إحدى الكلمات التي من نفس فصيلة الكِبَر، وتدلُّ هذه

(١) توشيهيكو ايزوتسو، مفاهيم اخلاقي - ديني در قرآن مجيد [= المفاهيم الأخلاقية والدينية في

القرآن المجيد]: ص ٢٨٥.

(٢) النساء: آية ١٧٣.

الكلمة - خصوصاً إذا كانت بصيغة اسم الفاعل؛ أي: (متكبر) - على الغرور والتكبر بعنوانها صفة ذاتية للكفار، ولا تمثل حالة من الطغيان الآني لشعور ما، قال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ الْإِنِّ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(١).

والفرق بين الكبر والتكبر هو أن الإنسان طالما يرى في داخل نفسه بأنه أعلى من الآخرين، فإن هذه الحالة تُسمى كبر، ولكن حينما تبرز هذه الحالة وتظهر في الخارج فإنها تُسمى حينئذٍ تكبر، فمثلاً: حينما لا يُسلم على الآخرين فهذا تكبر؛ ومن هنا ينبغي الالتفات دائماً إلى هذه النقطة في الآيات.

٢. الاستنكاف

لقد أُشير في الآيتين السابقتين إلى كلمة الاستنكاف، ولكن ينبغي الالتفات إلى أن الاستنكاف تم تفسيره بمعنى الامتناع والتمرد، والمراد به في الآية المبحوثة هو الامتناع والتمرد على أوامر الله تعالى.

٣. العلو

﴿يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٢). فأحياناً تُستخدم كلمة (عالي) بالنحو المصدر (العلو)، ولكنها تعطي نفس المعنى، فيقول تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٣).

٤. البغي

إن كلمة البغي معناها الكفر؛ ولذا قيل: «في الأساس تُطلق على [الشعور] بعدم الحاجة الزائد عن الحد، والعمل ضد الآخرين بالظلم وبما يخالف الشرع والقانون، وقد

(١) الأعراف: آية ١٤٦.

(٢) ص: آية ٧٥.

(٣) النمل: آية ١٤.

فسر البيضاوي كلمة البغي بـ (التكبر)^(١).

قال الله عز وجل في القرآن: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

٥. البطر

هذا المصطلح يعني كذلك التكبر والطغيان، ولكن بمعنى الوصول إلى حدّ الثمالة الناتجة - في المقام - عن امتلاك الإنسان للثروة أو أيّ شيء آخر، فيقول تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بَطِرَ مَعِيشَتُهُمْ فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَعْدَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣).

٦. العتوّ

العتوّ هو من الألفاظ القريبة من معنى (استكبر)، ولكي يتّضح المعنى الدقيق لها، نُقدّم التوضيح التالي: «معنى عتا هو تجاوز حدّ التعادل، وتصرف الإنسان بغرورٍ وتكبرٍ شديدين، وكلمة عتا تُضاف إلى (عن) وتعني الابتعاد عن الشيء، وهي تعطي معنى الإعراض والتمرد على الأوامر والوقوف بوجه الأحكام والقوانين، وإذا أردنا أن نحكم الأمور بناءً على نماذج استعمال هذه الكلمة، فقد يكون بإمكاننا أن نقول: بأنّ (عتا) تُشير إلى التجلّيات الخارجيّة والملموسة للغرور - سواءً في التصرف أم في الكلام - في حين أنّ (استكبر) تدلّ على الحالة الداخليّة والباطنيّة»^(٤). فيقول الله عز وجل:

(١) توشيهيكو ايزوتسو، مفاهيم اخلاقي - ديني در قرآن مجيد [= المفاهيم الأخلاقية والدينية في

القرآن المجيد]: ص ٢٩٣.

(٢) الشورى: آية ٢٧.

(٣) القصص: آية ٥٨.

(٤) توشيهيكو ايزوتسو، مفاهيم اخلاقي - ديني در قرآن مجيد [= المفاهيم الأخلاقية والدينية في

القرآن المجيد]: ص ٢٩٨.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾^(١).

٧. الطغيان

لقد فسّرت كلمة (طغى) في معاجم اللغة بالنحو التالي: «التجاوز عن الحدّ، والتجاوز عن المقدار، والإفراط و طغيان (ماء البحر)، وفيضان (ماء النهر)»^(٢). فهذه الكلمة هي إحدى مرادفات كلمة (استكبر)، ولها دور هام جداً في شرح هذا النوع من المفاهيم في القرآن الكريم، فنفس معنى (فيضان ماء النهر) الذي ذكر في المعنى اللغوي هو من باب التصوير المجازي، وهو يُطلق على كلّ نوعٍ من الغرور الذي يؤدّي إلى العصيان، وقد نقل (توشيهيكو ايزوتسو) عن البروفيسور (مونتجومري وات) المستشرق البريطاني ما يلي: «الطاغي يُطلق على الشخص الذي يمشي في طريقه بدون الالتفات إلى الموانع، وخصوصاً بدون الالتفات إلى الملاحظات والحدود الأخلاقية والدينية، ولا يسمح لشيء أن يقف في طريقه، واطمئنانه إلى سلطته وقوّته لا حدّ له ولا حصر، [وعلى أساس] فهم معيّن للقرآن تدلّ كلمة طغى على فقدان الشعور بكونه مخلوقاً... وهو يرتبط بإنكار وتجاهل الخالق»^(٣).

ونحن بدورنا نُشير إلى الآيات التي وردت في هذا الصدد، فيقول تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(٤). ويقول: ﴿كَذَبَتْ نُمُودُ

(١) الفرقان: آية ٢١.

(٢) آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربى - فارسى [= القاموس المعاصر (عربي/ فارسي)]: ص ٣٩٨.

(٣) توشيهيكو ايزوتسو، مفاهيم اخلاقيّة - دينيّة در قرآن مجيد [= المفاهيم الأخلاقية والدينية في القرآن المجيد]: ص ٢٩٨.

(٤) المائدة: آية ٦٤.

يَطْعُونَهَا ﴿١١﴾ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا ﴿١١﴾. ويقول أيضاً: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

٨. الاستغناء

استغنى يعني اعتبر نفسه غير محتاج، يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ إِنَّ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٢﴾. فتعرض هاتان الآيتان إلى رفض التصرفات التي يُبرزها الإنسان تجاه النعم الإلهية، فعلى الإنسان أن يكون شاكراً لنعم الله، ولكننا نراه يكفر ويطغى بدلاً من الشكر؛ ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾﴾ تعني أن الإنسان يطغى ويتجاوز حدوده بدلاً من أن يشكر، والله عز وجل يريد من خلال هذه الجملة أن يُخبر عن طبع البشر، وقوله: ﴿إِنَّ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٢﴾﴾ تبيين طغيان الإنسان.

ويقول العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية: «وقوله: ﴿إِنَّ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٢﴾﴾ من الرأي دون الرؤية البصرية، وفاعل (رأه) ومفعوله الإنسان. وجملة ﴿إِنَّ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٢﴾﴾ في مقام التعليل، أي: ليطغى لأنه يعتقد نفسه مستغنياً عن ربه المنعم عليه فيكفر به، وذلك أنه يشتغل بنفسه والأسباب الظاهرية التي يتوصل بها إلى مقاصده، فيغفل عن ربه من غير أن يرى حاجة منه إليه تبعثه إلى ذكره وشكره على نعمه، فينسأه ويطغى»^(١).

٩. التجبر

إنَّ الشخص الذي يرى نفسه عالياً إلى درجة أنه مستغنٍ وغير محتاجٍ إلى الآخرين، من الطبيعي أن يميل إلى أن يتسلط في جميع الأمور على بني جلدته، وقد

(١) الشمس: آية ١١-١٢.

(٢) النازعات: آية ٣٧-٣٩.

(٣) العلق: آية ٦-٧.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠، ص ٣٢٥.

عُرِفَ (الجَبَّار) في معاجم اللغة بالنحو التالي: «جَبَّار الخطوة: هو الشخص الذي يمشي ويخطو بتكبرٍ وبتسلُّط ويكون متكبراً ومغروراً. وكلمة جَبَّار صفةٌ لـ(القلب)، وليس للإنسان، وأمَّا ذكرها في القرآن فالظاهر أنها للكفَّار دائماً، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(١). ومجيء كلمتي (المتكبر) و(الجبار) إلى جانب بعضهما البعض يدلُّ على أنَّهما متقاربتان في المعنى.

١٠. الاستهزاء

مع الالتفات إلى الدور الرادع للرؤية (المتكبرة) و(المستكبرة) عن الإيمان، فإنَّ النفس التي تحمل هذه الرؤية تُبرز نفسها بصورٍ مختلفةٍ، فمثلاً: كلمتا (الاستهزاء) و(الجدال) اللتين كان يستفيد منهما الكفَّار في مواجهة الأنبياء والمسلمين، فالكفَّار الطالبين للعالم كانوا يستهزئون بمسألة الحياة الأخروية، وهناك العديد من الآيات التي يُمكن أن تذكر لهذا الأمر، والتي تُبيِّن العلاقة بين الكفر والشرك والاستهزاء، كقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^(٣).

ويُستعمل مفهوم الاستهزاء بمعنى (سَخِرَ) و(اشتقاقاتها الأخرى) تارةً، وبمعنى (الهزو) أخرى، وقد استُعملت مفردة الاستهزاء في كلا هذين المعنيين في الآيات، فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يُسْتَهْزَءُونَ﴾^(٤). ويقول أيضاً: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يُسْتَهْزَءُونَ﴾^(٥).

(١) آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربی-فارسی [=القاموس المعاصر (عربي/فارسي)]: ص ٧٥.

(٢) الحجر: آية ٩٤-٩٥.

(٣) الأنبياء: آية ٣٦.

(٤) الأنعام: آية ١٠.

١١. المجادلة

إنّ المواجهات الأخرى التي يرتكبها الكفار تظهر أحياناً على شكل جدالٍ مع المسلمين، والآية التالية تُبيّن بوضوح جدال المخالفين مع المهتدين: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ...﴾^(١).

وبناءً على ما تقدّم؛ فالكِبَر هو أحد الكلمات والمصطلحات التي تُخبر عن علاقة الشخص المتكبر مع الآخرين، والكِبَر مرضٌ وهو منشأ للعديد من الانحرافات ومن بينها الشرك والكفر، وقد ذكرنا بهذا الصدد وبنحوٍ مجملٍ إحدى عشرة كلمة أخرى تُردّاه أو تقاربه في المعنى.

(١) الكهف: آية ٥٦.

الفصل الثالث

المفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع نفسه

تمهيد

إنّ أحد النقاط المهمّة في الأخلاق، هي كيفيّة علاقة الإنسان بنفسه، وهذه العلاقة أيضاً تحتاج إلى أن يعرف الإنسان نفسه، وإذا كانت معرفته بنفسه مطابقةً للواقع، وكان يسير في طريق التسامي والتكامل الحقيقي، فإنّ علاقته مع نفسه سوف تكون إيجابيّة وممدوحة؛ وبالتالي سيحصل الإنسان على نتائج وثمار مفيدةً تبعاً لذلك، وفي المقابل إذا كانت رؤيته ومعرفته بنفسه غير واقعيّة ولا صحيحةً، فلن تكون الخطوات التي يخطوها من أجل نفسه صحيحةً، ولن يقتصر الأمر على ذلك بل قد تؤدّي إلى أضرار لا تقبل الاستدراك أيضاً فيما يتعلّق بمسير تكامله؛ ومن هنا فالأصل المسلّم في مسيرة الحياة هو إتقان هذه النقطة، وهي أنّ العمل الصحيح لنفس الإنسان لا يمكن أن يتحقّق بدون المعرفة الواقعيّة بالنفس.

المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم المعنويّة

١. التفكير

إنّ (التفكير) من الألفاظ التي يُفهم منها ارتباط الإنسان بنفسه، ورغم أنّ التفكير بحدّ ذاته لا يُمثّل صفةً أخلاقيّةً، إلّا أنّ كلّ عملٍ فهو ينشأ من صفةٍ أو من

صفات أخلاقية، ولقد نجد أن القرآن يعدّ التفكير أداة للوصول إلى الكمالات المعرفية التي يُمكن من خلال الاستعانة بها طيّ بعض مدارج الترقّي والكمال.

مفهوم التفكير

تُسمّى قوّة العلم التي تُثير الدرب نحو المعلوم: الفكر، و(التفكير) والذي هو عبارة عن حركة تلك القوّة بناءً على رأي العقل، والإنسان فقط هو الذي يمتلك هذه القوّة دون الحيوانات، والتفكير لا يُمكن أن يحصل إلّا فيما يتعلّق بالأمور التي يُمكن إيجاد صورتها في الذهن، وبالتالي فالتفكير في ذات النفس غير ممكن^(١).

وقد عرّف التفكير في المصطلح الفلسفي والعرفاني بالنحو التالي: في الفلسفة التفكير معناه التفكير، وتصرف القلب في معاني الأشياء من أجل إدراك المطلوب، وعند أهل الذوق هو نتيجة التذكّر والتفكير في الله بواسطة التوجّه إلى آثار صنعه^(٢). فهو «تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب»^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنّ مفهوم التدبّر والتفكير، رغم وجود مراتب لكلّ منهما، لكن يُوجد فرقٌ دقيق بين معنيهما: ف«التدبّر: تصرف القلب بالنظر في عواقب الأمور، والتفكير: تصرف القلب بالنظر في الدلائل»^(٤).

منزلة التفكير في القرآن

تحدثت الآيات الكثيرة في كتاب الله حول التفكير والتدبّر ودوره في هداية الإنسان، فالفكر مفتاح النور ومنشأ البصيرة، وأكثر الناس يُقدّرون قيمة الفكر

(١) أنظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٠٤.

(٢) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [=قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٢، ص ١٠٨.

(٣) ابن عبد الله، صالح، وابن محمّد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم: ج ٤، ص ١٠٦٥.

(٤) بَيّات، بيت الله، معجم الفروق اللغوية، ص ١٢١.

ومنزلة، ولكنهم غير مطلعين على ثماره وحقيقته؛ ولهذا السبب لا يمكن المقارنة بين جهدهم الجسمي والبدني مع مقدار تفكيرهم، وقد أشير في القرآن إلى قيمة التفكير سبع عشرة مرة ، صُرِّح في عدّة آياتٍ منها بالوصية بالتفكير وأهميته، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ ثَمَرٍ مُّثْقَلٍ وَفَرَدَيِّ ثُمَّ نَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۖ﴾^(١).

وقد أوصى القرآن الكريم واهتم بالتفكير من حيث متعلّقه بشكل أكثر، وعلى سبيل المثال أوصى القرآن بالتفكير في الآيات والمظاهر الإلهية، وهو الأمر الذي يُوجب معرفة الله وبالتالي تكامل الإنسان، ومع ذلك هناك بعض الآيات التي توصي بشكلٍ عامٍّ ومطلقٍ بالتفكير من قبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ ۖ﴾.

ومن الجدير بالذكر؛ إنّ هذه الدعوة للتفكير تكون أحياناً من خلال تعبير (انظروا) واشتقاقاتها، وأحياناً أخرى يستعمل خالٍ من مادّة (فكر)، وستتعرّض هنا لهذه الآيات بشكلٍ مجملٍ.

١. التفكير في الآفاق

﴿... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

وهناك آيات أخرى تتعلّق بالآفاق بما يشمل الخلقة وإحياء الأرض في فصل الربيع، وسعة الأرض وارتفاع الجبال، ونمو النباتات الزوجية فيه، وكيفية الطعام والحيوانات وكون الأرض مسطّحة.

(١) سبأ: آية ٤٦.

(٢) آل عمران: آية ١٩١.

٢. التفكير في آيات الأنفس

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾^(١).

٣. التفكير في آيات الله

﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

٤. التفكير في القرآن

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣). وقد

ذكر في بعض الآيات بأن الهدف من نزول القرآن هو التدبر والتفكير في آياته، فيقول تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٤).

إن القرآن بحر عميق لا يمكن الوصول إلى كنوزه الثمينة إلا من خلال التفكير والغور في أعماقه، وطوال التاريخ الإسلامي، كتب المسلمون - شيعه وسنة - حوالى (١٥٠٠) دورة تفسيرية للقرآن، وقدم كل تفسير معارف جديدة بالنسبة للتفسير السابق عليه، وبقي القرآن كنز فوار يمكن لكل إنسان أن يستفيد منه بحسب مقتضيات الزمان والمكان، وبحسب ما لديه من معارف وفكر، ومع مرور الزمان والتطور العلمي زادت المساعي التي بُدِلَتْ في تفسير معارف القرآن وبيانها، فتم الوصول إلى تعاليم جديدة قيمة وصافية، وأساساً رونق القرآن في العالم يتوقف على التطور العلمي والفكري المدهش واتساع نطاقيهما، خلافاً لبعض الأديان والمناهج التي تتوقف في وجودها على جهل الناس.

(١) الروم: آية ٨.

(٢) يونس: آية ٢٤.

(٣) النساء: آية ٨٢.

(٤) ص: آية ٢٩.

٥. التدبر في المخلوقات

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ...﴾^(١).

٦. التفكير في التاريخ وفي قصص الماضين

كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿... فَأَقْصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

٧. التفكير في أمثال القرآن

كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

وتعود الوصية بالتدبر في أمثال القرآن إلى أنها توضح وتبين الآيات، وبشكل عام للمثال تأثير كبير في بيان المراد وفهمه، وهذا المثال الذي في هذه الآية يبين عظمة القرآن، وهو أقوى بياناً وأكثر تأثيراً، ولا يمكن لتوضيح آخر أن يحل محل هذا البيان بهذه البلاغة والجمال.

٢. الاعتدال

إن الوسطية والاعتدال من المفاهيم الأخلاقية الممدوحة والإيجابية، وهو مؤيد من قبل كل من العقل والشرع المقدس أيضاً.

مفهوم الاعتدال

«الاعتدال في اللغة يعني: الوسطية في الكمية (ناظم الأطباء)، الوسطية في الكمية

(١) الأعراف: آية ١٨٥.

(٢) آل عمران: آية ١٣٧.

(٣) الأعراف: آية ١٧٦.

(٤) الحشر: آية ٢١.

والكيفية (منتهى الأرب)، والوسطية بين كميّتين أو كيفيّتين (المؤلف)»^(١).

الاعتدال في القرآن

لم تستعمل كلمة الاعتدال في القرآن، ولكن ذكر معناها ومفهومها في عدّة آيات بخصوص موضوعات مختلفة، وفيما يلي سنتعرّض لبيان هذه الآيات ومفهوم الاعتدال الذي ورد فيها:

١. الاعتدال في العبادة

إنّ صلاة الليل هي واحدة من أفضل العبادات، ومع الالتفات إلى وقت أدائها يُمكن إظهار العبوديّة من خلالها بأخلص وجه، ولكن في نفس الوقت الذي تمّت فيه الوصيّة بأهميّة التعبّد والتهجّد في الليل بشكل كبير جدّاً، فقد طُلِبَ من المؤمنين أن يؤدّوا ذلك على قدر طاقتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ۖ قُرْ آيَاتِ الْإِنشَاءِ ۚ﴾^(٢) يَصْفَهُ: وَأَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا^(٣).

ويُستفاد من هذه الآية أنّ الله خير نبيّه وبالتبع خير باقي المؤمنين، بأن يتم اختيار أحد هذه الأزمنة للتجهد في الليل، [قال العلامة الطباطبائي عن ذلك]: «والترديد بين الثلاثة للتخير، فقد خير بين قيام النصف، وقيام أقلّ من النصف بقليل، وقيام أكثر منه [أي من نصف الليل] بقليل»^(٤).

ومن هنا؛ نجد أنّ الله عزّ وجلّ قد وضع مقدار زمان التهجّد بيد المصلّين، وجعله بمقدار ما لديهم من طاقة ورغبة، وعلى أيّة حال لم يأمرهم بأمر يشقّ عليهم، بل حذّر في بعض الآيات نبيّه من أن يشقّ على نفسه، فيقول تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ

(١) علي أكبر دهخدا، لغت نامه [= قاموس]: ج ٢، ص ٢٩٠٦.

(٢) المزمّل: آية ١-٣.

(٣) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠، ص ٦١.

الْقُرْءَانَ لَتَشْفَىٰ ﴿١﴾.

وبناءً على هذا؛ فإن الله عز وجل لا يُجيز في مقام تبليغه للدين بأن يخرج الإنسان عن حد الاعتدال ولا أن يؤذي نفسه.

٢. الإسلام منهج معتدل

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴾^(١).

ولكي يتضح المراد من الآية لا بد أن نبيّن أن المراد من كلمة (حنيف) هو الاعتدال؛ لأن «الحنف ميل القدمين إلى الوسط والمراد به الاعتدال»^(٢)، وقد وصف القرآن الكريم النبي إبراهيم عليه السلام في سبع آيات بأنه حنيف، وهي تطلب من المسلمين أن يبقوا أوفياء لأسلوب الاعتدال الإبراهيمي، وألا ينجرّوا إلى الإفراط والتفريط في العقائد والأخلاق، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٣).

٣. الاعتدال في الإنفاق

إنّ الإنفاق المستحب هو أحد العبادات المالية التي تمت التوصية بها توصيةً بشكل ملفت جداً، وقد بحثنا حول هذا الموضوع في الفصل الثاني بشكلٍ مستوفٍ، ومع كون الإنفاق أمراً قيماً جداً ومن الأمور التي أوصي بها كثيراً، لكن مع ذلك لا يقبل القرآن بالإفراط والتفريط في هذا الأمر أيضاً، وقد نهى صراحةً مرتين عن الإفراط في الإنفاق، فيقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ

(١) طه: آية ٢.

(٢) الروم: آية ٣٠.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٦، ص ١٧٨.

(٤) النحل: آية ١٢٣.

بَيِّنْ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١﴾.

كما أنَّ الآية التالية تُشير إلى إحدى صفات (عباد الرحمن)، وتُبين أنَّ إحدى الخصوصيات الاثني عشر لهؤلاء العباد الذين جعلهم الله مورداً لرحمانيته ولطفه وعنايته هي اعتدالهم في الإنفاق، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿٢﴾.

والنقطة المثيرة للاهتمام في هذه الآية هي أنَّها رغم نهيبها عن كلِّ من الإفراط والتفريط، إلَّا أنَّها صَبَّتْ لومها وتحذيرها على نتائج الإفراط عند الإنفاق، وقد يكون هذا التأكيد من جهة أنَّ خطأ البخل واضحٌ للجميع، ولكن البعض لديه تصوُّرٌ باطلٌ بأنَّه كلما زاد الإنفاق - كما فعل عثمان بن مظعون عندما أنفق جميع أمواله - كلما كان مقرباً إلى الله عز وجل أكثر.

هذا، ويُعدُّ الاعتدال من الناحية النفسية عملاً صائباً وصحيحاً أيضاً؛ لأنَّ التفريط في الأمور يؤدي إلى شعور الإنسان بالذلة والتخلُّف عن الآخرين، كما أنَّ الإفراط يُسبب السأم والتراجع الدفعي. وفي المقابل (الاعتدال) يؤدي من الناحية النفسية إلى المحافظة على نشاط الإنسان وانتعاشه.

المفاهيم السلبية

من خلال بيان علاقة الإنسان مع نفسه يتَّضح بأنَّ بعض الحالات والصفات في الإنسان تُبين علاقةً حسنةً مع نفسه، كما أنَّ البعض الآخر منها تُبين العلاقة السلبية وغير الطبيعية، وفي هذا القسم سوف نقوم بعرض المفاهيم الحاكية عن العلاقة السلبية بين الإنسان ونفسه وتوضيحها:

(١) الفرقان: آية ٦٧.

(٢) الإسراء: آية ٢٩.

١. الغفلة

الغفلة تُخبرنا عن مدى جهلنا، وتُعدّ هذه الحالة خطيرة جداً من وجهة نظر الأسس الأخلاقية، ويمكن لها أن تكون الأساس للعديد من الصفات والأعمال القبيحة.

مفهوم الغفلة

لقد عُرِّفت الغفلة في معاجم اللغة بما يلي: «إذا كان النسيان عارضاً على الإنسان من جهة نقص الحفظ أو بسبب قلة الوعي فيسمى ذلك (غفلة)»^(١).
وأما في العرفان والأخلاق، فتُعدّ الغفلة الخطوة الأولى للسقوط والابتعاد عن السلوك؛ ولذا اهتمّوا بها كثيراً، وقد عرّفوها بهذا النحو: «الغفلة في اصطلاح أهل الله هي: غفلة القلب عن الحقيقة، وقد جاء في شرح كلمات بابا طاهر بأن أصل الغفلة هو الحرمان في المستقبل عن ذكر الحقّ، وفي كلمات العلماء: الغفلة اتّباع النفس إلى ما تريد وإتلاف الوقت بالبطالة»^(٢).

الغفلة في القرآن

قد تكرّرت كلمة الغفلة في القرآن الكريم بالاشتقاقات التالية: (غافلين) و(غافلون) و(أغفلنا) و(غفلة) و(غافلاً) (٢٢) مرّة، ويمكن أن تُصنّف الآيات الأخلاقية المتعلقة بهذا البحث تحت عنوانين:

أ) آثار الغفلة

١. الهلاك في الدنيا

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾^(٣).

(١) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامی [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٢، ص ١٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الأنعام: آية ١٣١.

٢. الانحطاط أكثر من الحيوانات

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١).

ففي هذه الآية توجد ثلاثة نقاط، هي:

١. إِنَّ الْكَفَّارَ مِثْلَ الْأَنْعَامِ.

٢. إِنَّهُمْ أَحْطَّ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ.

٣. إِنَّهُمْ غَافِلُونَ.

وقد كتب الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما يلي: «إنما حصل الامتياز بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في القوّة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته، فلما أعرض عن ذلك كان كالأنعام، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ لأنّ الحيوانات لا قدرة لها على تحصيل هذه الفضائل، والإنسان أُعطي القدرة على تحصيلها، والإنسان العاصي رغم أنّ له القدرة لكنّه لم يستفد منها. وأما وصفهم بأنهم ﴿الْغَافِلُونَ﴾؛ فلائهم غافلون عمّا أعدّ الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب»^(٢).

ب) أنواع الغفلة

يُمكن تقسيم الآيات التي تُبين الغفلة وعواقبها في الحياة المعنوية للإنسان إلى أربعة أنواع:

١. الغفلة عن الله

﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾^(٣).

﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

(١) الأعراف: آية ١٧٩.

(٢) الفخر الرازي، محمد بن عمر، تهذيب التفسير الكبير: ج ٣، ص ٣٧٩.

(٣) الكهف: آية ٢٨.

(٤) مريم: آية ٣٩.

وهذه الآية في مقام بيان أنّ عدم الإيمان، أو أنّ الانجذاب إلى زينة الدنيا تجعل الإنسان غافلاً عن حتمية مستقبله وأهميته المصيرية، والذي هو يوم القيامة.

٢. الغفلة عن رسالة الله

﴿وَلَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِائِنَا لَعَنُفُلُونَ﴾^(١).

٣. الغفلة عن العهد مع الله

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٢).

يقول الفخر الرازي في تفسير عبارة ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ما يلي: «والمعنى: إنّ تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فصار ذلك جاريًا مجرى ما إذا أشهدهم على أنفسنا وإقرارنا بوحدايته»^(٣).

٤. الغفلة في الحرب

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾^(٤).

ملاحظة: إنّ العامل الأساسي لجميع انحرافات الإنسان هو الغفلة؛ ولذا نجد أنّهم يذكرون بأنّ الخطوة الأولى في التكامل والسلوك في الأخلاق هي (اليقظة)

(١) يونس: آية ٩٢.

(٢) الأعراف: آية ١٧٢.

(٣) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ١٥، ص ٤٠٢. [وتجدر الإشارة إلى أنّ الرازي ذكر تفسيرين للآية بناءً على قولين، فقال: «أما على قول من أثبت الميثاق الأوّل فكلّ هذه الأشياء محمولة على ظواهرها»، ثمّ تعرّض للقول الذي عُرض في الأعلى، بعد أن بيّن مبناه؛ حيث قال: «وأما على قول من أنكره قال: إنّها محمولة على التمثيل، والمعنى: إنّ...» (م).]

(٤) النساء: آية ١٠٢.

والصحو، فاليقظة هي النقطة المقابلة للغفلة، وبسبب هذا التأثير السلبي للغفلة في الحياة المعنوية للإنسان نجد بأن القرآن يذكر في عدد من الآيات أن الهلاك الدنيوي والأخروي ينشأ من الغفلة، ويهتم اهتماماً خاصاً ببيان السبيل للتخلص من هذه الرذيلة، وقد درسنا هذا البعد من البحث حول الغفلة في القسم السابق.

٢. العُجب

(العُجب) هو أحد الصفات الأخلاقية السلبية والتي تُبين العلاقة غير السليمة فيما بين الإنسان ونفسه.

مفهوم العُجب

لقد عرّفوا العُجب في اللغة بقولهم: «العُجب هو: الرضا عن الذات، والنظر إلى النفس على أنها أرفع من الآخرين، وعدم الرضا عن أي شيء»^(١).

وأما في اصطلاح العرفاء، فقد عرّف العُجب بهذا النحو: «العُجب عبارة عن النظر إلى النفس وعملها، فيعدّ عمله عظيماً، وهذا الأمر غير جيّد، وفي الأساس يعود إلى أمرين: الأوّل: ما عند الخلق من الجاه ومدح الشخص، والآخر: أن يُفضّل الإنسان فعل شخصٍ على شخصٍ آخر فيمدحه إلى أن يُعجب الفاعل بنفسه، وقد قال أحد أعظم الدين: أن أنام كلّ الليل وأصحو في الصباح وأنا منكسرٌ وخائفٌ، أحبّ إليّ من أن أصليّ الليل كله، وأستفيق في الصباح مُعجباً بنفسيّ»^(٢).

ومن الجدير بالذكر أن كلاً من مفهوم العُجب والتكبر يتشابهان في المعنى، ولكن مع ذلك هناك فرقٌ دقيقٌ بينهما: فالعُجب هو أن يرى الإنسان لنفسه مقاماً ورتبةً وعلوّاً على الآخرين بدون أن يُقارن نفسه بالآخرين؛ وأما الكبر فهو أن يرى

(١) آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربى - فارسى [= المعجم المعاصر (عربي/فارسي)]: ص ٣٥٠.

(٢) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامى [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ٢، ص ١٢٤٠.

الإنسان لنفسه - عندما يُقارن بالآخرين - بأن له عظمةً وعلوًّا عليهم بدون أن يُظهر ذلك، ولكن إذا أظهر هذه الصفة كأن يجلس إذا دخل إلى مجلس في صدر المجلس؛ لأنه يرى نفسه أعلى، فهذا يُسمّى تكبراً.

نظرة القرآن للعُجب

يعتبر القرآن أن العُجب عبارة عن مرضٍ وآفةٍ أخلاقيةٍ، ومع أنه لم يرد لفظ (العُجب) في القرآن، ولكن يُمكننا أن نجد معناه في سبع آيات، وهذه الآيات يُمكن أن تُبحث ضمن أربعة عناوين:

١. العُجب والفرح في غير محله

إنّ الإنسان المبتلى بالعُجب يفرح فرحاً ليس ذا قيمةٍ ولا في محله، وقد أشارت الآية التالية إلى هذه الحالة: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(١).

وقد جاء في تفسير هذه الآية قولهم: «وفي آخر آية - من الآيات محلّ البحث - يُبيّن القرآن واحداً من آثار الشرك وعلائمه في عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا في دينهم على فرقٍ وأحزابٍ كثيرة: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾، والعجيب في الأمر أنهم على تضادهم واختلافهم فإنّ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾»^(٢).

٢. تسبّب العُجب بالإضلال

إنّ إضلال العُجب أمرٌ واقعيٌّ لا يقبل الإنكار، فالإنسان المبتلى بالعُجب يكون عادةً راضياً عن نفسه وعن تفكيره، بحيث لا يكون مستعداً لسماع الأمور الحقّة من

(١) الروم: آية ٣٢.

(٢) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٢، ص ٥٢١.

الآخرين، ولا أن يتأمل فيها، فيقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿١﴾.

٣. تجاهل الحق

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢). فقد ذكر العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية ما نصه: «المُرَادُ بِـ ﴿مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ما وقع في قلوبهم وشغل نفوسهم من زينة الحياة الدنيا وفنون التدبير للظفر بها وبلوغ لذائذها، وقد عدَّ الله سبحانه ذلك علماً لهم، وقَصَرَ عِلْمَهُمْ فِيهِ» (٣).

٤. العذاب هو النتيجة الأخروية للعُجب

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَاقِرٍ مِنَ الْعَذَابِ... ﴾ (٤).

ومن هنا؛ فالعُجب من الرذائل، وهو يُبيِّد الأَرْضِيَّةَ للبقاء بعيداً عن الصالحات والمحافظة على السيئات، والشخص المبتلى بالعُجب لن يتكامل بسبب غروره ورضاه عن نفسه، وقد بيّن القرآن الكريم بأن الرضا عن النفس هو منشأ التعلّقات المضلّة، والتي لا قيمة لها، كما أنّها منشأ للتعلّق بالعلم الباطل، وفي الأخير هي السبب للعذاب الأليم، ومن هنا قيل: إن «(العُجب) - بحسب ما ذكره الحكماء رضوان الله عليهم - عبارة عن تعظيم العمل الصالح واستكثاره والسرور والابتهاج به، واعتبار الإنسان نفسه غير مُقَصِّرٍ» (٥).

(١) غافر: آية ٧٤-٧٥.

(٢) غافر: آية ٨٣.

(٣) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٧، ص ٣٥٦.

(٤) آل عمران: آية ١٨٨.

(٥) خميني، روح الله، شرح چهل حديث [= شرح الأربعين حديثاً]، ص ٦١؛ [وفي النسخة المعرّبة: ص ٨٣].

ومع الالتفات إلى الآيات والروايات وتعاليم الأعظم - التي نُقلت - يتّضح أنّ العُجب هو أحد المهلكات الأخلاقية، وينبغي معرفته ومحاربتها. ولكي تتّضح أهميّة الموضوع هنا، سوف نذكر بعض الروايات عن المعصومين عليهم السلام، حيث يقول الإمام علي عليه السلام في ذمّ العُجب والرضا عن النفس ما يلي: «أوحش الوحشة العُجب»^(١). ويقول عليه السلام: «لا وحدة أوحش من العُجب»^(٢). ويبيّن لنا الإمام الرضا عليه السلام في إحدى الروايات كيفية الابتلاء بالعُجب بالنحو التالي: «عن عليّ بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن العُجب الذي يُفسد العمل، فقال: العُجب درجات منها أن يُزَيَّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيُعجبه، ويحسب أنّه يُحسن صنعا، ومنها: أن يؤمن العبد برّبه، فيؤمن على الله عزّ وجلّ، والله عليه فيه المنّ»^(٣). ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى الروايات: «سيئةٌ تسوؤك خيرٌ عند الله من حسنةٍ تعجبك»^(٤).

وبإمعان النظر في هذا النوع من الكلام القيم، يتّضح لنا أنّ السبب في كلّ هذا الذمّ بحقّ العُجب والابتلاء به يعود إلى أنّ الإنسان يغفل عن نفسه وعن أعماله، في حين أنّ أوّل خطوةٍ للتكامل هي اليقظة والتخلّص من الغفلة، وكأنّ العُجب يُقيّد رجلي الإنسان المبتلى به، فلا يجعله يلتفت إلى واقعية نفسه الوجودية، ويمنعه من أن يستغفر ويتوب ويقوم بأعمال الخير في سبيل تكامل نفسه، وفي الحقيقة تفقد أعمال الخير لدى الإنسان المبتلى بالعُجب خاصيّة التكامل؛ ما يمنع الإنسان عن الحركة نحو الحقّ تعالى، فروح العبادة وعمل الخير هي بتأدية العبوديّة والطاعة والتسليم

(١) خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الكلمات القصار: ح ٣٨.

(٢) خطب الإمام علي عليه السلام، [نهج البلاغة، الكلمات القصار: ح ١١٠]. (م)

(٣) الكليني، محمّد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ٣، ص ٤٢٧.

(٤) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج ٦، ص ٤٥٩.

الله تعالى، لكنّ الروح الأسيرة بالعُجب مضافاً إلى كونها أسيرةً من الداخل، فهي مبتلاةٌ بمعصية التكبر والغطرسة، فالتكبر ينتج عن العُجب ورضا الإنسان عن نفسه؛ ولذا فهو يُعتبر أحد الكبائر.

على أن هناك فرقاً وتمايزاً بين التكبر والعُجب، فقد ذكر المَلّا أحمد النراقي حول ذلك قائلاً: «الفرق بين العُجب والكِبَر هو: أنّ المتكبر يرى نفسه أعلى من الغير، ومرتبته أكبر، والعُجب أن لا يرى لغيره مكاناً، والمعجب هو مَنْ يُعظم نفسه، ويكون فرحاً بها، ويرى نفسه، وينسى المنعم»^(١).

(١) النراقي، المَلّا أحمد، خلاصة معراج السعادة [المقامات العليات في موجبات السعادة الأبدية]، تلخيص الشيخ عبّاس القمّي: ص ٦٥.

الفصل الرابع

المفاهيم المبينة لعلاقة الإنسان مع الطبيعة

تمهيد

إنَّ أحدَ جوانبِ العلاقة بين الإنسان والطبيعة التي من حوله، هي الأمور التي يُصبح العيش ممكناً في ظلِّ وجودها، فالإنسان دائماً ما يستفيد من مواهب الطبيعة التي وضعها الله تحت اختياره، ولغرض استمرار العيش فإن من الضروري التوفّر على حياة طبيعيّة وسالمة، وهناك شرطان لا بدّ منهما لحفظ سلامة الطبيعة عند الاستفادة منها:

أولاً: الاستفادة من الطبيعة بالنحو الأمثل والصحيح.

وثانياً: اجتناب الإسراف أو استهلاكها بنحو غير صحيح.

ورغم أنّه من الممكن أن تكون بعض المفاهيم التي سنتعرّض لها في هذا الفصل ممّا لا يعتبر صفةً أخلاقيّةً بشكلٍ مباشرٍ، لكنّ السبب والمنشأ لأي عملٍ يقوم به الإنسان، هو صفةٌ داخليةٌ وخصلةٌ مغروسةٌ في ذاته.

المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم

١ . الاستفادة المثلى من الطبيعة

هناك العديد من الآيات في القرآن تُشير إلى الطبيعة، من قبيل الآيات التي تتكلّم عن الأرض والطعام والماء والحيوان، وقد أشارت العديد من الآيات إلى أنّ

خلق الطبيعة هو من أجل الإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾^(١).
وسنذكر هنا الآيات التي تبين أنّ الهدف من خلق الطبيعة هو استفادة الإنسان منها، وهي:

أ) بركات الأرض والسماء

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾^(٢).

لقد جاء التعبير في هذه الآية بكلمة (لكم) مرّتين، ففي بداية الآية يقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾؛ (أي: جعلها متوافقة مع احتياجاتكم في الزراعة والسكن والطرق... حيث خلقها بنحوٍ مناسبٍ لكم فهي ليست صلبةً جداً ولا رخوةً جداً)، وفي آخر الآية صرّح بأنّه جعل نزول الماء من السماء وإخراج الثمرات من أجل الإنسان.

ب) البحر مُسَخَّرٌ لِلْإِنْسَانِ

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣).

وتُبيّن هذه الآية - وهي في صدد إثبات التوحيد وعظمة الله - ثلاثة أنواع من المواهب والعطايا المهمة التي في البحر، وهي:

أ) لحوم السمك الطازجة: وهي من الأطعمة اللذيذة والمفيدة جداً لسلامة

(١) الرحمن: آية ١٠.

(٢) البقرة: آية ٢٢.

(٣) النحل: آية ١٤.

الإنسان، وهذا اللحم الحلو واللذيذ يخرج من الماء المالح، الأمر الذي يكشف عن قدرة الله تعالى.

(ب) اللباس: والمراد منه اللؤلؤ والمرجان اللذان هما وسيلة لزيينة ألبسة النساء، وحيث إنّ النساء هنّ بأنفسهن يتزيّنن للرجال؛ لذا جاء الضمير في الآية مذكراً.

(ج) حركة السفن: التي يستفيد منها البشر، حيث تحمل المسافرين والأحمال في البحر، فالقسم الأعظم من حركة التجارة في الدنيا تحصل عن طريق المحيطات والبحار.

ج) مجموعة التغيرات التي تجري في الأرض

لقد عرضت سورة عبس السير الطبيعي لكيفية ظهور الأنواع المختلفة من الفاكهة والأطعمة للإنسان، فيقول تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ١٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ١٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ١٧ وَعَنَبًا وَقَضْبًا ١٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ١٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ٢٠ وَفَكَهْهً وَأَبًّا ٢١ مَتَاعًا لَّكُم ٢٢ وَلَا تَنسَوْنَهُ ٢٣﴾.

ويذكر بعض المفسرين بشأن استنتاج القرآن من هذه الآيات قائلاً: بعد أن بين الله عز وجل ست آيات وأنواع من نعم الطبيعة، بين من خلال هذه الآية الأخيرة ﴿مَتَاعًا لَّكُم ٢٢ وَلَا تَنسَوْنَهُ ٢٣﴾ الحكمة من منح الناس هذه المواهب؛ فصرح بأن الله عز وجل أنبت هذه الزروع من أجل أن تتمتع بها وننتفع منها نحن وأنعامنا، فمنها ما ينتفع به الإنسان، ومنها ما يأكله الحيوان^(١).

ومن هنا؛ فإن الله خلق النظام الجميل للطبيعة بما تتضمنه من الصحاري والجبال والبحار والحيوانات ليتنفع منها البشر بمختلف أنواع الفائدة، والسؤال المطروح الآن هو أنه: ما هي وظيفة الناس من وجهة نظر القرآن تجاه هذه الطبيعة؟

(١) عبس: آية ٢٥- [٣٢].

(٢) أنظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي: ج ٣٠، ص ٤٨.

وفي الجواب نجد أنّ القرآن أوصى الإنسان بوظيفتين مهمّتين للاستفادة من الطبيعة بنحو كامل (أمثل).

واجبات البشر تجاه الطبيعة

أ) تطوير الطبيعة

بالنظر إلى الزاد والولد الدائمين والتطوّر الصحيّ والعلاجي للعديد من الأمراض، نجد أنّ نمو عدد السكان في الكرة الأرضيّة صار أسرع من السابق؛ ومن هنا فالطريقة الوحيدة لتلبية أنواع الحاجات الطبيعيّة لهذا العدد الكليّ هو حماية الطبيعة وحفظ ما لها من إمكاناتٍ كبيرة، وقد أوصى القرآن بوصايا أساسيّة ومهمّة فيما يتعلّق بالمحافظة على البيئة وكيفية الاستفادة من مواهب الطبيعة، فيقول تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا﴾^(١).

وينبغي علينا في هذه الآية أن نهتمّ أكثر بمعنى كلمتي (أنشأ) و(استعمر)، فقد قال الراغب الأصفهاني بشأن الكلمة الأولى: إن «النَّشْءُ والنَّشْأَةُ: إِحْدَاثُ الشَّيْءِ وَتَرْبِيَّتُهُ... وَالْإِنْشَاءُ: إِيجَادُ الشَّيْءِ وَتَرْبِيَّتُهُ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانِ»^(٢).

وأما في مقام توضيح معنى (العمارة) فيذكر الراغب قائلاً: «الْعِمَارَةُ: نَقِيضُ الْخَرَابِ، يُقَالُ: عَمَرَ أَرْضُهُ: يَعْمُرُهَا عِمَارَةً. وَأَعْمَرْتُهُ الْأَرْضَ وَاسْتَعْمَرْتُهُ: إِذَا فَوَّضْتَ إِلَيْهِ الْعِمَارَةَ»^(٣).

هذا، وأنّ الآية المبحوث عنها تُشير - في مقام بيانها للتوحيد - إلى خلقة الإنسان، كما أنّها بصدد تذكير الإنسان بوجود علاقةٍ وارتباطٍ بينه وبين الله، وبناءً على ذلك تقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾.

(١) هود: آية ٦١.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، معجم مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٠٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٨٦.

كما يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير هذه العبارة: إن «(العمارة) تحويل الأرض إلى حالٍ تصلح بها أن يُنتفع من فوائدها المترتبة منها؛ كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتماع فاكهتها والتنزه فيها، و(الاستعمار) هو: طلب العمارة بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرةً تصلح لأن ينتفع بها يُطلب من فوائدها.

وعلى ما مرّ؛ يكون معنى قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ - والكلام يُفيد الحصر - أنه تعالى هو الذي أوجد على المواد الأرضية هذه الحقيقة المسماة بالإنسان، ثم كملها بالتربية شيئاً فشيئاً، وأفطره على أن يتصرّف في الأرض بتحويلها إلى حالٍ ينتفع بها في حياته، ويرفع بها ما يتنبّه له من الحاجة والنقيصة»^(١).

وبناءً على ما تقدّم؛ فتكليفنا - في المقام - هو السعي لإحياء الطبيعة وازدهارها، وهذا التكليف كأنه أُودع في فطرة الإنسان، فإذا عمل إنسانٌ على العكس من ذلك فهو في الواقع يُحارب فطرته.

ب) الاستفادة الصحيحة من الطبيعة

يقول الله عزّ وجلّ في الآيات التي عرضناها في القسم الأوّل من البحث حول الطبيعة بأنّه خلق الأرض والبحار والجبال والغابات والحيوانات وغيرها من أجل أن تستفيدوا منها أنتم، في حال أن الناس إنما يتحركون في ظلّ الهدف من خلقتهم إذا ما استفادوا من هذه المواهب بنحوٍ صحيحٍ وبمقدار حاجتهم، وأمّا إذا لم يفعلوا ذلك فإنهم سوف يُعرضون مستقبلهم ومستقبل الآخرين للخطر من خلال إهدار النعم واستغلالها بنحوٍ مسرفٍ وغير عادلٍ، وهذا النوع من الاستغلال المسرف

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٠، ص ٣١٠.

وغير العادل يُخالف هدف الخلقة؛ ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١). ففي هذه الآية، نجد أن الله عز وجل يقول لنا في ظل هدف الخلقة: كلوا واشربوا، ولكن بما أن الاستهلاك غير العقلاني يخالف لهدف الخلقة؛ لذا فهو ينهى عن الاستهلاك الزائد الذي يكون في غير محله. ومن هنا؛ فأحد أنواع علاقات الإنسان هو علاقته بالطبيعة، فلوجود الحياة واستمرارها ليس أماناً سبيل إلا الاستفادة من الطبيعة، وقد بين القرآن كذلك بأن الله وفر الطبيعة من أجل النمو والاستمرار بالحياة ورفع حاجات البشر، وفي نفس الوقت يعتبر أن بقاء الطبيعة الجميلة وسلامتها يكون من خلال التطور والاستفادة منها استفادة عقلانية.

وفي المصطلح الاقتصادي يُسمى هذا النوع من الاستفادة: الاستفادة المثلى، ومن المؤسف أن البشر في هذه الأيام يعملون خلافاً لمصلحتهم، فيقومون بتخريب هذه الطبيعة وتدميرها، فهناك مئات الأنواع من المواد السامة والكيميائية والمضرة التي تُنتج وترمى من خلال مجاري المصانع والمنشآت الصناعية والمناطق الحضرية، وهذه المواد الملوثة تُلقى بأجمعها في الأنهار والبحار وداخل الأرض بكميات كبيرة جداً، فالنبات والأسماك والطيور والحيوانات والبشر جميعهم معرضون للخطر، وهذا العمل غريب عن ثقافة القرآن كلياً.

٢. النظافة

إن النظافة أمر يتطابق مع الفطرة السليمة، كما أن العقل يؤكد عليها أيضاً، ويمكن لنا أن نرى بأن النظافة فيما بين أنواع الموجودات الطبيعية المختلفة، هي

(١) الأعراف: آية ٣١.

سبب بقائها وتطوّر حياتها، بحيث إنّ هذا الأمر غير قابلٍ للإنكار سواء في الحياة النباتيّة أو الحيوانيّة والبشريّة، وهناك العديد من الروايات والآيات التي أوصت بالنظافة في حياة الإنسان، فيقول تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾^(١).

المفاهيم السلبية

الإسراف

إنّ (الإسراف) هو أحد المفاهيم التي تُبيّن العلاقة السلبية فيما يتعلّق بعلاقة الإنسان مع الطبيعة.

مفهوم الإسراف

لقد عرّف الإسراف في معجم مفردات القرآن بما يلي: السَّرَفُ: تجاوز الحدّ في كلّ فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر... ويُقال تارةً اعتباراً بالقدر، وتارةً بالكيفيّة^(٢).

وللإسراف معنى وتفسير خاصّ في المجال الأخلاقي والفقهّي مبنيّ على الأسس الأخلاقيّة والفقهيّة، فقد ذكروا أن: «الإسراف يعني الزيادة، وهو مصطلحٌ أخلاقي يُستخدم فيما يتعلّق بصرف الأموال والنقود بنحوٍ سيّئ؛ من قبيل صرفها على الشهوات واللذات، أو الصرف بنحوٍ زائدٍ عن الحدّ الواجب في وجهٍ واجبٍ، وعند الفقهاء هو عبارة عن الزيادة في الأعمال، وهو يُطلق كذلك على كلّ زيادةٍ في أيّ أمرٍ، وهو حرامٌّ؛ لأنّ الله عزّ وجل يقول: ﴿إِنَّكَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾»^(٣).

(١) الأنفال: آية ١١.

(٢) أنظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٤٠٧.

(٣) سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي [= قاموس المعارف الإسلامية]: ج ١، ص ١٨٣.

مكانة الإسراف في القرآن

تُبين الآيات المتعلقة بالإسراف أربعة تعليقات ترتبط بكيفية التخلص من هذه الصفة والسلوك السيئ:

١. حرمة الإسراف

﴿...كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا...﴾^(١).
فإن النهي الصريح للقرآن في هذه الآية يدل على الحرمة الشرعية للإسراف.

٢. عدم محبوبية المسرف عند الله

ورد التصريح في آيتين بأن الله تعالى لا يحبّ المسرفين، وذلك في قوله تعالى:
﴿...إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى أيضاً: ﴿...وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣).

فالآية الأخيرة صريحة بالنهي عن الإسراف، كما أضافت إلى ذلك أن الله لا يحبّ الإسراف، والمراد من عدم محبة الله في هذا النوع من الآيات هو عدم مطابقة هذا العمل مع الموازين الإسلامية، وفي هذه الحالة لن يكون الإنسان محلاً للطف الله وعنايته أيضاً.

٣. ضرورة الابتعاد عن الإفراط والتفريط

لقد ذمّ الله عزّ وجلّ الإفراط والتفريط جنباً إلى جنب في آيتين، في قوله تعالى:
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ...﴾^(٤). وفي قوله أيضاً: ﴿إِنَّ

(١) الأنعام: آية ١٤١.

(٢) [الأنعام: آية ١٤١]. (م)

(٣) [الأعراف، آية ٣١]. (م)

(٤) [الإسراء: آية ٢٩].

الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ... ﴿٣١﴾.

٤. آثار الإسراف

يذكر تعالى في آخر الآية (٢٩) من سورة الإسراء التي يذم فيها الإفراط والتفريط في الإنفاق أثرين ونتيجتين للإسراف، وهما:

١. يُصْبِحُ مَلُومًا.

٢. يُصْبِحُ مُحْشُورًا.

وقد ذُكرت هاتان النتيجتان في قول تعالى: ﴿... وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْشُورًا﴾^(٣١). فلو ابتلي الإنسان بالمشاكل بسبب إسرافه في إنفاق الأموال، فسوف يكون ملومًا من الآخرين، وكذلك سوف يتحسّر على نفسه، وسوف يقول لنفسه: يا ليتني لم أُعجز نفسي عبر هذا العمل!

وعلى أية حال، الإسراف لا يُمثّل علاقةً صحيحةً مع الطبيعة، وحرمة مسلّمة من وجهة نظر القرآن، والمسرّف مذمومٌ ومحرومٌ من محبة الله، وفي النهاية لن يكون من نصيبه إلا اللوم والحسرة، وأفضل وصيّة في هذا المجال هي وصيّة القرآن بالاعتدال، وذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٣٢).

(١) الإسراء: آية ٢٧.

(٢) الإسراء: آية ٢٩.

(٣) [الفرقان، آية ٦٧]. (م)

قائمة المصادر

* القرآن الكريم

* نهج البلاغة

١- ابن سليمان، مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت. ط: ١.

٢- ابن سينا، عبد الله بن الحسين، الإشارات والتنبيهات، نشر الكتاب، طهران، ١٤٠٣ هـ.

٣- ابن عبد الله، صالح، وابن محمد، عبد الرحمن، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة - السعودية، ١٤٢٦ هـ، ق، ط: ٤.

٤- ابن عربي، محيي الدين، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: الدكتور مصطفى غالب، انتشارات ناصر خسرو.

٥- ابن عطية الأندلسي، عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلميّة، لبنان، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٣ م.

٦- ابن مسكويه الرازي، أحمد بن علي، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، بيدار، قم، ١٤١٢ هـ.

٧- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

- ٨- أبو حفص، عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، بيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- ٩- اتكينسون، درآمدى به فلسفه اخلاق [= مدخل إلى فلسفة الأخلاق]، ترجمه للفارسيّة: سهراب علوي نيا، مركز ترجمه ونشر كتاب، طهران، ١٣٧٠هـ ش.
- ١٠- آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربى - فارسى [= المعجم المعاصر (عربي - فارسي)]، المبني على أساس المعجم العربي الإنجليزى لهانسور، طبعة (نقش جهان).
- ١١- افروز، غلامعلي، چكیده‌ای از روانشناسی تربیتی (كاربردي) [= خلاصة علم نفس التربية (التطبيقي)]، أنجمن أولياء ومريّان، طهران، ١٣٧٢ ش.
- ١٢- الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، منشورات دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- ١٣- الأنصاري، عبدالله، مصباح الشريعة، دار الأعلمي، بيروت، ١٤٠٠هـ، ط: ١.
- ١٤- إنصاف پور، غلام رضا، كامل فرهنگ فارسى [= الكامل، معجم فارسى]، زوار، طهران، ١٣٧٤هـ ش.
- ١٥- البستاني، فؤاد أفرام، قاموس منجد الطلاب، الناشر: أساطير، طهران، ط: ١.
- ١٦- البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- ١٧- بندريگي، محمد، فرهنگ بندريگي [= قاموس بندريگي (فارسي)]، علمي، طهران، ١٣٧٨هـ ش.
- ١٨- البهائي، محمد بن الحسين، الأربعون حديثاً، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٣١هـ، ط: ٣.
- ١٩- تعيلب، عبد المنعم أحمد، فتح الرحمن في تفسير القرآن، دار الإسلام، مصر، ط: ١.

٢٠- التهانوي، محمد علي بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلميّة، طهران، ١٤١٨ هـ .

٢١- توشيهيكو، ايزوتسو، مفاهيم اخلاقي - ديني در قرآن مجيد [= المفاهيم الأخلاقية والدينية في القرآن المجيد]، ترجمه للفارسيّة: فريدون بدره‌اي، نشر وپژوهش فرزاد روز، طهران، ١٣٧٨ ش، ط: ١.

٢٢- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق ودراسة، محمد صديق، المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة - مصر .

٢٣- الجزائري، عبد الله، التحفة السنية، نسخة مخطوطة، تخطيط: عبد الله نور الدين بن نعمة الله .

٢٤- الجوزي القرشي البغدادي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق، ط: ٤ .

٢٥- الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٨٣ هـ

٢٦- حسن زادة الآملي، حسن، عيون مسائل النفس وسرّ العيون في شرح العيون، انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٨٥ هـ ش .

٢٧- الحسيني الطهراني، محمد حسين، رسالة لبّ الباب في سير وسلوك أولي الألباب، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط: ١ .

٢٨- خرماهي، بهاء الدين وآخرون، دائرة المعارف تشيع (فارسي) [= دائرة معارف التشيع]، نشر شهيد سعيد محبي، ط: ٣ .

٢٩- الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة، ترجمة: السيّد أحمد الفهري، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦ هـ .

٣٠- الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، تعريب: السيّد محمد الغروي، مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، طهران، ١٤٢٤ هـ .

- ٣٧٢..... الأخلاق الإسلامية في القرآن؛ دراسة في الأسس والمفاهيم
- ٣١- الخميني، روح الله، الجهاد الأكبر أو جهاد النفس، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، طهران، ١٤٢٦ هـ .
- ٣٢- دهخدا، علي أكبر، لغت نامه [= قاموس دهخدا]، جامعة طهران، ١٣٤١ هـ ش.
- ٣٣- ديلمی، أحمد، و: آذربایجانی، مسعود، أخلاق اسلامی [= الأخلاق الإسلامية]، دفتر نشر معارف، قم، ١٣٨٢ هـ ش.
- ٣٤- الرازي، فخر الدين، تهذيب التفسير الكبير، هذبہ وعلّق عليه: حسين بركة الشامي، دار الإسلام، ط: ١.
- ٣٥- راسل، برتراند، تاريخ فلسفه غرب (تاريخ الفلسفة الغربية)، ترجمه للفرسيّة: نجف دريا بندري، كتابهای جیبی، ١٣٥٣ هـ ش.
- ٣٦- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشي، طبع على مطبعة التقدّم العربي، ١٣٩٢ هـ .
- ٣٧- الراوندي، قطب الدين، فقه القرآن، نشر مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم - إيران، ط: ٢.
- ٣٨- رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠١٠ م.
- ٣٩- رشيد رضا، محمد، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط: ٢.
- ٤٠- رضوان طلب، محمد رضا، پرستش آگاهانه [=العبادة عن وعي]، ستاد اقامه نماز، طهران، ١٣٧٥ هـ ش.
- ٤١- الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.
- ٤٢- السبحاني، جعفر، رسالة في التحسين والتقبيح العقليين، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم - إيران، ١٣٧٨ هـ ش.

- ٤٣- سجّادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي [= قاموس المعارف الإسلامية]، انتشارات كوش، طهران، ١٣٧٣ ش، ط: ٣.
- ٤٤- السيّوري، المقداد، نضد القواعد الفقهيّة، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٣ هـ.
- ٤٥- شبر، عبد الله، الأخلاق، منشورات ذوي القربى، قم-إيران، ١٤٢٧ هـ، ط: ١.
- ٤٦- شبي، سعيد، آئين خردپروري [= قانون تربية النفس]، مؤسسة ناشر دانش وانديشه معاصر، طهران، ١٣٨١ هـ ش، ط: ١.
- ٤٧- شجاعى، محمّد، معاد بازگشت به سوى خدا [= المعاد عودةً نحو الله]، شركت سهامى انتشار، ١٣٨٢ هـ ش، ط: ١.
- ٤٨- شجاعى، محمّد، مقالات، سروش، طهران، ١٣٦٤ هـ ش.
- ٤٩- شريفى، أحمد حسين، خردورزى [= ممارسة التفكير]، مؤسسة فرهنگى دانش وانديشه معاصر، طهران، ١٣٨١ هـ ش.
- ٥٠- شعرائى، ميرزا أبو الحسن، نثر طوبى يا دائرة المعارف لغات قرآن مجيد [= نثر طوبى أو دائرة معارف لغات القرآن المجيد]، انتشارات كتاب فروشى إسلامية، ط: ٢.
- ٥١- شفيعى ما زندرانى، محمد، پرتوى از مباني تربيتى عرفان امام خمينى [= شعاع من مباني التربية العرفانية للإمام الخميني]، دفتر انتشارات إسلامي وابسته بجامعه مدرسين حوزه علميه قم، قم-إيران، ١٣٧٦ هـ ش.
- ٥٢- الشيرازي، صدر الدين محمد بن ابراهيم، شرح أصول الكافي الكليني، تصحيح: محمّد خواجوي، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي، طهران، ١٣٦٦ ش.
- ٥٣- الصادقي الطهراني، محمّد، الفرقان في تفسير القرآن، انتشارات فرهنگ إسلامي، طهران، ١٤٠٥ هـ.

- ٥٤- الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، منشورات الأعلمي، طهران.
- ٥٥- ضياء آبادي، محمد، توبه يا شرح دعای (٣١) صحيفه سجاديّه [= التوبة أو شرح الدعاء (٣١) من الصحيفه السجاديّة]، نشر بناء، ط: ٢.
- ٥٦- طالقاني، محمود، تفسير پرتوی از قرآن [= تفسير شعاع من القرآن]، شرکت سهامي انتشار، طهران، ١٣٦٢ هـ ش.
- ٥٧- طاهري، حبيب الله، درسهایی از اخلاق اسلامي يا آداب سير وسلوك [= دروس من الأخلاق الإسلامية أو آداب السير والسلوك]، دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٣ هـ ش، ط: ٤.
- ٥٨- الطباطبائي البروجردي، محمد مهدي، بحر العلوم، رسالة في السير والسلوك، مع تقديم وشرح: آية الله الحاج السيد محمد الحسين الطهراني، تعريب: عبد الرحيم مبارك، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان، ط: ١.
- ٥٩- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، جامعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم.
- ٦٠- الطباطبائي، محمد حسين، مختصر الميزان في تفسير القرآن، إعداد: إلياس كلان تري، دار الأسوة، ط: ١.
- ٦١- الطبرسي، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع، تحقيق: أبو القاسم گر جي، انتشارات دانشگاه طهران، ط: ٣.
- ٦٢- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، انتشارات ناصر خسرو، طهران، ١٣٧٤ هـ ش، ط: ٤.
- ٦٣- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الفكر، بيروت.
- ٦٤- الطوسي، الخواجه نصير الدين محمد، رسالة بقاء النفس بعد فناء الجسد، شرح: أبي عبد الله الزنجاني، مطبعة رعمسيس، القاهرة.

- ٦٥- الطوسي، الخواجه نصير الدين، اخلاق ناصري [= الأخلاق الناصرية]، انتشارات علميه اسلاميه، طهران، ١٣٧٢ هـ ش، ط: ١.
- ٦٦- عابدي، أحمد، فلسفه اخلاق [= فلسفة الأخلاق]، كراس دراسي للمركز التخصصي في التبليغ والمعارف الإسلامية.
- ٦٧- العسكري، أبو هلال، معجم الفروق اللغوية، تنظيم: بيت الله، بيّات ومؤسسة النشر الإسلامي، قم- إيران، ط: ١.
- ٦٨- علم اخلاق اسلامي (گزيده جامع السعادات، علم اخلاق اسلامي يا گزيده...) [= علم الأخلاق الإسلامي (مُنتخب من جامع السعادات)]، حكمت، طهران، ١٣٦٩ هـ ش.
- ٦٩- الغزالي، محمد، ميزان العمل، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤ م، ط: ١.
- ٧٠- فائزي، علي، تربيت، روشها و اخلاق اسلامي [= التربية، الأساليب والأخلاق الإسلامية]، نشر مسعى، طهران، ١٣٧٧ هـ ش، ط: ١.
- ٧١- الفخر الرازي، محمد، التفسير الكبير، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤١٣ هـ.
- ٧٢- فردريك، كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ترجمه للعربية: محمود سيّد أحمد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ م.
- ٧٣- فردريك، كوبلستون، تاريخ فلسفه غرب (تاريخ فلسفة الغرب)، ترجمه للفارسية: بهاء الدين خرمشاهی، انتشارات علمي وفرهنگي وانتشارات سروش.
- ٧٤- فرهاديان، رضا، أسس التربية والتعليم في القرآن والحديث، تعريب: سيّد علي

- أشرف، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٥ هـ، ط: ١.
- ٧٥- فرهاديان، رضا، اصول ومباني تعليم وتربية در قرآن (أسس التربية ومبانيها في القرآن)، انتشارات دفتر تبليغات، قم، ١٣٧٨ هـ، ش، ط: ١.
- ٧٦- الفلسفي، محمد تقي، الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية، مؤسسة البعثة، بيروت.
- ٧٧- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٤ هـ.
- ٧٨- الفيض الكاشاني، محسن، الحقائق في محاسن الأخلاق، تحقيق: محسن عقيل، نشر دار الكتاب الإسلامي، قم، ١٤٢٣ هـ.
- ٧٩- الفيض الكاشاني، محسن، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، الطبعة الثانية، دفتر انتشارات إسلامي.
- ٨٠- القاسمي، محمد جمال الدين، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ١٣٩٨ هـ.
- ٨١- قراءتي، محسن، تفسير النور، الطبعة الثانية، دار المؤرخ العربي، بيروت.
- ٨٢- قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق. ط: ١٧.
- ٨٣- القمي المشهدي، محمد بن رضا، كنز الدقائق وبحر الغرائب، تحقيق: حسين درگاهی، وزارة الإرشاد الإسلامية، ط: ١.
- ٨٤- القمي المشهدي، محمد، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، دفتر انتشارات اسلامي، قم، ١٤١٣ هـ.
- ٨٥- القمي، عباس، كليات مفاتيح الجنان، قدياني، طهران، ١٣٧٤ ش.
- ٨٦- كديور، بروين، روانشناسی تربیتی [= علم النفس التربوي]، نشر سمت، طهران، ١٣٨٢ ش، ط: ٤.

- ٨٧- الكليني، محمد بن محمد بن يعقوب، أصول الكافي، تحقيق: الآخوندي، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨ هـ ، ط: ٣.
- ٨٨- الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، دار الحديث، طهران.
- ٨٩- مجله حوزة [=مجلة الحوزة]، دفتر تبليغات إسلامي حوزة علميه قم.
- ٩٠- محبوب، فاطمة، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، دار الغد العربي، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- ٩١- المحقق الأردبيلي، مجمع الفائدة، دفتر انتشارات إسلامي، قم، ١٣٦٢ ش.
- ٩٢- محمدي الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، مركز النشر الإسلامي، قم، ١٣٦٢ هـ ش.
- ٩٣- مخلص، عبد الرؤوف (ترتيب وترجمة)، تفسير أنوار القرآن (منتخب من ثلاثة تفاسير) [فارسي]، انتشارات شيخ الإسلام، ط: ١.
- ٩٤- المدرّس، عبد الكريم محمد، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ط: ١.
- ٩٥- المدرّسي، محمد تقي، تفسير من هدى القرآن، دار القارئ، بيروت، ط: ١.
- ٩٦- المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤ هـ.
- ٩٧- مسعود، جبران، فريهنگ الفبائي الرائد [=معجم الرائد الألفبائي]، ترجمه للفارسيّة: رضا اترابي نژاد، انتشارات آستان قدس رضوي، ط: ٢.
- ٩٨- مصباح اليزدي، محمد تقي، الأخلاق في القرآن الكريم، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٥ هـ.
- ٩٩- مصباح اليزدي، محمد تقي، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٣١ هـ ، ط: ٧.
- ١٠٠- مصباح يزدي، محمد تقي، بر درگاه دوست [=على عتبة الحبيب] شرح

لمقاطع من أدعية: الافتتاح وأبي حمزة الثمالي ومكارم الأخلاق، مؤسسه
آموزشي پژوهشي امام خميني، قم- ايران، ١٣٨٣ هـ ش.

١٠١- مطهرى، مرتضى، انسان كامل [= الإنسان الكامل]، منشورات صدرا،
طهران، ١٣٧٠ هـ ش.

١٠٢- مطهرى، مرتضى، فلسفه اخلاق [= فلسفة الأخلاق]، نشر أسوة، طهران،
١٣٧٧ هـ ش، ط: ١.

١٠٣- مطهرى، مرتضى، مجموعه آثار [= مجموعة الآثار]، منشورات صدرا،
طهران، ١٣٧٠ هـ ش.

١٠٤- المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، إسماعيليان، قم.

١٠٥- مكارم الشيرازي، ناصر (تحت إشرافه)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،
الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ١٤٢١ هـ، ط: ١.

١٠٦- مكارم الشيرازي، ناصر (تحت إشرافه)، مختصر تفسير الأمثل، تحقيق: أحمد
علي بابائي، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قم،
١٤٢٨ هـ.

١٠٧- ملكيان، مصطفى، تاريخ فلسفه غرب [= تاريخ الفلسفة الغربية].

١٠٨- المهائمي، علي بن أحمد، تفسير القرآن المسمى تبصير الرحمن وتيسير المنان،
بيروت، ط: ٢.

١٠٩- الميبدى، أبو الفضل رشيد الدين، تفسير كشف الأسرار وعدة الأبرار
(تفسير الخواجة عبد الله الأنصاري)، بسعي واهتمام: علي أصغر حكمت،
انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٦١ هـ ش.

١١٠- النراقي، أحمد بن محمد مهدي، خلاصة معراج السعادة [المقامات العليات

في موجبات السعادة الأبدية]، تلخيص: الشيخ عباس القمي، تعريب:
الشيخ أحمد وهبة، دار الهادي، بيروت، ١٤٢١هـ، ط: ٢.

١١١- النراقي، الملا أحمد، معراج السعادة (فارسي)، سازمان انتشارات جاويدان.

١١٢- النراقي، مهدي بن أبي ذر، جامع السعادات، انتشارات إسماعيليان، قم،
١٤٢٨هـ، ط: ٧.

١١٣- النهاية، مجد الدين السيّد محمد الجزائري، مؤسسه مطبوعاتي إسماعيليان، قم
- إيران، ١٣٦٧ش، ط: ٤.

١١٤- النوري، حسين بن محمد تقي، مستدرک الوسائل، مؤسسة آل البيت عليه السلام،
قم، ١٤٠٧هـ.

١١٥- الواحدي النيسابوري، علي بن أحمد، التفسير الوسيط، دار الكتب العلميّة،
بيروت - لبنان، ط: ١.

المحتويات

٧	كلمة المؤسسة.....
٨	(مؤسسة الخلق العظيم) ودوافع تأسيسها.....
٩	رؤية المؤسسة.....
٩	أولاً: الله تعالى.....
٩	ثانياً: النظام الأخلاقي.....
١٠	ثالثاً: الإنسان.....
١١	أهداف المؤسسة.....
١٣	مشاريع المؤسسة.....
١٣	١- موسوعة المواعظ الحسنة.....
١٣	٢- موسوعة الأخلاق الإسلامية الألفبائية.....
١٤	٣- ترجمة النتاجات الأخلاقية.....
١٤	٤- مشروع التراث الأخلاقي.....
١٤	٥- تأليف سلسلة الفضائل والردائل.....
١٤	٦- مشروع المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية.....
١٥	٧- المشاريع الإعلامية.....
١٥	٨- إقامة دورات في الأخلاق الإسلامية.....

١٥	٩ - المكتبة الإلكترونية الأخلاقية
١٥	هذا الكتاب
١٩	مقدمة المترجم
٢٣	مقدمة المؤلف
٢٥	تقريب حجة الإسلام والمسلمين الدكتور أحمد عابدي
٢٩	الالتفات إلى حضور الله
٣٠	حجة الله

القسم الأول

مفاهيم الأخلاق ومباحثها العامة

٣٥	الفصل الأول: شرح المفاهيم
٣٥	١. الأخلاق
٣٥	تعريف الأخلاق
٣٧	فائدة الأخلاق
٣٨	٢. الآداب
٣٨	تعريف الآداب
٣٩	فائدة الآداب
٣٩	٣. السير والسلوك
٣٩	تعريف السير والسلوك
٤٠	شروط السالك لطبي الطريق إلى الله
٤١	تصنيف الناس على أساس السير والسلوك
٤١	فائدة السير والسلوك
٤٢	٤. العرفان

٤٢	تعريف العرفان.....
٤٣	الفرق بين العرفان والعلم.....
٤٣	جاذبيّة العرفان وتأثيره.....
٤٤	٥. علم النفس التربوي.....
٤٤	تعريف علم النفس التربوي.....
٤٥	فائدة علم النفس التربوي.....
٤٥	المائز بين العناوين الخمسة المتقدّمة.....
٤٧	الفصل الثاني : الأخلاق الفاضلة والأخلاق الإسلاميّة
٤٧	تمهيد.....
٤٨	الأخلاق الأرسطيّة.....
٤٩	معيّار السعادة.....
٥٠	دراسة ونقدٌ لنظرية أرسطو.....
٥٢	الرؤية الإسلاميّة للأخلاق.....
٥٤	ضرورة التكامل المتناسق.....

القسم الثاني

أُسُسُ الأخلاق الإسلاميّة في القرآن

٥٩	تمهيد.....
٥٩	تاريخ البحث عن الأسس الأخلاقيّة في القرآن.....
٦١	أسلوب التحقيق.....
٦٣	الفصل الأوّل : تصحيح الاعتقادات
٦٣	تمهيد.....
٦٤	الاعتقاد والعمل.....

٦٥	رأي القرآن في كيفية تأثير العقيدة
٦٦	١. الإيمان هو الذي حفظ نبي الله يوسف عليه السلام
٦٧	٢. قوم لوط وإنكار الرسالة
٦٨	٣. أكل الحرام نتيجة لعدم الإيمان
٦٨	٤. الإسراف والفساد مع تكذيب النبوة
٦٩	مراتب الإيمان والعمل
٦٩	١. الفرح بالصالحات
٧٠	٢. الإثبات العملي للتقوى
٧١	٣. الوصول إلى العصمة الاختيارية
٧٣	الفصل الثاني: الاهتمام بالآخرة
٧٤	أساليب القرآن التربوية والأخلاقية في بحث المعاد
٧٤	١. التذكير بالموت
٧٥	الدنيا مقدمة للآخرة
٧٥	٢. فُرْصٌ لا تعود
٧٦	٣. كيفية الدخول إلى البرزخ
٧٨	٤. التشجيع على الصالحات والتحذير من السيئات
٨٠	٥. النعم مشروطة بتحصيل القيم الأخلاقية
٨١	أ) التقوى
٨١	ب) الإنفاق
٨٢	ج) الصبر
٨٣	د) صلة الرحم
٨٣	٦. التهديد من أجل تهذيب النفس

المحتويات	٣٨٥
أ) البخل	٨٤
ب) تتبّع العيوب	٨٤
ج) التطفيف	٨٤
د) البُهتان	٨٥
٧. التحذير بذكر الأسماء المختلفة ليوم القيامة	٨٦
أ) يوم القيامة	٨٧
ب) ظهور النوايا والسرائر	٨٧
ج) الجمع	٨٧
د) الفصل	٧٨
هـ) يوم الخلود	٨٨
و) يوم الحسرة	٨٨
ز) يوم التناد	٨٩
ح) يوم التغابن	٨٩
ط) يوم الحساب	٨٩
ي) فقدان الصداقات والعلاقات في ذلك اليوم	٩٠
س) يوم فرار الأقرباء من بعضهم	٩٠
الفصل الثالث: أصالة الروح في قبال البدن	٩١
ضرورة معرفة النفس في مجال الأخلاق	٩١
معرفة النفس الناطقة	٩٢
إثبات تجرّد الروح	٩٧
١. قوّة الروح وضعف الجسد	٩٧
٢. عدم قابليّة الحقائق البسيطة للانقسام	٩٨

٣. انتزاع الكلّيات من الجزئيات ٩٩
٤. النفس تُدرك ذاتها ٩٩
٥. كلما تحمّلت الروح أكثر ازدادت قوة ١٠١
- أصالة الروح مقابل البدن ١٠١
- نظرة القرآن إلى مقام الروح ومنزلتها ١٠٣
- بيان القرآن لكيفية خلق جسم الإنسان ١٠٣
- بيان القرآن لكيفية إيجاد الروح ١٠٣
- هل الأصالة لروح الإنسان أم لبدنه؟ ١٠٤
- حقيقة الروح ١٠٥
- عالم الخلق وعالم الأمر ١٠٦
- العلاقة بين أصالة الروح والأخلاق الإسلامية في القرآن ١٠٧
- القوى الأربعة للروح ١٠٨
١. العقل ١٠٩
- تعريف العقل ١٠٩
- الحالات الثلاثة الممكنة للإدراك ١١٠
- الإفراط في التفكير ١١٠
- الجهل البسيط أو التفريط في العقل ١١٠
٢. القوة الغضبية ١١١
- أ) التفريط في الغضب ١١٢
- ب) الإفراط في الغضب ١١٣
- ج) الشجاعة والاعتدال في الغضب ١١٤
٣. القوة الشهوية ١١٥

المحتويات	٣٨٧
المعنى اللغوي للقوة الشهوية	١١٥
الإفراط في الرغبات	١١٦
التقصير في تلبية الاحتياجات الغريزية	١١٧
الاعتدال في القوة الشهوية	١١٩
٤ . القوة الواهمة	١٢٣
كيفية الاعتدال في الواهمة	١٢٥
العدالة أم الأخلاق	١٢٥
الفصل الرابع: حرية الاختيار	١٢٧
الحرية من لوازم النظام الأخلاقي	١٢٧
الحرية والاختيار في القرآن	١٢٨
١ . اختيار الإنسان في قبال وسوسة الشيطان	١٢٨
٢ . حرية الإنسان عند مخالفته الأنبياء ﷺ	١٢٩
٣ . العلاقة بين هداية الله واختيار الإنسان	١٣٠
٤ . اختيار الإنسان في مسيرته التكاملية	١٣١
اليقظة والغفلة	١٣١
أنواع الغفلة	١٣٣
١- الموعظة	١٣٣
٢- الالتفات إلى العبر	١٣٤
٣- التذكير في الموت	١٣٥
٤- التفكُّر	١٣٥
٥- الامتحان أداة للإيقاظ	١٤٠
٦- العلم والمعرفة سبب للوعي	١٤٠

- آثار اليقظة ١٤١
- ١- الالتفات إلى النعم ١٤١
- ٢- الالتفات إلى حقيقة المعصية وخطورها ١٤١
- ٣- تعظيم الحق ١٤٢
- ٤- معرفة النفس الأمّارة ١٤٢
- ٥- الاهتمام بالوعيد الإلهي ١٤٢
- ٦- معرفة قيمة الوقت ١٤٣
- التوبة من ثمار المعرفة وأصل الاختيار ١٤٣
- مفهوم التوبة ١٤٣
- حقيقة التوبة ١٤٤
- شروط التوبة ١٤٥
١. الندم على فعل المعاصي ١٤٥
٢. الامتناع عن المعصية بسبب قبحها ١٤٥
٣. العزم على عدم العودة ١٤٥
٤. تدارك الأعمال عند الإمكان ١٤٦
- مراحل العودة في التوبة ١٤٧
١. لطف الله ١٤٧
٢. عودة العبد إلى الله ١٤٧
٣. عودة الله إلى عبده ليقبله ١٤٨
- الاستقامة في التوبة ١٤٩
- الذكر ودوره الحيوي والمهم ١٥٠
- مراتب الذكر ١٥١

المحتويات	٣٨٩
التوكل	١٥٢
مفهوم التوكل	١٥٢
فلسفة التوكل	١٥٣
الفصل الخامس : القبول بالحسن والقبح العقليين ومراعاة الحسن الفعلي والفاعلي	١٥٥
الحسن والقبح العقليان	١٥٥
منشأ الأحكام الأخلاقية وكيفيتها	١٥٦
الأدلة الشرعية على ضرورة إثبات الحسن والقبح العقليين	١٦١
الإلزامات الأخلاقية على أساس الملاكات الواقعية	١٦٢
آثار نفي (الحسن والقبح العقليين) في الأخلاق	١٦٣
الدليل على كون الأخلاق مطلقة	١٦٥
الحسن الفعلي والحسن الفاعلي	١٦٧
١. الحسن الفعلي	١٦٨
٢. الحسن الفاعلي	١٦٨
٣. الحسن الفعلي والفاعلي معاً	١٦٩
نظرة أخرى إلى الآيات الثلاثة	١٧٠
الحسن الفعلي والحسن الفاعلي يُكمّلان بعضهما البعض	١٧١
البيان العقلائي للموضوع	١٧٣
الفصل السادس : ضرورة كون الدوافع إلهية	١٧٥
تمهيد	١٧٥
١. الهجرة	١٧٥
٢. الجهاد	١٧٦
٣. الإنفاق	١٧٧

- ٤ . العبادة ١٧٨
- توجيه القرآن للدوافع ١٧٨
- ١ . إتباع الرضا الإلهي ١٧٩
- ٢ . الاصطباغ بالصبغة الإلهية ١٨٠
- ٣ . قبول العمل مع النية الخالصة ١٨٠
- ٤ . إبراز المحبة في التعبير بـ (إرادة وجه الله) ١٨١
- ما هو المراد من ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؟ ١٨٢
- سبيلان قرآنيان لجعل الدافع إلهياً ١٨٢
- أ) إيجاد التوحيد الخالص ١٨٢
- ب) تقييم القرآن لـ (الدنيا من أجل الدنيا) ١٨٤
- الخلاصة ١٨٦

القسم الثالث

مفاهيم الأخلاق الإسلامية في القرآن

- الفصل الأول: المفاهيم المبينة لعلاقة الإنسان مع الله ١٩١
- تمهيد ١٩١
- المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم ١٩٢
- ١ . الإخلاص ١٩٢
- مفهوم الإخلاص ١٩٢
- الواجبات ولزوم مراعاة الإخلاص ١٩٤
- الإخلاص وقيمة العمل ١٩٥
- منزلة الإخلاص في القرآن ١٩٦
- ١ - مراتب الإخلاص ١٩٧

المحتويات	٣٩١
٢- الامتيازات الخاصة بالمُخلصين	١٩٨
٣- نتائج الإخلاص وآثاره	١٩٩
السبيل للوصول إلى الإخلاص	٢٠٣
أهمية الإخلاص في الروايات	٢٠٤
ما هو الشرط في المقام ... الإخلاص أو النية؟	٢٠٦
٢. الإخبات	٢٠٩
الإخبات في القرآن	٢٠٩
آثار الإخبات	٢١٠
٣. التقوى	٢١٣
مفهوم التقوى	٢١٣
التقوى .. خوفٌ من الله أم من الذنب؟	٢١٤
أهمية التقوى في القرآن	٢١٥
آثار التقوى في القرآن	٢١٦
٤. التوكّل	٢٢٣
نظرة القرآن إلى التوكّل	٢٢٣
آثار التوكّل على الله في القرآن	٢٢٤
أنواع التوكّل في القرآن	٢٢٥
٥ و ٦. الخوف والرجاء	٢٣٠
المراد من (الخوف والرجاء)	٢٣٠
مقام الخوف في القرآن	٢٣٢
مراحل الخوف	٢٣٢
الخوف والأمل	٢٣٣

الرجاء في الآيات	٢٣٣
آثار الرجاء في القرآن	٢٣٤
٧. الخشوع	٢٣٦
الوصية بالخشوع في القرآن	٢٣٦
علامات الخشوع الواقعي	٢٣٧
٨. التضرع في القرآن	٢٣٨
٩. الاستكانة	٢٣٩
١٠. الخشية	٢٤٠
الفرق بين الخوف والخشية	٢٤٠
منزلة الخشية في القرآن	٢٤١
١١. الشكر	٢٤٦
الشكر في القرآن	٢٤٧
الحكمة من شكر الله	٢٤٧
فوائد الشكر وثماره في القرآن	٢٤٨
١٢. الصبر	٢٥٢
مفهوم الصبر	٢٥٢
قيمة الصبر	٢٥٣
الاستعانة بالصبر	٢٥٤
الوصية بالصبر في القرآن	٢٥٥
آثار الصبر	٢٦٠
إثبات الصديق والتقوى للصابرين	٢٦٢
الصبر الجميل	٢٦٣

المحتويات	٣٩٣
المفاهيم السلبية	٢٦٤
١. الفسق	٢٦٤
مفهوم الفسق	٢٦٤
تحذير القرآن من الفسق	٢٦٤
٢. الفجور	٢٦٩
كيفية الفجور من وجهة نظر القرآن	٢٧٠
٣. سوء الظن بالله	٢٧٢
سوء الظن في القرآن	٢٧٢
أقسام سوء الظن في القرآن	٢٧٣
آثار سوء الظن بالله في القرآن	٢٧٤
أنواع سوء الظن بالله	٢٧٥
٤. الرياء	٢٧٦
أنواع الرياء في القرآن	٢٧٧
علامات المُرَائِي	٢٨١
علاج الرياء	٢٨٢
الفصل الثاني: المفاهيم المبينة لعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان	٢٨٣
تمهيد	٢٨٣
المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم	٢٨٤
١. الإنفاق	٢٨٤
الإنفاق في القرآن	٢٨٤
أ- شروط قبول الإنفاق	٢٨٥
ب- عوامل زيادة أهمية الإنفاق	٢٨٨

ج - آثار الإنفاق	٢٩١
٢. الإيثار	٢٩٤
مفهوم الإيثار	٢٩٤
الإيثار في القرآن	٢٩٥
٣. صلة الرحم	٢٩٧
مفهوم صلة الرحم	٢٩٧
نظرة القرآن لصلة الرحم	٢٩٧
٤. الوفاء	٣٠١
الوفاء في القرآن	٣٠٢
مراتب الوفاء	٣٠٤
٥. البر	٣٠٤
مفهوم البر	٣٠٤
بعض مصاديق البر في القرآن	٣٠٦
٦ و ٧. الإحسان والعدل	٣٠٧
مفهوما العدل والإحسان	٣٠٧
الإحسان في القرآن	٣٠٨
العدل	٣١١
٨. التواضع	٣١٤
الخلاصة	٣١٥
المفاهيم السلبية والمضادة للقيم	٣١٦
١. النفاق	٣١٦
النفاق ومراتبه في القرآن	٣١٧

المحتويات	٣٩٥
خصائص المنافقين في القرآن	٣١٨
٢. الحسد	٣٢٠
٣. سوء الظنّ بالآخرين	٣٢٢
٤. الغيبة	٣٢٣
مفهوم الغيبة	٣٢٣
نظرة القرآن إلى الغيبة	٣٢٤
٥. البخل	٣٢٥
مفهوم البخل	٣٢٥
البخل في القرآن	٣٢٦
الفلاح في السخاء	٣٢٨
٦. الكذب	٣٢٩
مفهوم الكذب	٣٢٩
معاني الكذب في القرآن	٣٣٠
النظرة القرآنيّة تجاه الكذب	٣٣٣
٧. الكِبَر	٣٣٤
تقييم القرآن للكِبَر	٣٣٥
الألفاظ المقاربة في المعنى والمشابهة للكِبَر	٣٣٦
الفصل الثالث: المفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع نفسه	٣٤٣
تمهيد	٣٤٣
المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم المعنويّة	٣٤٣
١. التفكّر	٣٤٣
مفهوم التفكّر	٣٤٤

٣٩٦..... الأخلاق الإسلامية في القرآن؛ دراسة في الأسس والمفاهيم

٣٤٤..... منزلة التفكير في القرآن

٣٤٧..... ٢. الاعتدال

٣٤٧..... مفهوم الاعتدال

٣٤٨..... الاعتدال في القرآن

٣٥٠..... المفاهيم السلبية

٣٥١..... ١. الغفلة

٣٥١..... مفهوم الغفلة

٣٥١..... الغفلة في القرآن

٣٥٤..... ٢. العُجب

٣٥٤..... مفهوم العُجب

٣٥٥..... نظرة القرآن للعُجب

٣٥٩..... الفصل الرابع: المفاهيم المبيّنة لعلاقة الإنسان مع الطبيعة

٣٥٩..... تمهيد

٣٥٩..... المفاهيم الإيجابية والحاملة للقيم

٣٦٢..... ١. الاستفادة المثلى من الطبيعة

٣٦٢..... واجبات البشر تجاه الطبيعة

٣٦٤..... ٢. النظافة

٣٦٥..... المفاهيم السلبية

٣٦٥..... ١. الإسراف

٣٦٥..... مفهوم الإسراف

٣٦٦..... مكانة الإسراف في القرآن

٣٦٩..... قائمة المصادر

٣٨١..... المحتويات